

باريدوليا



الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: باريدوليا
اسم المؤلف	: د. هاني عيد
الغلاف	: عبد الرحمن حافظ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧ / ٢٧٩٩٢
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١٣٣-٥

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

باريدوليا

د. هاني عيد

كَلَامُ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ

إهداء

إلى أبي.....

لا شيء يؤذي الإنسي مثل الحقيقة، ولا شيء يسعده مثل الوهم.

غازي القصيبي

الوهم هو شيء يؤمن به الناس بالرغم من عدم وجود أدلة.

ريتشارد دوكينز

هناك مَنْ يشعر بأبسط حقوقه في السعادة وهو يزرع نصف ثمار الوهم. وهناك مَنْ يشعر بكامل حقوقه في التعاسة وهو يقطف كل ثمار الحقيقة.

غادة السمان

نحن من تسلق جبال الوهم، وحمل أحلامه، شعاراته، مشاريعه، كتاباته، لوحاته، وصعد بها لاهثاً حتى القمة.

كيف تدحرجنا بحمولتنا جيلاً بعد آخر نحو منحدرات الهزائم؟
من يرفع كل الذي وقع منا في السفح؟

أحلام مستغانمي

الحقيقة المرة خير ألف مرة من الوهم المريح.

محمد راتب النابلسي

^

الفصل الأول

مايو ٢٠٠٦

القاهرة... منتصف الليل.

تبددت المسافة بين عقارب الساعة، وتسارعت الخطى خوفاً وطمعاً من وإلى محطات المترو، التي دائماً ما تضجُّ بالزائرين في هذا التوقيت (الكادحين منهم والعابثين)، فأبجدية النوم لا تدرك عيون "القاهرة"، وسيما تلك المنطقة الحية التي يتقاطع فيها شارع "السودان" مع شارع "التحرير" عند محطة مترو "البحوث"، وبدى سقف المحطة في الأنوار الصفراء الخافتة وحشاً خُرافياً يلتقم أجساداً ويلفظ أخرى، وما زالت الخطى تقترب وتبتعد من الفوهة، تنقر القرميد وتقرع الأسفلت في معزوفة ركض خالدة، هادئة، متزنة، إلا من نشوز مناداة تصدر عن سائقي الحافلات الخاصة (الميكروباص) مقرونة بقهقهة عابثة مُستخفّة تؤرِّق غفوة "المركز القومي للبحوث" الرابض غير بعيد.

الكل يمرُّ من هنا؛ ماضياً في مساره، مسحوباً في مسلكه، تقوده قوى خفية، تدفعه فيزيائياً في صفوف المارين، بينما تبقى أفكاره وأحلامه

ودنياه تُحلّق خارج المدار؛ فهذا الرجل الخارج للتوّ من محطة المترو عابراً إلى الطريق الموازي، عند برج "سار يدار"، متممّاً بسبب مسموع يتلف حوله وكأنما يطارده ألف شبح يلعن ضيق الحال، وكثرة السؤال، والطلبات، والأوامر، والأسعار، وهمّ الدّين، واحتقان الجيوب الأنفية، لم يشعر حتى بيده التي صدمت كتف هذه العجوز، ولم يُبدِ حتى التفاتة نحوها، بينما لم تزل علامات الرضا مُطلّة من عينيها، تأملت في سكينه (صرخت يوماً على فراق وحيدها ومن وقتها أقسمت ألا يفلت وجعٌ منها أبداً) كما لم تفلت منها صرة الكتان المعقودة، أحكمت قبضتها عليها بقوة، بينما سحبت بالأخرى ملاكها المتشبه بطرف ثوبها، بقية مما ترك الوحيد، حفيذة تملك فمّاً صغيراً وجديلتين ومن السنين عشراً، ومن الرغيف نصفاً، وعينين معلقتين بفتاة عشرينية غادرت المترو للتو برداء أحمر مثير كشف عن ساقين من أبنوس، أحالها فريسةً في عيون ثُلّة من المراهقين، كانوا في طريقهم للمحطة، فغيروا سيرهم خلفها، ثم زادوها بصفارات عابثة، وكلمات أحق من قصّات رؤوسهم، تُشيعهم نظرات الحاقدين ولعنات اللاعنين.

الكل يمر من هنا، ووقف هو على بعد خطوات، شبح وحيد، معتقل بين جدران فقاعة، حيث السكون هو الحاكم والملك المُتوجّ، لا يسمع سوى هدر أنفاسه، وقد أتت خافّة آفلة متقطعة، وردت من بقايا قلب مرهق، ينبض دقاتٍ مُثاقلة.

وبأصابع مرتعشة، راح يشعل عوداً آخر من الثقاب، بعد أن خذله الكثيرون، عشرات سقطوا عند قدميه، حتى كاد يفقد أمل التقام

سيجارته، لم تكن بوصلته تشير إلى أي مكان (ترك سيارته منذ قليل عند مبنى شركة "الشرقية للدخان" بعد أن اهتزت عجلة القيادة في يده مرتين وكاد يسقط بها من فوق كوبري "الجيزة")، ترجّل بعدها، أخذته قدماه حتى أسوار الجامعة، طافها سؤالاً لفوح ذكريات حلوة مرت، براءته المفقودة وضحكاته من تقليد "كالوشا" لمشييه "فايز النخيلي"، وخطابة "أحمد حداد"، وضحكة "سماح عبد المعز".

داهمته ذكريات أخرى اخترقت قلبه وعقله، ذكريات أولها حلو العسل، وآخرها مُرُّ العلقم؛ تسكعت داخل جرح غائر لم يندمل، أثخنت فيه كجراح فاشل، مرت عبر مسامه، تضمنته حتى امتلكته، ألصقته بجدار من مسد، اسمه المصير.

كان أول مرة يسمع كلمة "أحبك" وقد أضفت الموسيقى الكلاسيكية لمطعم "إل مولينو" الإيطالي بالمعادي بُعداً رومانسياً، وجوّاً دفيئاً، بدد رجفة طائشة، رعدت لها أوصاله، ولم تفلح ملابسها الثقيلة في اتقائها كان يختلس النظر إلى ملابسها الخفيفة في دهشة، وقد اصططكت أسنانه، فدفع يناير لا يُرد، ضحكت وهي تتناول قطعة صغيرة من "البيتزا"، إنها تعيش في "مينيسوتا" لا بد أن يأتي معها يوماً ما ليعرف المعنى الحقيقي للصقيع، ابتسم، دائماً يتسم عندما تتكلم، منطوق الكلمات لديها مختلف، وكأنها تعاني مع بعض الحروف.

تردد لحظة ثم سألتها: هل أحببت أحداً هناك؟ ضحكت عابثة ثم ردّتها بخبث: وهل أحبّ هو أحداً هنا؟

ارتبك؛ لا يعرف بما يجب؛ هل يقول الحقيقة؟ أم يدعي بطولة زائفة؟ ويزعم أنه النسخة المعدلة من "ليوناردو دي كابريو"؛ صمت كالعادة، فالحب عليه لم يمر، ولم يأتِ إلا معها؛ هذا الإحساس الذي طالما اشتاق إلى طيفه، الآن يحتاجه كطوفان.

زادتها براءته وصمته نشوة - لم تعتدها من قبل - اقتحمته بنظرات سبرت أغواره، اخترقت قلبه؛ أما هو فقد تفصّد شوقاً، غاص في بحري العسل واللبن في عينيها، قاوم نزع الشوق الحار الذي تسرب من مسامه و....

سألته فجأة: هل يحب الكرة؟

استعادته من قارته الغارقة في أعماق محيط التنهد، ثم بادرت بهجة طفولية وهي تشير إلى شاشة تلفزيونية على الجانب الآخر من المطعم (حيث تعرش أمانها قليلون)، كانت تعرف أنها بطولة أفريقيا، وصدمته عندما قالت إنها تعشق كرة القدم مثل أبيها على الرغم أنها من الرياضات غير الشعبية في أمريكا، وعندما رأت الحشد الكبير من الجماهير تمت أن تذهب إلى الاستاد.

احتلت الدهشة ناصيته، ولم يقل شيئاً.

إنه يحب الكرة - نعم - ولكن أن يذهب إلى الاستاد!

إنه حتى لا يشجع أحداً.

سأله أحدهم مرة: أنت أهلاوي ولا زملكاوي؟

وعندما أجاب: إنه لا أهلاوي ولا زملكاوي؛ نظروا إليه، كمن أتى الكفر جهراً، وتوقفت الأنفاس، وتعلقت به العيون، حتى أنقذته "سماح عبد المعز" عندما قالت إنه مثله تُشجع المنتخب القومي.

إجابة أنثوية عفوية، لكنها غير مُقنعة ذكورياً، لم يعلق، قال في نفسه: ولا حتى المنتخب.

يهتمُّ أحياناً بالكرة العالمية، يصادف بعض المباريات عندما يكون وحيداً على مقهى "فرساي"، يتابعها هرباً من الوحدة، وأحياناً من الضجيج، يشجع "برشلونة" و"ريال مدريد"، يتفاعل معهما في آن، يتحاشى نظرات الآخرين، يرمقونه كمختلٍّ، يشجع الشرق والغرب، القتاتل والقتيل.

الاستاد...

أي الزحام بين قوسين، يكره الزحام، يهرب منه، يهرب من العدوى والعرق، يودُّ أن يحتفظ بمساحته الشخصية، يتمناها كيلومترات كأسود الغابات البرية.

إنه حتى لا يعرف متى ولا كيف يذهب ومن أين يشتري التذاكر، عندما أرادت هي أن تدعوه إلى العشاء، اختارت هي المكان ونوع الأكل؛ قالت: إنها تعشق كل ما هو إيطالي.

الاستاد....

التهتاف، والزحام، والأضواء، والضجيج الذي يفوق طبول الحرب، يسمع الصراخ، يملأ أذنيه مقدماً، صراخ يأتي لسطو الفكرة... صراخ... و.

صرخ عود الثقاب، التهمت النار رأسه، توهج، امتدت إلى جذعه، تلقمه بهدوء، صرعه، مدَّ شفّتيه المتردّتين، رجفتا، رجفة السيجارة الأولى، لم يتصور أن تأتيه تلك اللحظة، ابتسم، أسقط جثة العود المتفحمة إلى جوار قبيلته، وابتلع مرارة الأنفاس الأولى.

عادت الحياة من جديد إلى قدميه البلديتين، أفلت من فقاعته، التقط هاتفه المحمول، قرأ رسالتها ثانية في مرارة، ثم أعاده إلى جيبه مدحوراً مقهوراً، عادت به خطواته لشارع "السودان" في اتجاه ميدان "الجيزة"، أوقفته صورته التي انعكست على مرايا شركة السيارات الأنيقة، تأملها وكأنها يرى نفسه لأول مرة، بدا نحيلاً أكثر مما كان، خسر الكثير من وزنه بعد أن تلقى رسالتها الأخيرة التي كانت آخر نداء لسفينته المتجهة حرقاً... نحو النهاية.

نهايته أصبحت قاب قوسين أو أدنى، والهاوية تفتح ذراعيها بلهفة أم تستقبل طفلها الذي يخطو خطواته الأولى.

نفس آخر، التقطه على مشارف شارع "الأنصار"، حيث بدأ الخدر يتسلل إلى أطرافه، هكذا ظن، أو هكذا تمنى.

تمنى لو اختدر كلياً لا جزئياً، وأن يصله المصير المحتوم متخطياً جحيم الانتظار.

تمنى لو انتفض فجأة ليجد نفسه مستلقياً على فراشه، نائماً في مضجعه عائداً بالله من الشيطان، الذي كتب أسوأ سيناريو لكابوس، أخرجه بعدسة "هيتشكوك"، وأنتجه أثرى أشرار العالم، انتظر من يأخذ برأسه خارج صندوق الدنيا، ويعيده إلى أرض اليقظة.

صرخة تأتي من مكان ما.

رنة تليفون.

جرس باب.

لا شيء، لا شيء.

إنها النهاية.

- "ممكن أولع يا أخ؟"

استوقفه أحدهم؛ ملاحه تختفي في ظلمة الشارع، التي انتحرت كشافاته، فأضفت عليه مزيداً من الرهبة، الرجل يضع بين شفتيه سيجارة تستعد للاحتراق، سرعان ما تحولت إلى ضباب، تضخمت شيئاً فشيئاً، أعاد له الرجل سيجارته ممتناً، كاشفاً عن أسنان متهالكة، ووجه أسمر، يشبه صديقه "كالوشا".

- نعم "كالوشا" هو الحل.

نظرت إليه في تساؤل!

"كالوشا" صديقه النوبي، أمير السعادة كما يسميه "أحمد حداد"،
الكرة هي حياته، اجتمع مع مجموعة من المشجعين في رابطة ألتراس،
يجتمعون في "مينا بالاس" ويحضرون كل مباريات البطولة.

سيجارة أخرى، تتوج البؤس ملكًا على ما تبقى من حياته؛ صار
يألف طعم الدخان، وخدر النيكوتين، وتسرب الأفكار رويدًا رويدًا
من مصبٍّ وهمي في قاع الجمجمة، ملامح الوجوه تختفي، حروف
الكلمات تتلاشى، سجل الحكايات يُطوى، إلا هي.

مرسومة على سطح القمر، تفاصيلها منقوشة على جدار القلب،
ملاحظتها تشكل من أضواء السيارات، على جدران البيوت، يراها في
عيون المارة وعلى جباه العابرين.

كان الاستاد ممتلئًا عن آخره، الكل يهتف:

- مصر... مصر.

حتى هي، اندمجت مع أنواء الهتاف، وشمّت الأحمر والأسود،
خطين متوازيين، متباعدين، تركت بينهما فراغًا أبيض، لوجتها، لتصنع
علمًا، بدلت الغمازة السحرية بنسرٍ أُطلقَ سراحه مؤقتًا، نظر إلى صديقه
"كالوشا" شاكرًا، فلولاه ما كان هنا، ابتسم "كالوشا" وهو ينظر إليها
في هيام، نظرات تصلبت فوق ملاحظتها، فردت عليه بابتسامة، اقترب
من أذنها مقاومًا الضجيج:

- منيب إبراهيم.

قاطعته بوكزة خفيفة... ونظرة مُعَاتِبَةٍ، لقد كان كالوشا يتحاشى ذكر اسمه الحقيقي، يحب اسم "كالوشا" أكثر من "منيب"، بعد أن أسماه أبوه تيمناً بـ "أحمد منيب" أيقونة النوبة وقتها، تمنى أن ينضم للنادي "الأهلي" ولكنه فَشِلَ، ولكنه ظل أحد مشجعيه:

- هاي أنا "سيرا".

قالتها وهي تمد يدها إليه بدلال. نظر إليه "كالوشا" في دهشة:

- س... سيرا... ده اسم ألماني صح!

كتم فمه صديقه، هدده بأن يناديه "منيب" على الملأ ويهتك ستره ويكشف أمره، ردعه فارتدع، همس في أذنه أنها أمريكية الجنسية من أصل مصري وأبوها مهندس عالمي في تكنولوجيا الاتصالات في الأمم المتحدة، ينوي الاستقرار في "مصر"، وله من المناصرين كُثر ينادونه باقتحام عالم السياسة، نظر "كالوشا" حوله في توجُّسٍ ثم اصطدم ببسمتها الطفولية:

- وانا اللي كنت بقولك اتجوز "سماح عبد المعز".

- بس بقى احترم نفسك.

لم يسمعه "كالوشا" واستمر ينظر لها، ويرقص، ويدندن:

- أبيض أبيض لون الفل... حلو جماله سحر الكل

يا هنياله اللي شغل باله... زي جمر في سماه بيطل.

ضحك من قلبه كما اعتاد مع "كالوشا"، ثم راح "كالوشا" إلى
جدية مفاجئة يحذره من زحام ما بعد المباراة، لم يفهم جيداً ما يرمي إليه
"كالوشا"، حاول أن يستوضحه، ولكن المباراة على وشك البداية،
والهتاف يعلو من جديد، وينطلق صوت المذيع الداخلي ويصبح هو
السيد:

- "السلام الوطني لجمهورية مصر العربية".

رددها بحماسة، فيعود الهتاف يرافقه أعلاماً ترفرف، ثم موسيقى
عنيفة تجتاح الأذان وتلهب الحناجر:

- بلادي، بلادي، بلادي، لكي حبي وفؤادي.

احتضنته بعد الهدف الأول، أولى حسنات المنتخب المصري، شجع
بعنف لإحراز هدف آخر أو حِضْنٍ آخر.

وانتهت المباراة، لا مانع من ضمة الاحتفال، نظرات "كالوشا"
تتابعه عند باب الخروج، وكأنها تحذره، وتوصيه بأمر ما، ثم يختفي
وجهه الأسمر وسط الزحام.

زحام...زحام...

أعلام وصيحات فرحة، الكل شباب وبنات.

وفجأة...صرخات من أماكن متفرقة، هرج، مرج، سباب،
شتاء، احتشاد تكدسات، احتضنها تلقائياً انقاء خطر محقق؛ تسارعت
الخطوات للفرار، صراخ أنثوي يأتي من مكان ما، صفارات إنذار تحذر

من هجوم حيواني بري على الأبواب، يبدو الهروب من الجحيم دربًا من المستحيل، الأجساد تتدافع، السقوط يبدو وشيكًا، ويأتي "كالوشا" مخلّصًا من جديد، وبعض من أصدقائه يمدون طوق النجاة، كانت الأعلام تسقط تباعًا على الأرض، وصرخات تتوالى، بفضل التدافع بين الجماهير والتحرش ببعض الفتيات، خرجا منها بسلام، وإن ذاب علمها في عرق التوتر، اتجهوا إلى سيارته ودعه "كالوشا" أخيرًا بعد أن أهدها شريط "محمد منير" الجديد:

(إمبارح كان عمري عشرين).

كالوشا يعشق "محمد منير"، يقلده، يحاكي صوته وهيئته وطريقته، يقول عنه إنه حدوده نوبية أصيلة، صوت مصر الرسمي، ثم يتنهد بعدها في أسى ذاكرًا المشكلة الوحيدة:

- إنه زملكاوي.

"أبيض كل الناس حبه... حبه من أول ما شافوه

لكن يا خسارة عشجوه... زي جمر في سماه بيطل".

واختفى "كالوشا" ودندنته في زفة الألتراس، احتفالاً بمعركة السنغال.

تمتم حامدًا شاكرًا أنها عادا سالمين؛ رحلة شاقة تمنى من أعماقه ألا تتكرر، وقفًا أمام الفيلا، وتابع نظرات "عم عفيفي"، بواب عمارته، ترصده من تحت عمامة كانت بيضاء يومًا ما.

اختلس نظرة أخيرة، ثم تركها مُودِّعًا، أوقفته لمسة من يدها، التفت حوله مرتبِّكًا، أحسَّ بآلاف العيون ترصده من خلف الشرفات، تجاهلت ارتباكها، تشابكت أيديهما، لم يشعر إلا بصداع خفي، لم يسمع إلا:

- تعالى ندخل شوية... مفيش حد.

تردد؛ جذبته مشجعة؛ لم يشعر إلا وقدماه تتجاوزان باب الفيلا إلى الداخل، فيلا "الحسيني".

وكان الطريق ممهدًا لنيل الفاكهة المحرمة.

وكان الإحساس غامضًا، كأنه الدخول إلى الجنة، أو الخروج منها، تأملها صامتًا، ترقد بجواره أفروديت، وكليوباترا، وكاترين زيتا جونز، في قالب واحد، إنها أكثر مما تمنى، هنا، بين يديه.

* * *

انتهت سيجارته إلا من بقية؛ أحسَّ أن جهازه التنفسي كله ينتفض، يتسلق بعضه البعض، رثاه وشعبه الهوائية تمتطيان ثنايا القصبه الهوائية، في اتجاه الحنجرة، ضاربًا بتفاحة نيوتن وجاذبيته عرض الحائط.

أخرج هاتفه مرة أخرى عند ناصية شارع "أحمد الزيات"، قرأ الرسالة ألف مرة، تمنى لو أخطأ في فهم معناها، ولكن... وجد نفسه أمام بيت "أحمد حداد"، قدماء تقودانه تلقائيًا إلى بيت صديق العمر.

القمر يبدو واضحًا من هنا، وعلى سطحه ملامحها، هي، لا يخيب
ظنه أبدًا.

تردّد قبل أن يدقّ الجرس وأَسِفَ بعدها، ودَّ لو انسحب وعاد من
حيث أتى، رجع خطوتين ندماً و....

وألفى "أحمد حداد" لدى الباب، الذي حيّاه ودعاه للدخول، ما
كان له أن يأتي، قاداته قدماه فانقاد، وراوده التيه فطاوع، وقد أترع قلبه
خوفًا مما هو آتٍ ويفتش عند صديقه على طوق النجاة.

كان "حداد" يرتب الوسائد المبعثرة، والكتب المنشورة على الطاولة،
وأوراق "حسين عبد العاطي" المتناثرة، ردّد بصوت متهاك:
- "حسين عبد العاطي".

أوماً "أحمد حداد" برأسه إيجاباً فهو يستضيف صديقهم الشيخ
"حسين عبد العاطي" حتى تستقيم له الأمور ويمجد السكن المناسب
بعدما أكرمه الله بالعمل في أكثر من مكان للتحفيظ وتدريس العلوم
الشرعية.

غاب "حداد" دقيقة.

ود لو برّح مكانه عائداً، فارّاً، مسرعاً، قبل عودة صاحبه؛ أحسّ
بوخز الندم بعد أن غادر عزلته؛ عاد "حداد" بصينية صغيرة عليها كوبا
الشاي مُعَبَّباً:

- إيه مفيش "فرساي" النهاردة؟

كانوا قد اعتادوا أن يجلسوا على مقهى "فرساي" الحاضر في منتصف شارع "الملك فيصل"، كان ملاذهم من أيام مدرسة "السعيدية" الثانوية، أكمل "حداد" أنه أثر أن يبقى في المنزل كي يتمم مقالة جديدة سينشرها في جريدة "الدستور" قبل سفره إلى "بورسعيد" وشرذ لحظة ثم أكمل ساخرًا أنه يظن أن فخ ما قد نُصب لإتمام زواجه بابتة عمه كما يريد الحاج والحاجة، قالها وهو يرتب أوراقًا مُلقاة على طاولته.

وكمَن وجد ضالته، حاول أن يستأذن، ويغادر، ولكن استوقفه "حداد" بإشارة من يده، وتفرس ملامح صديقه وقد شجبت، ونظرات عينيه وقد زاغت، ووزنه الذي قَلَّ، وبريقه الذي أفل، وصار الحزن عنوانه والعبس منهاجه، هل أزمة سفر "سارة" تفعل كل هذا؟ وتحيله إلى أثر بعد عين، يعلم أنها تجربته الأولى، ولكنها مرت سواء إيجابًا أو سلبيًا، لا يجب أن تنحسر الحياة عند تلك النقطة، ولا مناص أن تستمر، وابتسم ساخرًا، عليه أن يتعلم من توجُّهات البلد التي ما زالت تحتفل بكأس "أفريقيا" بعد أن مرَّ عليه ثلاثة أشهر ولم تذكر غرقى العبارة بخبر، وكأن القدر يعلمنا أن ضحايا الإهمال في "مصر" أكثر من ضحايا "إسرائيل" في "غزة".

أفزعهُ ذكر الموت، تذكر مأساته ومصيره، تفجرت دموعه المكتنزة أيامًا، نحبيه المدفون بين ضلوعه، قد جاء يوم بعثه، يرى دنو لحظة

الانفجار، من خلف ضبايات تكثفت فوق عينيه، منذ أن علم الخبر المشؤم.

رأى الحيرة تحتلُّ قسماً صاحبه، حكى له كل شيء، من البداية عندما ملحها من الشرفة، وفتحت أبواب الدنيا، حتى جاءت رسالتها لتفتح أبواب الجحيم.

رأى بؤبؤ عينيه قد ملأه الفزع، وزادته الصدمة تيهًا، وأخرست ما تبقي في فمه من كلمات، وتحولت بقايا مفرداته إلى علامات استفهام مبتورة؛ لم ينتظر أن يسأله "حداد" عن سرِّ الرسالة، ناوله الهاتف المحمول، ولم يكذ يقرأها حتى سقط قلبه بين ضلوعه، ولم ينبس ببنت شفة.



مرت الدقائق ثقيلة، هدأت فيها دوامات التأثر، وهدأت فورة الانفعال، وتلاشت الضبايات رويدًا رويدًا، وخف الحمل عن قلبه، فتنفّس، وارتشف رشفةً من كوب الشاي المرمي على الطاولة التي أمامه، لعله يهون من الكهارب التي تصعق أطرافه، حينًا بعد حين، و"حداد" قابض رأسه براحتيه، من يخشى سقوطه، يفكر، ويفكر، والوقت يمر بطيئًا، محتضرًا، مماطلًا، تتكاسل الدنيا عن الدوران، ولم تنصب الرأس من التفكير، يؤمن "أحمد حداد" أن لكل مشكلة حلًا، ولكل مأزق ملاذ، ولكنها الصدمة، تغشى العقل، وتجمم الإدراك،

والوقت وحش كاسر، ينهش حبائل الأفكار، ويغرس نابيه في الجرح غرسًا.

- كل مشكلة لها حل.

قالها "حداد" دون أن يرفع رأسه من كفيه، وبلهجة خالية من الإقناع.

جاوبه وفي صدره ذئب يعوي:

- في حل واحد!

انتظره "حداد" متسائلًا، جاوبه بصوتٍ مسمومة كلماته، معتلة أبجديته، إنه لم يبقَ أمامه سوى الرحيل، يحزم أمتعته ويلحق بها هناك، إلى "أمريكا"، هكذا وعدته، هناك ربما يحيا، يتزوج، يعالج، يهلك، أو يموت، يترك الدنيا هنا، يترك الفضيحة هنا، هناك لن يخيب الأمل ولن يثبط الرجاء، ما وُجدَ الداء إلا وله دواء، لمن يبقى هنا؟ لأمّ لن تهلك دونه، أم لأبٍ لم يكن له وجود؟

أطرق "حداد" رأسه ثانية، تاه في دنيا الاحتمالات، متأرجحًا بين الظن والاعتقاد، ويَنحَ صديقه بلا كلمات، وربت على كتفه بلا أصابع، رفع رأسه ببطء، ليجد صديقه على أعتاب الرحيل، محني القامة من أثر الخنوع، وتاج الشوك على رأسه المستكين، وأغلال الهم تجرُّ قدميه نحو الحافة.

أغلق "حداد" الباب خلفه، وألقى نفسه على أقرب مقعد، وتأمل كوب الشاي نصف الممتلئ الذي خلفه صاحبه. اقترب منه في حذر. أخرج منديلاً ورقياً، أمسك الكوب بمنديله، وألقاه في سلة المهملات، زَمَّ شفتيه في ضيق، وعَقَدَ ذراعيه أمام صدره، ثم قام يزرع الغرفة جيئةً وذهاباً، حتى ومضت عيناه مَنْ صدف الاهداء، بعد أن تفرقت به السُّبل، قال لنفسه:

- نعم هذا هو الشخص الوحيد القادر على حلّ المشكلة.

ساعات معدودة، وتشرق الشمس، تُبَدِّد عتمة الليل، يعلم أنه مخرج شاق، مخرج وحيد، حان دوره، دور لن يلعبه غيره، سوف يتصل به، يكلمه، يجادله، هي الفرصة الأخيرة ولن يسنح مثلها أبداً.

ينتظر "حداد" الصبح، أليس الصبح بقريب؟

أسبل جفونه، انسحب كشريحة بين السرير والغطاء، سلحفاة تكوَّمت في صدفتها؛ سمع صوت الباب، وتمتمات "حسين عبد العاطي"، فرفع صوته:

- خير. رجعت يعني مش قلت هتصلي الفجر في "الحصري"؟

أتاه صوت "حسين" خافتاً واهناً على غير المعتاد:

- أبداً، الدرس أتأجل لبكرة، ما نابني غير المشوار.

جلس حسين عابس الوجه، لا يُحرِّك ساكناً، وكأنها ينتظر أن تنتهي الدوامة التي لفت رأسه، اتجه بعدها إلى المطبخ، لاحظ في طريقه

الأوراق المرتبة على الطاولة، اقترب ليقراً العنوان: "حلم العودة... في ذكرى النكبة".

- "النكبة والنكسة والحسرة... كلها هزيمة".

قالها في نفسه ولم يُبديها، التقط المقال، تنقلت نظراته عبر السطور، قبل أن يلقي نظرة خاوية على باب غرفة "أحمد" نصف المغلق، تنفّس في عمق، ولم ينم ليلته، حتى بعد أن تحقق حلم عودته، هو، من أخطر أماكن "مصر" المحروسة، والقابع في "الحي السادس" من "مدينة نصر".

* * *

يوم جديد.

التوقيت مجهول.

لا يعرف كيف عاد بالأمس!

استيقظ؛ ومواء متقطع لقطة يصدر من مكان ما؛ لا يعرف هل قهرها الجوع؟ سجين بين جدارين؟ مجروحة ودحرها الألم؟ وحيدة على وشك الموت؟

لا يريد أن يموت هنا ذليلاً بين القطيع، يريد أن يموت هناك وحيداً كشجرة، هناك على حدود أهدابها.

"هناك" أمريكا" أرض الأحلام، وأرض الواقع الحقيقي".

صوتها يتردد في أذنه، يضغط بكل قوة على زرّ الحُلم الجديد، يفكُّ
شيفرة أحلامه، التي عجز عمره كله عن فهم برمجيتها، سبّح بخياله
فوق المحيط الأطلنطي، قذف بهويته فوق مثلث برمودا، رآها تختفي بين
الدوامات، لتحترق عند عرش الشيطان، وتمضي بلا عودة.

تخيّل نفسه يعانق تمثال الحرية، أمام الجميع، دون محضر تحرش.
صوت المواء يرتفع.

موتور أصابه العطب، ضحك حتى البكاء، ما دام حسد أصدقائه
على حكايتهم، تباهاوا بلذة اختلاس العشق في عيني الخطر، وما بين
باحث عن فانوس معتم في "شارع النيل"، وآخر محشور بين الأجساد
في شارع "أبي الفدا"، وأخير متسكع بقارب صغير في نيل "المعادي".

لم يتخيل أن مركب سباقه التي بدأت الدوران متأخرة جاوزت
الجميع، وغادرت مرفأها في ترعة "المنصورية"، وعبرت بحرًا توسط
بين الشرق والغرب، ورسّت على شاطئ "الأطلسي".

سهم مر من كل الحصون، كهدف مارادونا في إنجلترا سنة ١٩٨٦،
ويأتي هو بعد عشرين عامًا، ويتقمص شخصية مارادونا العاشق، ويمر
من كل الدفاعات، والقلاع، والأبراج، والمتاريس، التي سلّمت له للتو،
أو استدرجته للتو، ويضع هدفًا في مرمى "أمريكا"، لا "إنجلترا".

وكانت هي الساحر الذي أخرج من قبعته، أرنبًا، ووردة، ومناديل
بيضاء، وشراف حُمْرًا، وفقايع على هيئه قلوب، وحمامة حامت في

الهواء، ثم تحولت أفعى برأسين جرّ ذيلها شريطاً أسود مُمتدّاً إلى ما لا نهاية.

الهاتف المنزلي يرنُّ في إصرار ورتابة.

يتجاهله...

يتذكر "أحمد حداد" عندما أفشى له بالسّرّ أمس، تسرب من بين شفّتيه، كان يمشي على غير هدًى، ساقته الخطى إليه، لقد أخفق أن يجد حلاً، كان الأكثر فهماً والأرجح عقلاً، وإدراكاً ممتدّاً في جغرافية الاعتقاد من شرقها لغربها، ومع هذا عجز عن بثّ ولو قدرٍ بسيطٍ من السكينة، في قلب يحتضر، آخر المرافئ التي تمنى أن يرسو عليها قاربه المتصدّع، لا أحد يثق به بعد أمه سوى "أحمد حداد".

صوت الهاتف يأتي من جديد. يرد بغير اهتمام:

ألو...

إحداهن تسأل عن "د. عليّة" ربما إحدى المريضات أو سيدات الحزب أو نادي "الجزيرة"، لا يهم، أغلق الهاتف، ثم رفع السماعة، عواء الهاتف ينذر بانقطاع الحرارة، مزيج متوتر من عواء الهاتف ومواء القطّة.

قفزت صورة الأم أمامه كفاصلٍ إعلاني، بتر تسلسل أوهامه، اخترق سُروده العابر للقارات، والمُترنّح عبر الزمان.

ترى كيف لها أن تتحمل فراقه؟
وكيف تقتنع برحيله وهو الوحيد؟
هل يصارحها بالسر الذي يجثم على صدره؟
أم يتركها تشقى في فترة إعدادٍ تمهيداً لفراقه الأبدي؟
أمه...
ولكن...

تُحيله فكرة المواجهة معها إلى كومة لحم مرتعد...
لو توافق على سفره هكذا، بلا جدال، ودون تفاصيل، وتعطيه ما
يكفيه، فقط... ليرحل، ويبقى على قيد الحياة، أو يموت بعيداً بلا
ضجيج، هذا خير له ولها.

ولكن... أن يقوم شعب "إسرائيل" بتقطيع وعد "بلفور"، وتقديم
اعتذار رسمي لشعوب العالم على كل الجرائم، وإعلان التنحي عن
تعاليم "هيرتزل"، وعودتهم إلى صفوف الجماهير، كل ذلك يمكن
تحقيقه، قبل أن تؤمن أمه بجذوى سفره.
لا سبيل سوى الحقيقة...

هل يحتمل قلبها الصدمة؟
هل يحتمل هو ذنب انهيارها المتوقع سواء بدنياً أو نفسياً؟

هل يمر الزلزال فئة العشرة ريختر بسلام، وتظل أمه ثابتة كهرم،
شاخحة كمسلة، كما هي، فقد دخلت دوماً أنفاق المعاناة لتخرج أكثر
صلابة، وأشد منعة، وهذا الاختبار الأصعب، فهل تتماسك، وتبارك
رحلته الأخيرة، وتعود إلى عالمها، الذي بدأتها وحدها، وتنهيه وحدها.
تشدُّ أزره بالمال الذي يكفيه في بلاد الغرب.

لا ... لا ... لن تحتمل ... هذا الجبل الصلب، قد تقهره الصدمة، كما
قهرت جبل المقطم من قبل.

أ يكون هو الصخرة التي اجتثت من قلب الجبل؟

لا يهم أن ينهار هو، بل المهم أن تبقى هي. لا مفر ... سوف يرحل
دون علمها، صدمتها بهربه، ستكون أهون بكثير من معرفة الحقيقة.
نعم هذا هو الحل.

ولكن أين له بالمال الذي يحتاجه؟ كل ما يمتلكه لا يكفي ثمن
التذكرة، يعرف أنها تحتفظ بجزء من المال في خزانة مفتوحة داخل
غرفتها، لم يجرؤ أن تمتدَّ يده إليه، سواء كان باستئذان، أو بدونه.

لم يحتاج يوماً أن يفعل، ولكن الأمر الآن مختلف، بغير المال لن يتم
الفرار إلى الأرض الجديدة، الحياة الجديدة، والموت الهادئ.

لو مثَّل لها هروبه صدمة، فستكون سرقة لها طعنة، حسبها الخزي
الذي هو صانعه، وهي لا تستحق هذا منه أبداً، ولكن غيرها يستحق
السرقة.

نعم هو... فهو لا يستحق السرقة فقط، وإنما يستحق القتل
أيضاً... مواء القطة يتحول إلى فحيح أفعى، تستعدُّ بشراسة لهجوم خفي.
أخيراً، هداه شيطانه إلى الحل، نعم...

ضربه واحدة، وينتهي كل شيء، ضربة قاصمة ينهي بها كل آلام
الماضي، ويبنى مستقبلاً آخر. ضربة عظمى هناك... حيث المكان
الاستثناء...

هو ما زال يعيش في بيت الجدة، يتذكر الأحداثيات، يُحدّد الزمان
الاستثنائي، قبل السفر بيومين على الأكثر، على أن تتم السرقة
الاستثنائية، ويرحل بعيداً ويموت في سلام، وإلا سيكون القتل
الاستثنائي.

ازداد مواء القطة شراسة...

انتابته رجفة خوف غامضة، تأمل ملامحه الجديدة في مرآه منسية
على طرف مكتبه، زادها الظلام شحوباً، روعه ملامحُ بطل الخطايا
السبع الجديد، رأى في المرأة بقايا إنسان تتلاشى، وحلت صورة رجل
ميت، ومشروع قاتل.

سيجارة أخيرة؛ دخانها يدخل رئتيه، ولا يخرج، يسير في صدره في
مسار إجباري، مسار الشهيق فقط، وتمدد صدره بالدخان، كما تمدد
رأسه بالفكرة، التي اخترقته، كفقاعة، واحتلته، احتلته تماماً، و...
وتوقف المواء.

معدته تصرخ ألماً، لا يتذكر آخر مرة أخرس فيها جهازه الهضمي،
ربما كانت رشقات الشاي التي تناولها بالأمس، هي آخر ما أقام
صلبه.

خرج من ظلّمته، وعلى عكس حجرتة المتفرّدة إهمالاً، كانت الشقة
الواسعة تبدو على قدر هائل من الترتيب، كل شيء في موضعه، أكثر مما
ينبغي، تأمل صورة أمه التي تتوسط حائط غرفة الاستقبال (الأنترية)،
وإلى جوارها إطار ذهبي، وصورة لها مصاحبة فريق من سيدات
المجتمع، يوم تكريمها من نادي "روتاري" القاهرة، وصورة أخرى
تُصافحُ السيدة الأولى، وخلفهما شعار رعاية الأمومة والطفولة،
وأخرى تجمعها مع صفوة سياسي المجتمع، وخلفهم علم أخضر مميز
للحزب الحاكم.

يعرف أن هذا الحائط هو الأكثر تواضعاً بين أقرانه في غرفة مكتبها،
التي تكتظُّ بصور، وشهادات تقدير، وأبيات شعر من نساء كن
عقيماً، وأصبحن أمهات على يديها.

وكانت هناك صورة كبيرة له، باتت نغمة نشازاً في سيمفونية
النجاح، ألحَّ عليها كثيراً أن ترفع تلك البقعة من فوق لواء مجدها،
غضبت، حمّت، وأقسمت له أنه النور، والدفع، والحياة.

كم يتمنى اليوم أن تبقى صورته كما هي، على حائط الشرف، حتى
لو تُوجِّت بشريط أسود مائل.

معدته تقوده كالمسحور إلى المبرد، تناول ما وصلت إليه يديه، بلا شهية، فقط يشحن أجهزته الحيوية، كي تعمل بضمير حي. فقط... لِيُنْفِذَ خطته.

أحس بتدفق الدم ثانية إلى رأسه، الذاكرة تُبعث من جديد، أخذ ورقةً وقلماً -يكره الرسم- ولكن حاول، رسم خطوطاً، وباباً، وخزانةً مفتوحة، أه.. ومدفأة رخامية شجّت رأسه من قبل -لا تهم- لن يرسمها ربما يحطمها ثأراً لجرحه القديم الذي ما زالت نُدْبته في وجهه، ولكن ما بال الجرح المفتوح النافذ في قلبه.

شقة الجلدة، رآها آخر مرة منذ سنين، شارع "ثروت" في "السيدة زينب".

اختار أن يفعل كل شيء في الوقت المناسب، سيرتب كل إجراءات السفر -سراً- بما يملك، ستساعده "سارة"، ثم يضرب ضربته قبل السفر بيوم أو يومين، سيستخدم سكيناً حاداً عند الضرورة، سيقتله لو اكتشفه، لو قاومه، لو منعه.

تصدمه أفكاره، يشعر بلا وجود، وكأن روحاً شريرة قد احتلته، وسكنت جسده. وزيّفت ملامحه، ولكن يبقى اليأس هو أصل الشرور و...

جرس الباب يرن، الرنين دائماً يقطع سكون عالمه الوهمي، يتجاهله كالعادة، فهو إما "عفيفي" البواب، أو "سعيد المكوجي"، أو... أو... لا يهم.

تأخذه الخطوات إلى شرفة العالم الآخر، الشرفة المطلة على الفيلا،
حيث الحياة، والحب، والخطيئة... والموت.

جرس الباب يزداد إلحاحًا، يُعيده إلى مربع التوتر رقم واحد،
يتوعد الطارق بأشد العذاب، يفتح الباب حتى يُلقي على وجهه كل
غضبه، مثبتًا أقذع السُّباب على طرف لسانه، حفظًا للوقت، و...
إنه هو، آخر من يتمنى أن يراه، آخر من يتخيل أن يراه هنا.

القتيل المحتمل.

الأب الغائب طوعًا.

ودَّ أن يتأمل ملامحه عن قُرب، تخيلها مزرجة بالدماء، لم يستطع،
نظراته تخرقه، يشعر أنها بأشعتها السينية تكشف عن سره، تفضح كل
شيء.

تُرى ماذا يريد؟

لم ينتظر كثيرًا فقد جاءه الجواب بأسرع مما تصور.

صفعة هائلة على وجهه!

* * *

أخيرًا! لم يعد لها سوى البكاء.

بعد أن نامت كل العيون، وهدأت كل الأصوات، وارتفع شخير أختها "نعمة"، أفرجت "سماح" عن دموعها، بعد أن اعتقلتها دون ذنب لأكثر من خمس ساعات.

استعادت كل ما حدث هذا اليوم، بداية من مكالمة تليفون صباحية، كانت تصرُّ دائماً على تجاهلها، وصوت "فايز النخيلي" الذي يُنشِّط إفراسات غدد الاستفزاز في دمها، ويقطع الطريق أمام كل مشتقات "الأندروفين"، ويجعلها محاصرة عدة أيام.

تذكرت لما غاصت في الكرسي الخاص بها؛ وهي تجلس أمامه على مائدة صغيرة، مزينة بمزهرية من الرخام، غُرس في رحمها الصناعي زهرة بنفسج، زادتها الأضواء الأرجوانية بهاء وزهواً، حتى ظنت في البداية أنها حقيقية، وكادت -من رغبة مفتعلة في التكيف- أن ترويه من زجاجة الماء المعدني التي وضعت أمامها فجأة، لولا نظرة مُحذرة فرَّت من عين النادل، وهو يضع أمامها علبة مناديل جديدة، وكوبين من الليمون، أعادتها ثانيةً إلى ركن الطفل المذنب.

تابعته وهو يتعد، وابتسامة شكر مبالغ فيها شيعته من "فايز".

"فايز"، الجالس أمامها بشعر مجعد، وذقن مهممل، ورابطة عنق حمراء تمتد بقعتها إلى ما تحت الطاولة، لتستقر على كرش فلاحية أصيلة، هو حصيلة سنين من السمن البلدي وباكورة إنتاج خمسين فداناً في "الكوم الأخضر"، و"الكونيسية"، و"الحرانية"...

تأملها من خلف زجاج نظارته المتسخ، نظرة ظفر، نظرة ضبع
يتأمل فريسته، ويستعد للاحتفال.

تجاهلت كوب الليمون الذي لم تطلبه، بادرها "فايز" بالاختيار،
ظناً منه أن كوب الليمون في حضرة الفتاة التي تمنّاها، ما هو إلا استكمال
لطقوس العشاق الروتينية، التي أدمن مشاهدتها في الأفلام القديمة،
ومن جهة أخرى، هو ضمان ألا تتجاوز الطلبات الحد الأدنى، ليس عن
عجز أو فقر حاشا لله، وإنما هو الحرص، فالحرص واجب.

إن توافرت المادة هو خير، لا يعثر هباء منثورًا، يؤمن ألا إفراط،
ولا إكثار، ولا تبذير، ولا يجب أن يدعى من إخوان الشياطين.

وقد سمع أن "تريفل" من أغلى الأماكن في شارع "الأهرام"،
فاختاره -عن دون قناعة- إبهارًا لها، كي يمحو عنها هاجس البخل
الذي يطارده منذ أيام الجامعة، يرمونه بالشُّح زورًا وبهتانًا، تذكر
غمزات ما قبل الإعداد لاقتراحاتهم السخيفة، التي تنطلي في قانونه في
بند إهدار المال الخاص، تمنى في أثناء دراسته للقانون، أن يحاكم من
يهدرون المال الخاص، كالمال العام تمامًا.

اختار "تريفل" من بعد وصية أوصت بها "نهي روضة" - "نهي"
عبد القادر" صديقتهم أسموها هكذا لنشاطها وتحركاتها المبالغ فيه -
فقد أسرّت لها "سمّاح" يومًا، أنها تحب هذا المكان، وتتمنى أن تدخله
يومًا ما.

واطمأن قلبه أن المنظومة ستكتمل لاحقًا، لو أوصلها بتاكسي
لناصية الشارع، وأن المسافة بين "تريفل" و"الطالبية" -محطتي أتوبيس
(وحدة قياس المسافة في عالم "فايز النخيلي") -لذا لن ترهقه مادياً.

تأملها وهي تمدُّ يدها تلتقط منديلاً، تحيّل أصابعها الصغيرة، تمتدُّ
إلى صدره، وتعبث بشيفرة مشاعره المخفية بين الضلوع، ضلوع تمزقت
شوقاً إليها، تصدر تكة استجابة للحب المنتظر.

يعشقها هي ...

لا غير، يحبها، يهواها، يتمناها، من أول يوم رآها في كلية
"العلوم".

ومع فقرها وبساطتها، كان تبدو ملكة -بالنسبة له على الأقل -
بشموخها وتشامخها، ملكة تتخفى في ملابس العامة، تاهت من أرض
الحكايات، لتدرس في جامعة "القاهرة".

منذ أن رآها وهي مختلفة، ليست الأجل، ولكنها الأرق، والأهدأ،
والأبسط، والأكثر جاذبية، وكل ألف التفضيل، لا يعيها سوى
وجودها الحصري مع "كريم"، صديقه اللدود، يحسده دائماً على وجوده
معها، تمنى لو عاد به الزمن، ويعيد في نص أحلامه، ويتخلى عن حلم
المحاماة، ويرافقها في "كلية العلوم".

ترك من أجلها محاضرات القانون الجنائي، وهو الملتزم، الحاضر
دائماً ككاتب الملك.

تجاهل نظرات "كريم" المتسائلة عن إلحاحه الدائم عنها، ولم يتوانَ عن سؤاله عن طبيعة العلاقة بينهما، وكيف فرح -متشككًا- عندما أخبره "كريم" أنها مزاملة، صداقة، ليس أكثر.

لا يُصدّق الآن أنها معه، يتأملها، يغوص في عينيها، يتابع الخصلة البنية الناعمة التي تسلت من تحت الحجاب الأسود، الذي حَوَّلها إلى بدر في ليلة التمام، فانسلت معها أصرة روحه، وتفلت نسيج بدنه خلية.

تتم في إعجاب:

- ما شاء الله!

وكانت ضربة البداية له، ولقطة النهاية لمنديل، سحقه توترها تحت أنامل مبتلة، بدأ يتكلم برقة مصطنعة فجاء صوته لزجًا -كما ظنت- بدأ بسرّ تاريخ بينهما، لم يكن بطله، ولا حاضرًا فيه، كما تتمت في نفسها، وكانت هي ملكته وكل الحضور كما صرح، وأنه لم يجزؤ أن يقترب فتصده أو أن يقترب فتجافي، ولكن العمر يمر وخشي أن يضيع حبّه هدرًا، بين الحرج والانتظار، فقرر أن يأتي اليوم، حاملاً قلبه فوق كفيه مُزِينًا بخاتمين أحدهما من ذهب والآخر من فضة، وتقرّب منها لترضى.

سكت... وهو المحامي المُفَوّه، الصاعد بسرعة الصاروخ؛ تاهت الكلمات من حنجرته، ارتبكت جلسته، تلفت حوله كمرآق، في وقت التردد، سكت، وسكت قلبه، متعبداً غاب عنه الدعاء، لم يرَ عينيها، فقط سواد حجابها أمامه، ورأسها تدلى كمصلوب، زاده الهدوء ارتباكًا، كمن أضعاف فرصة هدف، في أحضان مرمى خالٍ...

رنين هاتفه حفظ ماء وجهه، ردّ دونها استئذان:

- أيوه يا "برج" إيه الأخبار؟

لم تلحظ هي تهلل أساريه، ولم تر ابتسامته التي امتدت بين شحمتي أذنيه.

أنهى مكالمته، وما زالت الابتسامة فوق شفثيه، فلقد استعاد أرضاً كانت سليية من بعض الأعراب، لا يقل ثمنها عن ملايين ثلاثة، دامت عليه خير البشرى وحسن المحيا؛ اعتدل في جلسته، صمته يهبل في خلده الظنون، استعدّ أن يبدأ جولة جديدة لولا أنها رفعت رأسها ببطء وقاطعته في حزم:

- أنا موافقة.

قذفت عبارتها في قلبه، قاضي غير راضٍ عن حكمه، أصدره من تهديد الأدلة المادية، حكم، الريب فيه، ليس عن اقتناع واعتقاد، أدلة بالأرقام، نسبة العنوسة التي تجاوزت ٣٨٪، وتجسدت على بعد ذراعين، في ملامح أختها "نعمة" التي تكبرها بثلاث سنوات، ولا تزال تنتظر ابن الحلال، ومعاش أبيها الذي لا يكفيهم حتى منتصف الشهر، وإيجار الشقة الذي يتعاضم كل سنة، وتهديد صاحب المنزل الدائم بطردهم، لأنهم بلا عقد وأي عقد هذا يصلح لشقة دور أرضي مكونة من حجرتين في شارع "خليل القاضي" بـ "الطالبة"!

وحتى الحب الذي مَسَّ خلايا قلبها، حبٌّ صامت، من طرف واحد، طرفها هي، حبٌّ لشخص من عالم آخر، ويعيش في عالم آخر، ارتضت بقربها منه، ورضيت بقدرها فيه، ولعها به، وتولعها منه، شغفها به وشغفه عنها، بقيت صديقة في قاموسه، في طبقة وسطى، طبقة ما فوق الزميلة ودون الحبيبة، حقاً لم تحس معه أنها دون شريحتة الاجتماعية، لم يُشعرها بذلك، ولم يشعرها بغيره.

- انت بتكلمي جد!

هتف "فايز" كسفاح معترفٍ حصل على براءة.

أومات برأسها إيجاباً فلم يسحب القاضي حكمه، فقد صدر، وانتهى، حكم نهائي بالبراءة والإعدام في آن. حكم ببراءة السفاح، وإعدام القاضي.

اقترح بعدها بصوت أقرب إلى اللهات أن يأتي إليهم يوم الخميس مع والديه والحاج "مسعد الصاوي" زوج أخته الكبرى وعضو مجلس الشعب، لم تسمع باقي الترتيبات، تركته يكمل إجراءات دفنها حية، لا يعينها من يأتي، ومن يعتذر.

لا يهم الميت من يسير بجنازته، لا يعنيه إلا مصيره، وما سيلقيه في الحياة الجديدة، أو الموت الآخر.

نامت ...

كانت تحلم به وسط الضباب، تناديه، ولا يسمع، تناديه، ويبتعد،
تناديه بصوت سكنه البكاء، تتلاشى ملامحه، تتبدد، تختفي.
زخات المطر تتساقط، تنهمر فوق مساحة الرؤية، تمدُّ يدها في فراغ
غادره للتو، تستجديه أن يعود، تمطر، تمد يدها عبر المطر، قسماته على
مرمى التماس.
أخيرًا.

تفتح عينيها، سقط قلبها في قدميها، لم يكن هو، إنه شخص آخر،
شخص لم تدركه لم تتمناه.
تمطر... تمطر... تمطر.
لا ترى سوى المطر... فقد كانت تبكي وهي نائمة.



لم يعمل "جابر العيسوي" بكل هذه الحماسة والجد منذ زمن، ف
"عم جابر"، أو "جبرة"، كما يحبُّ أطباء وكيمايو مركز التحاليل أن
ينادونه دائمًا، هو أقدم عامل في المركز، أو على وجه أدق، ثاني أقدم
شخص في سلسلة فروع مراكز التحاليل العشرين المنتشرة في ربوع
مصر، بعد صاحبها الدكتور "ياسر بدير"، مما جعل الأخير يتمسك به
إلى جواره في المركز الرئيسي بشارع "التحرير" في "الدقي"، متخطيًا معه
كل شعاراته التي تدعو لتجديد الدماء وتنمية المهارات، كان "جبرة"
هو الاستثناء الأوحـد للقاعدة، التي تربط استقرار الشخص في مركزه

مدة طويلة هي الدافع الأكبر للفساد، والفساد في قاموس "ياسر بدير" يحمل أكثر من الفساد المالي، الفساد يعني التفكك الإداري، وتدهور الأداء، والتواكل، وفقدان الحماسة .

كان "جبرة" خارج معايير التقييم، المعايير التي دفعت "ياسر بدير" يوماً أن يفصل أحد الكيميائيين، لأنه يدفن رأسه بين ذراعيه، مستنداً على مكتبه.

لم يكثرث وقتها لتوسّلات الكيميائي، ولا استمع إلى حُجّته، غلبه الإرهاق من فرط العمل، ولم يقصر في تحليل العينات.

وفي الوقت ذاته، لم يجد د. "ياسر" غضاضة في الحيدة عن نوم رئيس معاوني الخدمة في مركز التحاليل الأول في مصر -عم "جبرة" - رافعاً قدميه على كرسي مجاور، تجاوزه ولم يوقظه، ونهر أحدهم اقترب منه ليفيق عم "جبرة"، بل منحه يومين إجازة، ومكافأة خاصة، أسرّ بعدها مدير الحسابات لأحدهم أنها صُرّفت في اليوم نفسه من حساب د. "ياسر" شخصياً.

يعرف د. "ياسر" أن "جبرة" يعمل بربع طاقته، خضوعاً للسنوات الستين التي راكمت عليه رصيذاً ملموساً من الأمراض المزمنة، كالسكري، والروماتويد؛ ولكنه في قلبه ذو شأن، يستشير في أمره، يستنصح بمشورته، يعدّه تميّة حظّه وشاهد عيان على كفاحه، فهو "جبرتي" النضال، الذي يروي في كل مناسبة وغير مناسبة، كيف

كافَحَ د. "ياسر" حتى وصل إلى هذه المكانة! مما يجعله مثلاً أعلى لأطباء مصر.

وبالفعل يتمتع د. "ياسر" بكونه موضع ثقة أهم رجالات الدولة، وواحدًا من قلةٍ يمثلون الفريق الفائق السرية للحالة الصحية للطبقة الحاكمة، ليس في مصر فقط، إنما في بعض الدول الخليجية، الأمر الذي جعله يترفع عن الوجود في المركز، إلا عند الضرورة، وخاصةً في الحالات المهمة، وتسبب وجوده في هذه الساعة، رفع حالة الاستعداد إلى الفئة (أ).

لم تكن حالة الاستنفار تخصُّ عم "جبرة" فقط، إنما أوقدت مرجل الحماسة في الجميع، حتى أصبح المكان كمحطة مترو التحرير الساعة الثالثة عصرًا، فلقد كانت زيارته كالحجر الذي فجَّر الفيض في نهرهم، لم يتمنوا سيلاً من الثناء، فقط صمته ولا غير، هو الرضا كله، وغاية المنتهى، وبسماع صوته تنخلع القلوب التي في الصدور، فعندما يتكلم معناه أنه اكتشف خطأ ما، والخطأ مصيبة.

تدور في الأذهان أغنية "شفيق جلال" -من فيلم ريا وسكينة - ولبلة تتدلى من حبلٍ يهتَزُّ، وصرخة من أحدهم، وجواب شكر من مدير الموارد البشرية، وراتب شهر، وألف سلامة.

وبين اللُّهات يكون الأمل والفرحة، شعلة مكنوزة في صدر عم "جبرة"، أخيرًا، أتى د. "ياسر" بعد غياب أسبوعين، بعدما يمشي ضيفيه، سيخرج معه حتى باب السيارة - كالمعتاد - ويسأله عن

٤٣

موضوع "سعد"، ابنه الوحيد الذي كان يعمل مع أصحابه في "شرم الشيخ"، قبل أن يتم تفجير "السوق القديمة" منذ شهر، وعاد كئيبيًا، عبوسًا، تعيسًا، يائسًا، مُطْلَقًا لحيته في إهمال، زاهدًا في كل شيء، حتى فاجأه بالأمس بسفره إلى "سيناء" مرة أخرى، إلى مجموعة من أصدقائه بحثًا عن عمل جديد.

استجمع "جبرة" شجاعته، ومكانته عند د. "ياسر"، وسأله أن يجد لـ "سعد" أي عمل خارج مصر، وأردف سؤاله بتنهد، يفيد بعدم رضاه عن حال ابنه الوحيد، لا يحب أن يثقل عليه همومه، الفضل لله دائمًا ثم له، بعد زواج ابنته الكبرى، وانشغال الأخرى بدراستها في كلية "الصيدلة"، ويبقى الولد ومستقبله، تذكر كيف ربت د. "ياسر" على كتفه، ووعدته بابتسامة، وتمتم وقتها:

- إن شاء الله.

يعرف أنه أخذ الوعد، وبدأ يرتب مشاعره على فراق "سعد"، واليوم سوف يفتحه ثانيةً، د. "ياسر" لم ينسه قط، ولن يفعل، خاصة أنه يعرف جيدًا أحوال البلد التي لا تسرُّ.

ولكن اليوم د. "ياسر" يبدو مختلفًا.

فمنذ أن أمر د. محمد فتحي "بأخذ عينة من هذا الشاب الجالس وحيدًا في ركن صالة الاستقبال، وكل الأمور تبدو مُرييةً، أول مرة منذ زمن يرى د. "ياسر" يختبر عينة بنفسه، حتى لأكبر الشخصيات، فهو

يثق بكبار الأساتذة هنا، ويختفي في معمل الفيروسات لأكثر من ثلاث ساعات، ليس هذا فحسب، بل يصطحب معه أحدًا داخل المعمل، حتى لو كان ذلك الشخص هو المهندس "عبد الحميد" أعز أصدقائه، ضاربًا بأوامره عرض الحائط في عدم الدخول لغير العاملين، مهما يكن الزائر.

لا يدري لماذا أسر للأمن أن يبقى حذرًا على باب المركز؟

وكأنه يخشى هجوما خارجيًا أو فرارًا داخليًا!

وهذا الشاب التي سُحبت منه العينة والجالس في ركن كمعتقل،

من هو...؟

ولماذا يُشَمَّر ذراعه حتى بعد كل هذا الوقت! إنه حتى لم ينظر إليه، وهو يُقدِّم له كوب العصير، وكأنه في تأثير المخدر.

يشبه "سعد"، ابنه، عندما يكون مهمومًا، للهَم قناعٌ واحد، كان الله في عونهم، زمانهم صعب، وظروفهم أصعب. وفي الوقت نفسه، كان د. "ياسر" يرفع عينه المجهدة عن جهاز الـ "بي سي آر"، نحو صديقه الذي يفرك يديه في ترقُّب.

- خلاص يا "عبد الحميد" ... كله تمام.

تنهد "عبد الحميد صدقي"، وكأنها يزيع هموم السنين التي

تراكمت فوق صدره فجأة:

- الحمد لله.

أشفق عليه د. "ياسر"، وربت على كتفه مطمئناً، فلقد أعاد التحليل أكثر من مرة وتيقن من سلامة ابن صديقه الوحيد، لا شيء يدعو للقلق، لم يفت "ياسر بدير" إلقاء اللوم على صديقه، لقد ظلم نفسه وظلم ابنه الوحيد، انسحب من حياته بعد الطلاق، انفعّل "عبد الحميد صدقي" على صديقه فليس مثله من يلومه أو يُوبّخه، فهو يعلم سرّاً وما أخفاه، وأنه مهما تكن صورته مشوهة أمام ابنه فلن يجروّ قط على إيلامه مهما يكلفه الأمر، هداً "ياسر بدير" من روعه، ورقّ لحاله، ربت على رأسه الأصلع بحنوّ، لم يضغط عليه د. "ياسر" أكثر من هذا، يكفيه ما رآه الليلة لابنه الوحيد، كان يُقدّر صديق العمر، ويحترم قراراته، ويستوعبها، وإن اختلف معه في الكثير، ولكن ليس الآن الوقت المناسب، وفتح قطب الجرح الغائر الممتد من القلب إلى العقل، بعمق خمسة عشر عاماً، وغرس عقرب اللوم السام في بطن الماضي المفتوح، أراد أن يتجاوزه، يتعداه إلى ما بعد، لقد مرت الأزمة بسلام ولكن عليهما إنقاذ الوحيد، حتى لا يسوء خلقه، ويضيع مستقبله، ويصد عن سواء السبيل.

بادّره د. "ياسر":

- هو خريج كلية العلوم. مش كده؟

أجابه "عبد الحميد صدقي":

- علوم قسم جيولوجيا!

حَكَّ د. "ياسر" ذقنه براحتة، وهو يعدل من وضع نظارته، وابتسم ابتسامته الشهيرة كما يعرفها "عبد الحميد" عندما كان يحل أحد الألغاز قديماً، ربت على كتفه، وأن الحل يسير، وتمنّى ألا تعترض عليه "د. عليّة"، تحامى وجه "عبد الحميد"، وانطلقت ضحكة عابثة من فم "ياسر بدير" كتم بها غضب صديقه، إنه فقط يمازحه، لم تطب المداعبة تلك المرة للرجل المعطوب الذهن، المُعْطَل الاختيار، فطمأنه "ياسر" ثانية وسأله عن أخبار السيدة "سناء" زوجته الجديدة، فابعدَّ وجه "عبد الحميد صدقي" وصرح بأنها ليست على ما يرام، يعرف "ياسر بدير" أنها تعاني تضخُّمًا في عضلة القلب وانسدادًا في الشريان التاجي، ولكن صوت "عبد الحميد" يشي بمأزق أكبر عندما غمغم:

حامل في الشهر الثالث.

قالها... وراح يراقب بقعة الدهشة التي صبغت ملامح "د. ياسر بدير"، وتسَلَّلت إلى أعماقه، تمامًا.

* * *

لم يشعر بشيء...

لم يتوج بؤسه بسيجارة...

ولم يشعر بأثر الصفعة...

ولا بصوت أبيه ونظراته التي اقتحمته...

ولا حتى بشيطانه الذي نزع بينه وبين أبيه، وسوّلت له نفسه قتله،
ولو من باب التمني.

لم يشغله حتى الموت المنتظر، ولا الفضيحة التي على بُعد خطوات
ثلاث، وبعد دقيقة أو ساعة على أقصى تقدير، لا يعرف، ينكشف كل
شيء، ويُحوّل ملفّه إلى مستشفى الحميات، "الوراق" أو "العباسية"، لا
يهم، لا شيء يهم، لا شيء، إلا هي.

أمه، "د. عليّة"، سينال منها الأب، إنها الفرصة الكبيرة، إنها
الشهانة بلا حدود.

لحظة لم يتمنّها، ولكنها آتية لا ريب.

لم يشعر بشيء، لا الدم الذي اختلّس من وريده، ولا الشبح المحني
الذي قدم له شيء ما، لم يمد يده فهي بلا وجود، لم يعد يتحكم في
أطرافه، أراد أن يهرب، أن ينجو بنفسه، أراد فقط، لا يستطيع، حتى
الأصوات التي تعلو وتختفي، تبدو وكأن أحدهم غير مؤثر سمعه على
موجة أشباح إف إم...

إنه الحب....

إنه الموت...

إنه أبوه...

يقترب منه، يتخيل خطواته التي تخترق الأرض، وكأنه ديناصور
تائه من أرض الأساطير، يقترب، مؤثر سمعه يتحول إلى ناشيونال
جيوغرافيك ويلد.

الوحش يقترب، الآن يشعر بإحساس الفريسة في أنفاسها الأخيرة،
تمنى لو يطلق آخر صرخات الاستغاثة، قبل أن يغرق في سلام.
يشعر الآن، نعم يشعر، فريسة بين أحضان الوحش الدافئة... و.
الوحش الذي أحبه، وكرهه بمقدار هذا الحب.
لم يدرك لماذا تركه؟ ولما عاد؟
...

- الحمد لله.

صوت أبيه، وأحضان، ودموعه.
متهدجة الكلمات، ثقيلة، تأتي من فم بلا شفيتين.
لاحظ وجود شبح آخر، سمع أباه يناديه ب د. "ياسر بدير"،
يبتسم في رفق، ولكن كيف؟ لقد صارحته "سارة" بالحقيقة!
سدّدت له طعنة غائرة من خنجر مسموم، صارحته بصديقها
الأمريكي، وإصابته بالمرض القاتل.
الإيدز...

حيث إنه أخبرها عن طريق الإنترنت، أنه مريض، ومن ثم انتقل
المرض لها ثم له بالتبعية.

هوى ما تبقى من قلبه بين قدميه، ابتلع غصة تحيِّله لها في أحضان
الأمريكي، وغزوه لها، ومرارته أنه تلوث ببقاياها.

الدنس الأمريكي لا يسقط بالتقادم، لعنة مستديمة كوشم فرعوني،
أصابته حتمًا، ليس للإيدز من مناصٍ، إنه الموت والعار في آن.

- ياللا يا بطل روح استريح، وخلي بالك من نفسك، وبطل
شقاوة.

استعاده صوت د. "ياسر" من حياة البرزخ، أزاح عن صدره جبلًا
من الخوف، وربت على ظهره، لينشط جهازه التنفسي، كما يفعل الطبيب
مع المولود، فالآن وُلِد من جديد.

لم يصرخ كما المفروض، ولكنه بكى، لم يسيطر على دموعه، دموع
البقاء، تركها تبلل وجنتيه، وتغيب بين شعيرات ذقنه المهملة.

أطرق رأسه إلى الأرض، ليحفظ ما تبقى من ماء وجهه، واخترق
الصمت صوت "عبد الحميد"، متممًا، وشاكراً، ومعتذراً.

راقبهما د. "ياسر" حتى خرجا من باب المركز؛ ثم أشار إلى "جبرة"
إشارة ذات معنى، ثم ضرب رقماً على هاتفه المحمول، ولم ينتظر كثيراً
فقد جاءه الرد:

- ألو.

...-

-كنت عارف إنك لسه صاحي...

استمع لمحدثه، وشبح ابتسامة تتمدد فوق شفثيه، وخطوات "جبرة" ونظراته تتابعه من كذب، حاملاً حقيبتة عبر الردهة المؤدية إلى خارج المركز، متجاوزة عيوناً شبه نائمة، تنتظر الرحيل كصائم ينتظر صوت "الشيخ محمد رفعت"، معلناً الفرحة الأولى، وانطلقت ضحكة نادرة من د. "ياسر"، راقب رد فعلها في ملامحهم المرهقة، خفض صوته بخجل، وتابع أنه يتوسط لابن أخيه أن يعمل في شركة البترول، لم يسبق له العمل، ولكنه خريج كلية العلوم قسم جيولوجيا، وأنه سوف يحضر بنفسه إلى دبي بعد أسبوعين وسيصاحبه معه.

توقفت خطوات "جبرة" بعد أن اخترق الحديد أذنه.

- "دبي"!

رددتها بحماسة خافتة

- ياللا يا "جبرة".

ركض بعقله، وخطواته، ولهاثة، خلف د. "ياسر"، وانحنى يلثم يده بفيه، حيث انتزعها د. "ياسر" في دهشة، وسط دموع "جبرة" وتشكراته المتهدجة وتمتاته حامداً، شاكرًا، ربما ظن أن المدعو إلى السفر

هو "سعد جابر العيسوي"، بينما المطلوب هو الشيخ العائد من كشف
الوفيات المحتمل، أو من يُعرف بـ "كريم عبد الحميد صدقي".

* * *

الفصل الثاني

سبتمبر ٢٠١١

الغربة.

إنها الرحيل المؤقت عن الأهل، والوطن، والأصدقاء، والعُداة،
والندام، والأنداد، لصناعة واقعٍ موازٍ بشخصيات أخرى ...

إنها فقدان المؤقت للذاكرة، والزهايمر الاختياري لماضٍ تعس أو
حاضر مهتز ...

إنها اللهاث في مضمار سباقٍ أوسع وأطول، يمتد في المسافة بين
الاحتياج والرضا ...

إنها المعاناة في البحث عن أوراق لونها البنوك، وصبغتها الدموع،
وبللها العرق، وخضبها الليالي الطويلة ...

هناك ... في الغربة، حيث يزيد العمر، والمال، والطموح،
والمسافات، وتذبل المشاعر، ويهترئ الانتماء، ويتساقط الأهل،
والأصدقاء، وتكون الرحلة الأصعب فيما بعد، هي رحلة البحث عن
الذات ...

لم تحرك "كريم صدقي" أي من هذه العلات!

لم تصبه خطفة البعد عن الوطن، ربما لم يلمس غربة المكان، فلقد اعتاد الانفصال عن الواقع، والرحيل الدائم تحت جلده، بحثاً عن نفسه المفقودة، وبقي الاتصال بالآخرين كتيار كهربائي مُتَقَطَّع.

ها هي سنواته الخمس مرت هادئة، كالماء سهلة متدفقة، كالماء لا طعم لها ولا رائحة ...

مرت عارية من الكوايبس، لم يداهمه خلالها نداء العودة أو وخز الحنين، إلا فيما ندر؛ فقد تتسلل ابتسامة من ذكرى الأصدقاء، أو يفلت تنهيد من ذكرى الحب الذي كان.

والآن... لم يتبقَّ إلا دقائق، ويعبر الحد الفاصل بين الغربة والوطن.

- "جرايد يا فندم"؟

عبر الصوت المحايد، المهذب، حدود أذنه الوسطى؛ مَدَّ يده تلقائياً، وتناول الجريدة من يدها -على غير رغبة- لم يلفت انتباهه العنوان الضخم تحت شعار الأهرام:

"جمعة تصحيح المسار"...

بل لاحظ التاريخ السبت ١٠ سبتمبر ٢٠١١...

لحظات ... يخترق فيها الطائر العملاق السحب، والغيم، ونافذًا
من قشرة السنوات الخمس، يحطُّ فوق أرض شاخَت في مجرى الزمن،
وهرمت من فعله.

سنوات مرَّت على "كريم" ... تأكل فيها حبل الهوية السري شيئًا
فشيئًا، فاكتمى بعمله، وصحرائه الممتدة، ومكالمات متباعدة لأمّ، لم يُغنِ
عنها شيئًا، في حضور أو غياب؛ قاطعته في البداية، تجاهلته، نكرته وهو
الوحيد، بعد أن كان سبب هزيمتها، وأمام مَنْ؟ منافسها اللدود، في
دربي حياتها الوحيد.

فترة... بلغ به اليأس مكمنه، أشقاه تعاميتها عنه، عقابًا لخدلته لها،
وبعد إلحاح، ودموع، وألف عذر، واعتذار، رَقَّ قلبها، وانهارت
حصونها المنيعَة أمام وحيدها، واستسلمت، ورجته أن يعود، نداء
يتجدد مع كل مكالمَة، بعد كلمة - ألو...

تركها لعالمها المخملي، وطريقها المعمد بين المستشفى، وعيادة
الهرم، وعيادة الزمالك، والحزب، والروتاري، ونادي الجزيرة،
والجمعيات الخيرية، وحقوق المرأة، ومعمعة سيدات المجتمع، وأدعية
الآباء الجُدد ودعواتهم واستدعائهم لها من بيت في مقام الاستراحة،
وذكرى زوج غير تصنيفها من أنسة إلى سيدة إلى أم إلى مُطلَّقة، وغيرت
هي نفسها من سيدة طبية إلى سيدة مجتمع.

دائمًا يتفهم انشغال أمه الدائم، يقدر مهام عالمها الموازي، يُثمِّن
طموحها المتعدد الإحداثيات.

خلال فترة الثورة وأخبار الانفلات الأمني؛ استبدَّ به القلق، قرَّر أن يعود، ولا يتركها وحيدة، ولكنها أبت، فضلت الوحدة في دائرة الخطر، على عودته مخاطراً بمستقبله، في بلد صار بلا ملامح، حاضره مرتبك ومستقبله غامض، يكفيها أن تطمئن عليه تليفونياً، أو عن طريق الـ Skype.

سارت الأمور كما ينبغي، حتى انقطعت مكالماتها منذ شهر كامل، اضطرب حاله، هاجت في صدره الظنون، حاول الاتصال بها، بلا جدوى، الهاتف مغلق، إجازة من المستشفى، تليفون العيادة بلا مجيب، حاول أن يتصل بـ "كالوشا" صديقه، أو "عفيفي" البواب، ولكن دون فائدة؛ حاول مرات ومرات بلا جدوى، الهواتف غير متاحة، ربما تغيرت الأرقام، أهمه القلق، نسي في غمرته، قتاله الشرس أن يبقى هناك، رافضاً العودة، حتى بمُرَّتْبٍ أعلى مع فرع الشركة في "مصر"، تجاوز كل علامات التعجب التي اخترقته، والهمسات التي طارده:

(مجنون من يرفض هذه الفرصة!)، (العودة للوطن والأهل وراتب أعلى) (ومنصب أفضل!)، (خمس سنوات بلا إجازة أو راحة!).

تلاشى قتاله، وخارت قواه، استسلم لأمر العودة، بل بدأ يتعجَّلها، كمريض يتعجل الموت، وسط حسد الحاسدين، اكتفى بملابس محدودة، كَوَّمها في شنطة صغيرة كمن سيغيب يومين، وليس رحيلاً بلا عودة، آملاً أن يقنع الإدارة بعودته، مرة أخرى إلى

"الإمارات"، فليذهب إلى "مصر" مؤقتًا، ويؤجل الصراع إلى مرحلة لاحقة.

لم يستوعب عقله أسراب الجراد التي تغزوه خوفًا ورعبًا على أمه، عاشت وحيدة، ويخشى لو مرضت وحيدة، أو ماتت وحيدة.

- "نحن الآن داخل الأجواء المصرية".

انتزعه الصوت المعدني من أفكاره.

هبط من سلم الطائرة، ليطأ بأقدام مترددة تراب الوطن، الوطن الذي فارقه مرغمًا، وعاد إليه مرغمًا.

رجع بقلب تنهال عليه فقمات الماضي، تلتهمه، تخترق أنيابها رداءه الرمادي، تنهش الصدأ عن جراح حسبها ذبلت.

غاص في طابور العائدين، تكوّم في عالمه غير بعيد، وبصّمت الغرباء؛ تابّع حديث العائدين بقلب مشغول وبنصف عقل، كان أشبه بمؤشر راديو تائه بين موجتين.

صوت هامس من الخارج:

- يا ترى مصر بعد الثورة بقي شكلها عامل إزاي؟

صوت هامس من الداخل:

- يا ترى إيه اللي حصلك يا دكتورة "عليه"؟

صوت متضجر من الخارج:

- البلد ده ضاعت مابقاش لها كبير.

صوت متضجر من الداخل:

أب يظهر من غير سبب ويختفي من غير سبب.

صوت طفولي من الخارج:

- ماما انت وعدتينا اول ما نرجع مصر نروح نتفرج على ميدان

التحرير الي كنا بنشوفه مليون في التلفزيون.

صوت طفولي من الداخل:

- "سارة"!

صوت أجش من الخارج:

- تاكسي يا باشا؟

لاحظ أنه تجاوز بوابة الوصول، حاملاً جواز سفره في يد، ودافعاً

بالأخرى حقيبته الصغيرة.

لم يمضِ وقت كثير، حتى وجد نفسه على الطريق الدائري، وبعينين نصف مغمضتين، تابع الاستعمار الرهيب الذي غزا الصحراء، لمح بسرعة ٩٠ كيلومتر / ساعة التباين في مظهر الأبنية، وقلبها ونوعها، والتي يخترقها شريان الدائري، ما بين عمارات شاهقة، محاجر رخام، بنوك، واجهات من الزجاج، وأخرى من الألومنيوم، وثالثة من طوب أحمر عارٍ، مباني عشوائية غاية في الإهمال، وأخرى نسقية غاية في

الترتيب، لافتة هائلة لإعلان تجمع سكني "كوم بوند" صارت امتدادًا لعشة حمام، وتبقى أطباق الاستقبال (الدش) هي القاسم المشترك الأوحد فوق الجميع.

لم تبارحه الدهشة عندما صدمته اللوحات، والواجهات، معلنة ارتباط ما حدث بين "مدينة نصر" و"المعادي"، لينتقل إحدهما إلى جوار الأخرى، وتحمل كلتاها امتدادًا سُمي ال "زهراء".

أزعجه نور الشمس المتدفق إلى عينيه، كما أزعجه مؤشر الراديو، التائه بفضل صاحبه، متأرجحًا بين تلاوة الشيخ "عبد الباسط عبد الصمد" في إذاعة القرآن الكريم، إلى صوت "أنغام" على مائة فصلة ستة، حتى استقر -عن غير قصد- على نشرة أخبار الواحدة من راديو "مصر":

(وقد أدانت جميع القوى السياسية والوطنية الاعتداء على السفارة الإسرائيلية الذي حدث أمس ووصفوه بالمؤامرة لإجهاض الثورة).

أغلق السائق الراديو بعنف، وصاح موجهًا كلامه إلى عيني "كريم" المترنحتين في المرأة، مُوبِّخًا النخبة السياسية التي ركبت سنن الضلالة وسلقهم ببذاءة لسانه، ولئيم وصفه، وتابع بعدما لم يجد من "كريم" ردة فعل ومدح من اقتحموا السفارة الإسرائيلية بالأمس وانتزعوا علمها الجاثم فوق نيل المحروسة.

لا مفر، اعتدل "كريم" في جلسته -مضطربًا- واستعد للإجابة عن سؤال يجهل موضوعه، وتذكر بعض العناوين التي قرأها في الطائفة عن

اقتحام السفارة، وحاول أن يتوسط في ردوده بين تفهمه فورة الحماسة وبين ذاتية أرض السفارات وتبعيتها للدولة الضيف، وعلى الدولة المضيفة حفظها ورعايتها والدفاع عنها، لم يبدُ على السائق آيات الاقتناع، زجرَ في غضبٍ مكتوم.

شعر "كريم" أنه اجتذب لحوار لا يريده، لم يتقذه سوى صوت السائق - نفسه - زاعق في السيارات المحاذية، واللاحقة، وهو يجنح بالسيارة، فجأة، مال بها من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، تسبُّه صفارات الاستهجان، لاحقته بطول الدائري، ألقاها خلف ظهره، مودعاً المعارضين ببصقة على الأسفلت، وتمتمات، ودمدمات، ولعنات على العجولين، ومن لم يستطع عليه صبراً، توقف عند كشك من الصفيح المجمع يدوياً، والمتناثر هيئةً مع واجهة "كارفور المعادي" المقابلة له، على الجانب الآخر، عاد بعد دقائق حاملاً كوباً بلاستيكيًا من الشاي، وعلبة سجائر مصرية، اعتذر منه لأن وقت الرغبة حضر، والسيجارة مع الشاي تشفي جنوح العقل، وتلتئم شقوق الصدع، وطمأنه أن السبت لا تعب فيه ولا نصب وما هي الا دقائق ويصل إلى مُبتغاه.

وعاد السائق إلى ثرثرته، وكلما تابع حديثه، تضاءل "كريم" في مقعده، واكتفى بإيماءات متتابة، وابتسامات صفراء مجاملة، وأخيراً...

- شارع الهداية ...

خَفَقَ قلبه، تعلقت عيناه بمدخل العمارة، تناقلت الخُطى، حانت منه التفاتة إلى فيلا "الحسيني"، لم يجد البواب، ضغط على زر المصعد، القلب آلة للخفقان، دعاء الركوب والسفر في المصعد خَفَّفَ عليه معاناة عُرُوجه من أرض الانتظار إلى سماء المواجهة، توقف أمام باب الشقة، اعتصرته الذكريات، واهاجه التوجُّس، امتدت يده المرتعشة إلى جرس الباب...

تابع الرنين في الداخل، بحث في جيب حقيبته عن سلسلة المفاتيح، وجدها أخيراً، سنبك التوتر تدكُّ مسامه، تحلبها عرقاً، امتدت يده إلى سلسلة المفاتيح، تمنى أن يكون المفتاح كما هو، ارتبكت أنامله، سقطت المفاتيح بالسلسلة...

وانفتح الباب، وكانت هي، لم يتمالك نفسه، هوى بين ذراعيها، الدنيا كلها هناك، تنفس الصعداء، قبل يدها ورأسها، واحتضن وجهها الشاحب براحتيه، حاول أن يوقف نزف دموعها المتدفق؛ اشتاق لصوتها، حتى لو أتى واهناً بـ:
- حمد لله على السلامة.

* * *

يعرف أنها هنا ...

يعرف تلك الرائحة المميزة التي ما دام يعشقها، لا يعرف كيف تسلت إلى غرفته، وكيف عرفت بوصوله، ولكن المهم أنها هنا، يعرف

هذه النظرة، هذه اللمسة، هذا الصخب الذي يزلزل أعماقه، هذا
الحضور الطاغي الذي يحتلُّ عالمه...

- وحشتك!

فغرفاه كعادته، عندما تتكلم، لم تغيرها الأيام، هي... هي.
مدَّ يده نحوها، تدلَّلت، اقتربت وتقربت، باعدت وابتعدت، دَنَّتْ
بلا التحام، تناءت بلا اختفاء، اقترب مسحوراً، تشدُّ الرغبة،
والدهشة، والتوق.

ناداها بصوت مَزَقَ العشق، ودحره الاندهاش:

- "سارة".

لم ترد... ابتعدت، التحمت في عمود من الدخان، ممتد رأسياً،
سرعان ما تناثر في الفضاء، واختفت... اختفت... وهذا كل شيء.

فتح عينيه بصعوبة، تحسس مكانه، رأسه صخرة جرانيت، وجسده
إسفنجة تنفصد عرقاً؛ صوت الأذان يعلو، لا يعرف إن كان العصر أو
العشاء، لم يشعر بلذة النوم منذ زمن، فك التصاقه بالفراش، قاوم
تثاؤبه، ووهن البدن، ودوار السفر، تحسَّس طريقه في عتمة الغرفة، يجر
قدميه جرّاً، متمتّعاً:

- ماما!

أضواء غرفة السفارة، وجد طعاماً مُعدّاً، ومفاتيح السيارة، وورقة...

"مشوار مهم... مش هتأخر."

مرحى للغة الورق، افتقدَ التواصُل المكتوب؛ تناول الطعام نصف
الشهي - كما اعتاد - وعاد إلى غرفته ليستبدل ملابسه، ألقى نظرة
متلصصة على الفيلا، من الشباك الزجاجي للشرفة - كما اعتاد - رأى
نفسه يتجاوز بوابة الفيلا، ويده تتشابك بين أصابعها، مازًا إلى غرفتها
...

انتزع نفسه من الدائرة الجهنمية، تنهد، ما زال حُبُّها يسكنه، يحتله،
تتأجج جذوته وكأن سنينًا لم تمر.

تأمل وجهه في المرآة، تمنى لو احتفظت المرأة بآخر إصدار له...

فيلا "الحسيني" مظلمة... ترى هل عادت من أمريكا؟ هل
استقرت هناك؟ هل تزوجت؟ أما زالت تحبه؟ هل أُصيبت فعلاً
بالإيدز؟

لا إجابة ...

لاحظ غياب البواب "عفيفي" عن باب العمارة، ترى أين ذهب
قمر التجسس الصعيدي؟ اشتاق إليه أيضًا، ولنظراته الماكرة، وأذنيه
اللتين تسمعان بكاء النمل، وإن ادَّعى عكس ذلك.

لم تتغير المنطقة كثيرًا، إلا بعض الإهمال الذي نال الشارع الرئيسي،
والرصيف الذي تغيرت ألوانه، بعد إضافة لون أحمر باهت إليه، اقتسم

حصّة الجانب الأبيض، عرف بعدها أنها محاولات الأطفال لتكوين علم "مصر" في كل شيء بعد الثورة.

دار سيارته مخترقاً شارع "الأهرام" الذي كان أفضل حالاً من سابقه، فقد نُقشت الأسوار بأعمال الجرافيت، وإن تشوّهت بعض إعلانات جزيرة المنتصف بعلامات سوداء، غيرت ملامح "إليسا"، و"ياسمين عبد العزيز".

توقف في منطقة "أبي الهول"، ليتذكر واجهة المحل الصغير "أبناء النوبة"، ركن سيارته إلى جانب الطريق، متجاوزاً امتداداً عشوائياً لمقهى تناثر روادها على جانبي الطريق، دارت عيناه في المحلات، من فول "الجيزاوي" إلى بزار "ماعت"، تذكّر كلام "كالوشا" عن ورشة صناعة الأعواد الموسيقية، التي تضم فقط طاولة خشبية، وكرسی، وشيشة تحضّ الأوسطى "إبراهيم"، وتهاون "كالوشا" في تصديق أبيه في تضخيم دور الورشة في تطور الفن المصري، وأن لها الفضل -بعد الله- في شهرة "محمد الموجي"، و"بليغ حمدي"، و"سيد مكاي"، وإن انحصرت مبيعاتها الآن، على بعض طلبة الموسيقى العربية، وبعض السياح من مرتادي المنطقة الأثرية، وآخرون من محدثي أغنياء المجتمع، الذين يقتنون العود قطعة ديكور، أو واجهة اجتماعية، وهم يجهلون عدد أوتاره.

وكانت الورشة هي نقطة الخلاف الكبرى بين "منيب" أو "كالوشا" مع أبيه، وكان رأيه أن يستغل الموقع، والإقبال البشري على المكان في مشروع أفضل.

"كالوشا" أو ابن الأوسطى، يقولها بصوت مرتفع عندما يتشاجر مع أحد العاملين أو "الصناعية"، الخناقة التي تنتهي دائماً بطرد "كالوشا" نفسه من الورشة، محملاً بسباب ولعنات، عربي ونوبي مشتركة، من الحاج "إبراهيم".

اكتشف "كريم" واجهة المحل المغلق، كانت أقل كثيراً مما ينبغي. وعلى الحائط المجاور لها كتبت عبارة بخط أسود واضح:

"يسقط مبارك. الثورة مستمرة".

وبجوارها خط أحمر أصغر: "الحاج إبراهيم الكيال"، وتحتها رقم المحمول، سجله "كريم" -بعد تردد- كان يتمنى أن يرى صديقه اليوم، الساعة تجاوزت التاسعة، لا يدري أيتصل بالأب أم لا، يعرف أن "الحاج إبراهيم" دائم السهر، ولكن من غير الكياسة أن يتصل به في هذا التوقيت، لا يعرف إن كان سيتذكره أم لا، حار في الأمر، ثم قرّر أن يتوجه إلى المقهى المجاور، انتظر حتى اكتشف عبارة "أيوه جاي"، من بين أصوات التلفزيون، وطرقات الطاولة، والدومينو، ووجد صبي المقهى أخيراً، سأله عن ورشة "أبناء النوبة"، رد عليه بأنها غير منتظمة الفتح لسوء الأحوال بعد الثورة وتراجع عدد الزوار، سأله "كريم" عن "كالوشا" أجابه أنه يعمل حالياً في مطعم في شارع "الأهرام" لا يعرف الاسم وأن من يدلّه هو "عم مورييس" صاحب البازار.

وأشار إلى البازار، شكره "كريم"، ثم تقدّم نحو البازار، تفرّس بين التحف، والتماثيل الفرعونية، ليكتشف وجه رجل ستيني، خلف الزمن

ذكرياته على مُحيّاه، يمسح رأس تمثال بحنو، كمن يمسح على رأس حفيده.

- مساء الخير!

لم يرد، ولم يرفع نظارته تجاهه، تنهد "كريم" بصوت مسموع، واستعد للرحيل، فقد حسبه نائماً، أو ميتاً.

- أي خدمة؟

تنفس "كريم" الصعداء، فما زال عم "موريس" حياً يُرزق.

* * *

لم تعد تُطبق الانتظار...

انتزعت الدكتورة "علية ياسين" نفسها من مقعدها، ومن أعين المنتظرين في مكتب سكرتير الأستاذ "علي راشد" -المحامي الأشهر في مصر- وتوجهت إلى السكرتير للمرة الثالثة في أقل من ساعة، عازمة على الدخول فوراً أو الرحيل فوراً، فلقد نفذ الصبر، لم تعد تحتمل، ثلاث ساعات من الانتظار الممل، قررت أن تتجاوز نظرات السكرتير المهذبة، وتمتاته المعتذرة، وإشاراتة المخفية بأن هناك من يسبقها في الحضور، واقترح عليها مسبقاً أن تتقابل وأستاذ "عماد صبري" - المحامي المسؤول عن الملف - ولكنها أصرت إلا أن تتقابل وأستاذ "علي راشد" بنفسه ...

اللجنة على النظام..

تذكرت نظرات المرضى في فترات الانتظار، لم تشعر وقتها بأي تعاطف، كانت تراهم يتصببون عرقاً وتوقاً إلى كشف مبكر، تذكرت رفضها فكرة اختراق النظام، وتجاوزه لأي سبب، لمصلحة أي شخص، مهما تكن المنفعة.

تذكرت كيف ألفت بـ "سعاد" الممرضة، وأولادها الأربع، في غياهب الحاجة، بعد أن اكتشفت أنها أخذت إكرامية من إحداهن، كي تمنحها ترتيباً متقدماً في قائمة الكشف.

تذكرت كيف تجاهلت الدموع، والتوسلات، ولم تأمر بالعفو، تمت أن تمنح السكرتير المهذب هبة، عطية، رشوة، تنهي حقبة الانتظار التي جاوزت أكثر الولادات تعثراً، حتى وإن بات مصيره هو مصير "سعاد".

كانت توقن أنها لم تطردها من أجل النظام، لكن من أجل "درية"...

"درية المهدي"

الفتاة التي اكتشفت سقطة "سعاد"، أغضبها مبدأ طبقي بحث، وأن زوجة عضو مجلس شعب تجاوزتها، وهي ابنة أحد الوزراء، نفثت مع سيجارها كبرياء طغت على زلة إجراءاتها عملية ترقيع.

نظرت إلى ساعتها مرة أخيرة، تابعت عبر زجاجها، موت العقارب
الثلاثة كمدًا، ومللاً.

رن الجرس المجاور له، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة:

- تفضلي يا دكتورة.

زفرت بعنف، من يطرد هواء تحجر في رئتيه، ودعت السكرتير
بنظرة شاكرة، ممتنة، توقفت أمام الباب، عدلت ملابسها بغريزة أنثوية،
طرقت الباب دقتين، ثم دخلت إلى غرفة متسعة، أكبر من غرفة
الانتظار، تضم في مدخلها أنثريه ضخماً، وتوسطها مائدة اجتماعات،
تعرض حولها اثنا عشر مقعداً، يوازيها حوض سمك زجاجي، وعلى
رأس الغرفة يتوجها مكتب فخم من الأرابيسك، بني اللون، ويبدو
كأنه امتداد صخري للحائط الذي يحمل اللون نفسه، زاده التأثير
الحجري مهابة، والإضاءة الخافتة غموضاً، وكأنه جبل شامخ، يُؤوي
مجموعة من المطاردين، احتلت صورة كبيرة للرئيس السابق قمته،
وصورة أخرى أقل حجماً، تضم الرئيس السابق، مصافحاً شخصاً آخر،
تمتدُّ ابتسامته من الشرق إلى الغرب.

استقبلها "علي راشد" الجالس خلف المكتب - هو نفسه الشخص
المبتسم في الصورة - ماداً يد رخوة كسمكة، صافحها مرحباً، مشيراً لها
أن تجلس حتى ينهي مكالمته، مثبتاً ابتسامته في ركن شفتيه، تراها هي،
باهتة، شاحبة، مجاملة، منافقة حتى الحدود، صَدَّرها لمحدثه هادئة،
وادعة، مطمئنة.

كان يهاتف أحد الكبار المتهمين في موقعة "الجميل"، كان يردد أن الإعلام اختلق الأباطيل، كي يرفع نفسه من قوائمهم السوداء، ابتدعوها وهم بها لاعبون، وأن القضاء لا يحكم إلا بالأدلة وهو أبطن به وأدوم به عشرة، وعليها أن تبلغ تحياته إلى الجميع، أغلق هاتفه، ومسح عرقاً وهمياً عن جبينه، بدل بابتسامته أخرى أكثر اتساعاً وبراءة، نظر إلى "د. علية"، رَحَّب بها، ثم سكت برهة، تأملها، وقد ضاقت عينيه، لم تصبح الأمور كما أمست، تذكر أول مرة رآها، كانت بعد انتخابات الرئاسة في ٢٠٠٥، واحتفالية الحزب بالانتصار الكاسح، كانت تبدو أصغر من سننها بعشرين عاماً، متألفة، مضيئة، أنيقة، لبقة، سيدة مجتمع بكل المقاييس. لم ينتقص من بريقها، كونها مطلقة، أو أنها ليست ربيبة العائلات المعروفة، كانت تتباهى أنها من العائلات البسيطة في "الشرقية"، وأنها اختارت أن تكون زوجة للعمل فقط.

جمعها وقتها كلام بسيط اندرج في بند المجاملات الاجتماعية، على طاولة واحدة، لم يتصور أن يراها بعد سنوات...
متهمة...

ولكن ما الغريب فلقد تبدلت الدنيا في يوم وليلة، وتغيرت قوانين اللعبة، تبارت الفوضى تشوه كل شيء، وتنسخ مخطوطة المسلمات، وتخطُّ أبجدية زمن جديد، زمن سقط فيه الحجر من سفح الجبل إلى قمته، وعاد المطر من الأرض إلى السماء، وانهارت الجاذبية الأرضية التي تجذب الحاكم إلى كرسيه، وانحرفت الكواكب عن المدارات، وسقطت

رويداً رويداً في سجن "طره"، وشوارع "لندن"، بينما سجناء الأمس،
والمطاردون، والمنبوذون، من الوطن تصدروا المشهد، بكوا، وتباكوا،
ونحبوا ظلماً عانوه، وجوراً قاوموه، ونظام دبر لهم، ولكنه لم يحسن
التدبير.

وفي الفوضى سقطوا ...

فوضى تأتي بالدكتورة "علية ياسين"، سيدة المجتمع، وعضو
جميعيات حقوق المرأة، في جريمة مثل هذه! وتخرج بكفالة على ذمة
قضية!

بلدٌ أُصيب رأسه بالصداع، فقرر اقتلاعها، آثر أن يبقى بلا رأس،
بلا عيين، فقط... أذن تسمع بلا وعي، لسان يهذي بلا إدراك، لسان
تجراً على السادة، تجراً على أصحاب البلد الأصليين، الدائمين، وسقط
الدهماء في فخ الخديعة، باعوا عقولهم لمن تأمر، وتواطأ، وباع، وخان،
وائتمر، ونسوا من ضحى، واتقى، لبقى الوطن، آمناً مطمئناً، كان
هناك أخطاء، نعم، ولكن أئى بنظام لا يخلو من الخلل؟ ولو كثر ...

قطع تنهيد "د. علية" تسلسل أفكاره، اعتذر منها، وداعبها، أن
حالة خبال تلاحقه، وتلفُ رأسه من حين لآخر وعندما سألها عن
السبب، لم تجب صراحة وإنما حاولت الابتسام مجاملة، ووردت بسمتها
فاترة بعض الشيء وذكرته أنها دكتورة أمراض نساء وتوليد.

ضحك ضحكة صاحبة مُفتعلة، وهو يعدل صورته التي تضم
الرئيس السابق، بعد أن راقته له دعابتها وأردف أنه لا مستحيل بعد ما

حدث، فمن يصدق أن تنهار الدولة في أيام، بأيدي مجموعة من الأطفال ضلوا وأضلوا وتآمروا ونشروا الفوضى والعبث واختلط الحابل بالنابل، ومن كانوا تحت الأرض عظم شأنهم واستفحل حالهم، والشعب عقله في أذنيه، يصدق ما يسمع، يحركه عشق الخرافة، وشغف الأساطير.

لاحظ حماسة صوته، وكأنه في قاعة محكمة أو برنامج تليفزيوني، فتوانى ليستردهدوءه، وترك الصورة التي بقيت على وضعها، ولم تتحرك قيد أنملة، والتفت إليها، وتابَع بجديّة، وصوت خفيض: إنه يتبقى متسع من الوقت على ميعاد جلستها، وهو موقن أن الحل عليه هين.

هزت رأسها بعدم اقتناع، وقلبت شفتيها في ريبة، سحبت نفسها من كرسيها، ردت توقعاتها في غمدها، تشككت في رغبة "علي راشد" في دعمها، ونُصرتها على الطرف الآخر، متخليًا عن منافعه مع عائلة "المنشاوي".

"علي راشد"... كفاءته التي تسبقه، والتي جعلته من أهل الثقة، وأصبح من القليلين الذين لم يكفروا بالنظام الأخير - ليس السابق هو الأخير وبعده فوضي بلا حدود - لم يتلون أو يتغير، ظل صامدًا ثابتًا كرمح، أمام ريح التغيير العاتية. وزاد بنصرة رفقاء الأُمس، وقبوله كل القضايا، سواء كانت تخصُّ الفساد أو التريب، حتى التحريض على

القتل، أو ما تعرف بموقعة "الجمل"، مما يجعله متخماً بالقضايا، مع وجوده في بؤرة الاهتمام السياسي والإعلامي.

لا مفر من حلٍّ نهائي، أو بديل مُجْدٍ، الأيام تمضي، وسنابك الوقت تدهسها، لا تحتل مخاطرة الانتظار، الترقب معول فولاذي يطرق رأسها، يفض غزل أفكارها، تتداخل في خواطرها الدوائر.

القضية، السجن، المستقبل، المستشفى، العيادة، والعائد في غير مواعده، "كريم".

خرجت من المكتب بعد أن ارتدت نظارتها السوداء، وهي تطلق زفرة أخيرة.

* * *

في بلاد المستحيل لا أحد يسمع أحد، تساقطت الأذان عن الرؤوس، ونبتت آلاف الألسنة.

وفي أرض جرفها القهر والحرمان، ودحرها الفقر والافتقار، وسقط عنها سدُّ مأرب القاهر للقاهرة، وما حولها، كان من الطبيعي أن تغرق في فوضى الحرية، ويعلو الصخب أقصى درجات الديسي بيل، وأصبح مألوفاً على مقهى "فرساي"، التبدل بضجيج المباريات والطاولة والدومينو، ضجيج الحوار.

وامتدت العدوى لتصيب متحاورين داخل البرنامج الدائر في التلفزيون، أو ما يعرف بـ (Talk Show) الذي يضم إلى جانب مذيعة

شهيره -جاهدت المساحيق والكريمات أن توارى التلف الذي أحدثته
تجاعيد ما بعد الأربعين-وشابُّ ذو لحية سوداء متناسقة وابتسامة واثق
ونظرات موقن، وآخر يمتدُّ شعره في هيئة ذيل حصان مضطرب الحركة
مرتفع الصوت، وآخر وقور خمسيني أشيب الشعر لف ملاحه التجهم
وعدم الرضا.

لقد تغير كل شيء ...

لم يبقَ من آثار الماضي شيء كما هو، إلا "كالوشا" الذي يجلس
أمامه، -يفصله عن شاشة التلفزيون- ببشرته السمراء، وابتسامته
المحفورة في ثغره، وسلسلة فضية تتدلَّى من رقبة طويلة، لتصبَّ في صدر
نحيل، ويد تمتدُّ بين الحين والآخر إلى كوب الشاي المغلي، أو ما يطلق
عليه المشروب الوطني لأهل الجنوب.

قابله "كالوشا"، ومشاعر الفرحه لا تبرح قسماته، متشيئاً بعودة
صديقه، حتى أنه لم يتردد أن يستأذن المشرف، ويغادر العمل مبكراً، من
أجل "كريم"، العائد للتو من أرض الأساطير... "دبي".

كان يتحرق توقاً لمعرفة كيف مرت سنوات صديقه الخمس، كان
يسأل عن "دبي"، وأبراجها، وفنادقها، ومهرجانات التسوق، والجالية
الأجنبية، والمنطقة الحرة، وملاعب كرة القدم؛ صدمه "كريم" لما أخبره
ببقائه كل هذه المدة في الصحراء، وأنه رأى كل ما سبق في أوقات
الراحة، والانبهار لحظة، ما تبرح العين أن تألفها، وتصير جزءاً من
الاعتiad، وتفقد مع الزمن زهوها.

تجاوز "كريم" نظرات الاستهجان وتمتهاها التي أفلتت من "كالوشا"، وسأله عن أخباره، وأخبار باقي المجموعة؛ ارتشف "كالوشا" آخر جرعة من الكافيين، والثانين المركز، وفرك يديه دلالة الاستعداد ...

وبدأ بنفسه، إنه كما هو ينتقل بين عمل وآخر، فهو خريج كلية التجارة، كلية الشعب، والشعب عاطل، وزاد الطين بلة بعدما تملّص من الخدمة العسكرية، ولم يتقدم للتجنيد، تخوف من الحياة العسكرية، خشي من تبعات أن يبدأ ولا يستمر، سيبقى مُطارداً حتى الثلاثين، فآثر أن ينزوي ما تبقى، ويدفع الغرامة، لم يأخذ بنصيحة الناصحين، تمرد، تردد، أفلتت الفرص منه تباعاً، تنقل هنا وهناك، فلا عمل ثابت لمن لا يملك شهادة المعاملة العسكرية.

هو لا يقوى على الحياة الملتزمة، يؤدُّ أن يحيا طليقاً فالتأ، كائناً حُرّاً يرتع بين مباريات الكرة، وحفلات "محمد منير".

يعمل حالياً في مطعم بيتزا، بعد وساطة "نهي" التي تعمل فيه كاشير...

بتر كلامه عندما جاء ذكرها، تنهد وهو يحتسي "السحلب"، يعلم "كريم" أن صديقه هائم بها، "نهي عبد القادر" الحبل السري الأخير الذي يربط "كالوشا" بكوكب الأرض، لولاها ما عمل ولا احتمل.

أفلت من مدارها، بعد نظرات "كريم" المحفزة كي يستمر، سكت برهة؛ مضغ فيها بقية من مكسرات وزيبب، وكأنها يفصل بين من

غفلت عنهم الدنيا، ولم تبدلهم، وآخرين، غيرت حياتهم إلى حدّ الانقلاب.

"فايز النخيلي" ... بعد أن تفتحت له كل الأبواب المغلقة، وأصبح من أشهر المحامين، والسماسة في محافظة "الجيزة"، وزادت ثروته، وتنامي نفوذه إلى أقصى درجة، بفضل الطريق الدائري، وزوج أخته الحاج "مسعد الصاوي" -عضو مجلس الشعب السابق- الذي أصبح كفّ يمينه، وأصبح وكيل عائلة "النخيلة" في عالم المال، والأعمال، وولي العهد المنتظر في مقعد الدائرة، وكان للحزب رغبةً في ضخ دماء شابه، في المجرى السياسي، وليس هناك أفضل من "فايز النخيلي"، ينجز هذا الدور، فهو المحامي الرفيقي الصاعد، ولعائلته وزن في عدد الأصوات، الأمر الذي أسهم مسبقاً في فوز الحاج "مسعد" بمقعد المجلس، بلا عناء، مع المحاولات المستمرة لمرشحي الإخوان للسيطرة على هذه الدائرة، وكان لعائلة "النخيلة" الفضل في إحباط تلك المحاولات، وزاد التوسّع في الطريق الدائري من قيمة أراضيهم، والتي دخلت في إطار المناطق السكنية، كلها في أمر ابنهم، وكان "فايز" عند حسن الظن، رغم تربص ابن عمه المحاسب "جمال النخيلي" به؛ "فايز" الذي لم يوطد علاقته فقط برجال الحزب، بل امتدت علاقاته إلى العالم السفلي، عن طريق "سيد برج".

ولكن... أتت الرياح بما لا تشتهي سفنه، وقامت الثورة، وعصفت بكل أحلامه.

لم يكن "سيد برج" غريباً على "كريم"، فهو صديقهم القديم في مدرسة "السعيدية"، وكان لهم نعم العون، والعضد، في عدة مواقف من تلك التي تحدث في الدراسة الثانوية، من شد وجذب ومضايقات وإزعاجات، وبخاصة مع العدد الرهيب من الطلبة، وتفاوتهم الثقافي، والاجتماعي، والمادي.

كان "سيد برج" يحترم "كريم"، ويقدر "حداد"، ولا يبتسم إلا في وجود "كالوشا"، وكان يُعامل "فايز" معاملة دنيئة، معاملة العشوائي لابن العمدة، وبقي "فايز" الأكثر تمسكاً بوجود "سيد برج"، لسبب ما، متجاهلاً نظرات الأخير التي تفيض عليه شزراً، وكان مبدأ "فايز" وقتها، أن (الشلة اللي ما فيها ش صائع، حقها ضائع).

لم يكمل "برج" دراسته الجامعية، عرفوا بعدها أنه أراد الالتحاق بكلية الشرطة، أو معهد أمناء الشرطة، ولكنه لم يتجاوز كشف الهيئة، لغياب الوساطة اللازمة، وبعدها اختفى تماماً، ودارت حوله بعض الشائعات، أنه سافر "السعودية"، وعاد مُرحلاً، ثم عمل بلطجياً أو حارس أمن في أحد كباريات شارع "الأهرام"، رآه "كريم" مرات في "فرساي" قبل سفره.

رنَّ هاتف "كالوشا" - بصوت "محمد منير" في أغنية "أنا قلبي مساكن شعبية" - فتجاهل المتصل، وواصل حديثه عن باقي المجموعة، وإن توقف عند "أحمد حداد"، عندما لاحظ التغير الطارئ الذي تحلل ملامح "كريم"، بين له "كالوشا" أن "حداد" ذكر له ما حدث، لقد

أفشى سِرَّه لأبيه نعم، ولكنها الطريقة المثلى، وأنه أنقذه بعد أن كان على شفا جُرفٍ هارٍ، ولولاه ما أفلت من عشرته، حتى في فتره سفره لم ييخل عليه برًّا وسؤلاً، وابتسم "كالوشا" قبل أن يقول إنه لم يعطه رقم الهاتف، وعندما قرَّر أن يفعل سرق هاتفه بما فيه ودون كريم رقم "كالوشا" الجديد.

لم يحب "كريم" أحداً بقدر حبه لـ "أحمد حداد" كان أخاً وصديقاً ومعلماً. مثقفاً يستقيم له، وما دام كان هذا حال "فايز" الأقل ذكاء وموهبة فربما يكون "حداد" اليوم أفضل شأنًا وأعظم حالاً، ولقد كانت صدمة "كريم" قوية، أن "حداد" تحوَّل إلى موظف، محاسب في شركة أدوية بمدينة "السادس من أكتوبر"، يسافر دورياً في نهاية كل أسبوع إلى "بورسعيد" ليرى زوجته وولديه.

تعالى الضجيج فجأة من مجموعة شباب يلعبون الورق، "فرساي" تعود من جديد، ذكرهما بأمسيات ما قبل سفره، في نفس اللحظة التي ابتسم فيها الشاب الملتحي-الذي يظهر في التلفزيون- بثقة، حيث بدا مألوفاً إلى حد بعيد، وهو يرد تهجم الشاب الآخر الذي نفرت عروقه، واحمرت عيناه، واحتقنت ملامحه.

- مسألش يعني عن "سماح عبد المعز"؟

انتزعه "كالوشا" من شاشة التلفزيون، وابتسم "كريم" يائساً من إصرار "كالوشا"، أن ثمة علاقة حبِّ بينه وبين "سماح"! تنفَّس "كالوشا" بعمق، وأغمض عينيه برهة، وبدا متأهباً لإلقاء قبلة:

- إتجوزت!

- ربنا يوفقها.

صُدِم "كالوشا" من ردة فعل صديقه، ونظر إليه في ريبة، وتركه ليخمن من هو الزوج المنتظر، فكر "كريم" في كل الاحتمالات.

- صاحبك.

قالها "كالوشا"، وهو يرتشف رشفة هائلة من كوب الليمون الذي كأنه هبط من السماء على الطاولة، لم يدر "كريم" من منهم، حتى وقع بصره على الشاشة، واتسعت عيناه فهو يعرف الشخص الملتحي الذي يبدو أنه نال من معارضيته:

- "حسين عبد العاطي"!

- "حسين عبد العاطي" مين يا عم إتجوزت "فايز النخيلي".

لم يبدُ على "كريم" أنه سمع الجزء الأخير، وأشار بيده إلى التلفزيون، خلف "كالوشا" الذي استدار بدوره، ولم يبدُ عليه أي دهشة، رنا "كالوشا" بطرفه إلى شاشة التلفاز وأوماً برأسه متفهماً وقبل أن يبدأ حكاية "حسين عبد العاطي" قاطعه "كريم"، وكمن فاته أمر استعادته للتو:

- إنت قلت لي "سماح" تجوزت مين؟

* * *

يوم مرهق...

تطلع إلى ساعته "الرولكس"، بعينين ردمهما الإرهاق، وقد أشارت إلى الواحدة صباحًا.

اختتم يومه كالعادة مع بداية اليوم التالي، أدار محرك السيارة، أطلق نفيره الأخير زاعقًا، مهلكًا، مستهلكًا من صاحبه، الذي حرص على رسم ابتسامة شاكرة، رافعًا يده بتحية مُودَّعة إلى رجال أمن مدينة الإنتاج الإعلامي، في قلبه وَفَرَ الرضا، بعد حسم الجدل، وفي رأسه شج الصدع من أثره.

عبر "حسين عبد العاطي" البوابات راضيًا عن يومه الذي يبدأ عادة قبل صلاة الفجر، يستعد فيها للصلاة في مسجد "الرحمة" بشارع "الأهرام"، قادمًا من شقته الجديدة بشارع "العريش"، ثم يذهب إلى وزارة الأوقاف، حيث إدارة الدراسات والبحوث، بينما حصر درسه الأسبوعي بعد فجر الجمعة، وبين عمله في الوزارة، وجلسة الحزب المعتمد حديثًا، يمر سريعًا على مطعم "قزاز" بوسط البلد يتناول الغذاء، لقيات يقمن صلبه، كما يقول، ألقت معدته أقل القليل، صار يزهد الطعام اختياريًا، بعد أن كان إكراهًا وإلزامًا، ثم يحتتم ليلته في مدينة الإنتاج الإعلامي، مرة في برنامجه الأسبوعي، على إحدى القنوات الدينية الجديدة، ومرة في أحد برامج الحوار اليومية، وما أكثرها، وحينما تتعارض اللقاءات؛ تنجيه سفينة رفته، يعتذر، ويرهف، ويرق للجميع، لا يخلف وعدًا، لا يهين أحدًا، ينفذ ما قرأ عن الثبات الانفعالي، حتى مع

أشرس خصومه، يهاجمهم بشراسة بلا إساءة أو تحقير، كلما أثاروه دحرجهم بهدأته، ويبقى الليبراليون الخنثيم الأول لمشروعه، وما تبنى، ظنَّ أنهم أكثر خطورة على الثورة من الفلول، فهم يرون أنفسهم الأحق بإرث الحكم، وأصحاب التركة، نصَّبوا أنفسهم ملوكًا على التحرير، وأولي العزم من فئات المجتمع، وحاملي صكوك الغفران، زعموا أنهم آخر من فلوَّضَ، وأول من نزل، اتخذوا من أفكار "علي النادي"، و"فاروق الحسيني" - أصحاب الانتماءات الأمريكية - دستورًا كي يهتدوا إلى طريق الحرية والتحرُّر، الحرية في كل خطب، والتحرر من أي قيد .

اقترب بسيارته من اللجنة التي تفصل بين طريق "الواحات" وطريق "الفيوم"، تراحت مجموعة قليلة من السيارات، ولم يستغرق الأمر إلا ثواني، ووجد نفسه وجهًا لوجه، أمام شارب ضخم يحتل مقدمه رأس عظيم، وقسمات واجمة، ما إن وقعت عيناه عليه حتى تبسم الثغر المطبق، وارتفع الشارب بأشأ، ولوَّحت الكفُّ مودعةً.

اكتمل رضاء "حسين عبد العاطي" عن نفسه، إلا من دقات قلب تتسارع تلقائيًا لرؤية أحد رجال الشرطة في خوف غريزي، وجس اعتاده، منذ نعومه أظفاره في قرية "خربتا" مركز "كوم حمادة"، مرورًا بدراسته في كلية الدعوة بجامعة الأزهر، وما بعدها، وما أدراك ما بعدها، أحس بخفقان قلبه، مع فوضى ذكريات مرت في خاطره، جاوزها بسرعة السيارة التي اخترقت للتو ميدان "الرماية"، واقتحم سكونه رنة هاتفه، ورد على محدثه:

- أيوه يا "فتحي"، وعليكم السلام!

...

- بكره عندي جلسة مهمه في الحزب.

...

- لا اعتذر لأستاذ "وائل"، وقوله هاكون معاه في حلقة الأسبوع

اللي جاي إن شاء الله... سلام.

أدار مؤشر الراديو مستأنسًا لحديث، يطوي من المسافات ما تبقى،
ويثنيه عن ذكريات كادت تفض غزله، وأبت أن يتمم ليلته سعيدًا، بعد
معركة حوارية أخيرة، مع ليبرالي أرعن ملتحف بنزق الشوار، وآخر
شيوعي متخفّ في زي محلل سياسي.

طاف بالمؤشر حتى استقر على حوار سياسي يتابع احتفالات
أمريكا بالذكرى العاشرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، ما زالت
تشغله صورة الشيطان التي ارتسمت في دخان البرجين، كما شغلت
العالم كله، تحير فيها، بقيت عالقة في المسافة بين التصديق، والتلفيق،
والخيال.

صورة الشيطان الرجيم في سماء الشيطان الأكبر.

أغلق الراديو ولعن أمريكا. ورن الهاتف ثانية، "فتحي" مدير
أعماله يتصل في كل كبيرة وصغيرة، كثيرًا وبَّخه، بكتّه، ولا فائدة، ردَّ
بسرعة متحفزًا:

- أيوه يا "فتحي".

لم يأتِه صوت "فتحي"، كما ظنَّ، ولكن صوتًا آخر، يأتي من زمن
ليس بعيد:

يعرف الصوت جيدًا، عاد من جديد بعد أن ظن أنه ذهب بلا
رجعة، تأمل كلمة الرقم الخاص التي تكسو شاشة الهاتف، ثم أعاده إلى
أذنه، ليتأكد أنه حقيقة، وليس حلم، أو بمعنى أدق كابوس، وتمتم
مُتعثراً في الكلمات:

- الرائد "مصطفى"!

- لا... المقدم "مصطفى النوري"...الأمن الوطني.

توقف "حسين" بسيارته إلى جانب الطريق، وأحسَّ بقلبه وقد
توقف تمامًا.

* * *

صار سائحًا لأي شخص يهوى التصفح ببرنامج "جوجل إرث"،
كشف التشويش المُتعمَّد، فوق تلك البقعة التي تقع خلف
"كاير ومول"، وبالتحديد في تقاطع شارع "ترسا" وشارع
"المحولات"، وأن يكتشف ذرات العمود الضبابي المتصاعد في
حلقات، سلسلة من الغيم الأزرق تعرج من هناك، حيث الفيلا ذات
الطابقين، غير المكتملة، وغير المعرفة، اخترقتها إلى عنان السماء، كما
اخترقتها سيارة سوداء فارهة -من أعلى فئات "بي إم دبليو" -تضم

شخصية اختفت معالمها، خلف زجاج أسود أدكن، ارتفع شيئاً فشيئاً، مع خروج السيارة بسرعة في اتجاه شارع "الأهرام"، مما حرم "عم دويدار" من الرد على تحيته المودعة، بينما لهجت شفاته التمتعات والهمهمات غير المفهومة، وقد سقطت في الفراغ الذي خلفته السيارة، وعبر ثأؤبه المتكرر، تلعثم "عم دويدار" في دعائه، ولكن الله يعلم السر وأخفى، ويطلع على قلبه الذي يتضرع أن تنتهي تلك الليلة الطويلة، بلا مآزق.

يعلم أن هذا الاجتماع الدوري الانعقاد، غير المنتظم المواعيد لا ينتهي عادة إلا مع غبش الفجر، وأحياناً يمتدُّ حتى غمر الشروق، وإلى أن تأتي تلك اللحظة، يكون السعي بين جدران الفيلا على قدم وساق، تعدو، وتقف، وترسخ، وأيدٍ وأكفٌ وأنامل، تُجهَّز، وتعدُّ، وتزود، وتسقي، وتنظم، وتفتح المغلق، وتحرق المعشب، وتحمل المسكر، وشفاه تُتَمِّم، وتعتذر، وتشكر، لا تستقصي من الوجوه إلا الرضا، ولا تخشى منها إلا الاستياء.

يعلم أن أصحاب الضحكات الصاخبة، والقامات المترنحة، وأحياناً النكات الفاجرة العابثة، الذين لا يتبادلون معه التحيات، ونظراتهم التي تستوطئ قدره، ووجوههم المكررة، وهم: أ. "فايز النخيلي"، و"الحاج مسعد الصاوي" و"ثروت بيك الجميعي"؛ ومرت سنواته الأربع، ولا يعامل منهم سوى المعلم "سيد برج"، المقيم الدائم في الفيلا، في غرفته المجهزة، في الطابق الثاني.

اعتاد "سيد برج" أن يتصل به عند أذان المغرب، ويبلغه بأن الجماعة في الطريق، فيشمر "دويدار" عن ساعديه، وينظف الحديقة التي يحرص دائماً على العناية بها، لأنها المقر الدائم لاجتماعهم الصيفي، ثم يرتب الطابق الأول، بامتداده، حتى القعدة العربي، بفرشها، وووسائلها، ومساندها، ونمارقها، وموقدها، ومبخرتها، وكل ما يلزم ليالي الشتاء، وبعدها يأتي بالعشاء من مطعم حدده "برج" مسبقاً، سواء أكان سمكاً، أو كباباً، أو حماماً، يجزل له "برج" العطاء، بعد الاجتماع الليلي، فضلاً عن راتبه الشهري الذي يتولى دفعه بانتظام.

كان "دويدار" يجلس مبهوراً، في جلسات النخبة التي تجمع البوابين وحراس العقارات، لتداول أخبار المنطقة، وسكانها، تأخذه رعشة خفيفة عندما يسأله أحدهم عن صاحب الفيلا التي يجرسها، ولماذا لم يكتمل بناؤها؟ والسيارات الفخمة التي تدخلها في الظلام، وتخرج منها في الظلام؛ وعندما تكثر الهمسات والغمزات، كان يتحول لون "دويدار" إلى الأحمر القاتم، وهو لا ينبس ببنت شفة، أو يجيب بارتباك أن صاحبها واحد مهم في البلد، ولا يزيد، فلقد كان شخصياً غير مقتنع، ومع كل إيصالات الكهرباء، والماء، والغاز تأتي باسم: "سيد فاروق عبد الله"، والمعروف باسم: "سيد برج"، ثم يقول لنفسه بعد أن يُجهد الفكر طالما خلت جلستهم من النساء فلا تثريب.

تذكر عندما سأل المعلم "برج"، استوقفه بعد أن استلم راتبه، وسأله بتردد: هل هو فعلياً صاحب الفيلا؟

كاد أن يتوقف قلبه عندما لم يرد الأخير، أحرقه بنظرة اشمئزاز، خلعت قلبه من السديري، وألقته في المالح، وتركه مع بصقة هائلة، ألفاها "برج" على الأرض، من صدر هو الموطن الأصلي للبلغم الخام، لم يكررها "دويدار"، ولن يفعل ...

هدأت الأنفاس قليلاً بعد رحيل "سليمان بيه"، وتمددت الأجساد على السجادة الإيرانية التي تتوسط القعدة العربي، وتناثرت فوقها وسائد اندست فيها رؤوس ثلاثة متناقلة، بُدلت كرات من حديد أعيائها الحشيش، والقهقهة، والجدل، والتشاور، والتحاور، والتفاوض، بمؤخرات مترهلة، سمنها الشبع، والقبول، والاتفاق، والاكتناز.

بدوا منتشين، وعلت ثغورهم ابتسامة، راضية مرضية، بعد أن أتموا منذ دقائق صفقة غالية، اجتازوا كل العقبات، بفضل نوع الحشيش الفاخر الذي أتى به "برج" من زرع جهنم، ليحصدوا خمسة ملايين جنيه مرة واحدة.

دلف "سيد برج" بقامته الشاخنة كرمح أفريقي من باب الفيلا، متجهاً نحو الرؤوس الثلاثة، مذيلاً بشابين متناقضين فيزيائياً، أحدهما مفرط في الطول، والآخر غارق في القصر، يحملان زجاجات خضراء، توقفاً فجأة بعد إشارة خفية من "برج" الذي مدّ يده إلى أحد الرؤوس بالمزيد من الشراب، رفع "ثروت الجميعي" يده معتذراً "برج" وهو يسعل بشدة وبصعوبة، أدار "ثروت" رأسه حيثما يرقد الحاج "مسعد" الذي أطلق شخيراً متقطعاً، وحثه على الاستيقاظ فأذان الفجر اقترب،

وخبت النار وانفضّ الجمع، وطالما حصدوا ما زرعوه فقد حان وقت الرحيل.

فتح الأخير عينه مشدوهاً، ذاهلاً، من استدعوه من بوابة العالم الآخر، تفقد المكان والوجوه، ثم فرك عينيه في تعب، وتشاءب في قوة، ثم استند على يد "فايز"؛ ليجبر نفسه على الوقوف، مقاوماً ذلك الدوار الذي يجوب رأسه، كراقص التنورة، وارتدى عباءته البنية، وحذاءه ماركة "ميريل".

لم يكن "سليمان بيك" الزائر الوحيد لـ "القلعة" - كما يجب أن يسميها الحاج "مسعد" - لإحكام تحصينها من العيون الحاسدة، والحاقدة، والتي لا تستحق سوى دانات مدافع، تسحقها، مع أصحابها المتلصصين والمراقبين - لقد كانت حصن الاجتماعات السرية، مع نخبة المجتمع، أمثال رجل الأعمال المشهور "هادي أبو ليلة"، وحتى المحامي الأشهر "علي راشد"، وكل من له علاقة مصلحة مع "ثروت الجميعي"، والحاج "مسعد".

للموا بقاياهم، كفيلة مُرتحلة، ركبوا السيارات، عدا "فايز" الذي ألقى عليهم نظرة مُودّعة، وما إن اختفت السيارات، حتى استعاد نشاطه، وعقد رباط عنقه المفكوك، وأفلتت من شفتيه بسمة ظفر، دنا من "سيد برج" بقدر غير مسرف، مدرّكاً فارق الطول بينه وبين "برج"، ويتقي نظرة "برج" العلوية:

- هه... كله تمام؟

أجابه "برج" بصوت معدني خالٍ من الانفعالات:

- تمام...

ألقي "فايز" نظرة على الشائين في تساؤل، أفهمه "برج" أن "موكشة" و"جلمبو" آلات تنفيذ ليس إلا، يقولوا فقط سمعنا وأطعنا، لا رأي لهم ولا اعتقاد.

نظر "فايز" إلى ساعته، وذكره بإرسال الأسطوانات المدججة التي سجلها الليلة إلى مكتبه، وأن يمرّ عليه ليلاً، لأمرٍ مهمّ.

رمى بجملته الأخيرة، دون أن ينظر إلى "برج"، وهو يركب سيارته، و"دويدار" البواب يلهج بالتحية، وفي صدره فرحة بقرب انتهاء الليلة، والاستسلام إلى النوم.

كان "برج" يقف في مكانه، سنديانة عتيقة، يتابع سيارة "فايز" رباعية الدفع التي أطلقت غباراً كثيفاً خلفها، تختفي من بين ضفتي البوابة... و"دويدار" الذي يسعل، ويهرول نحوه، ويهتف في سعادة مستترة:

- هه الم الحاجة يا معلم "برج"؟

بدا أن الأخير لم يسمعه، ولم يتحرك من مكانه قيد أنملة، وعيناه معلقتان بالبوابة، أو ما كان يعبرها، أو بتعبير أدق، مَنْ كان يعبرها.

كاد "دويدار" أن يكرر سؤاله لولا أن تحرك "برج" ببطء، ليجد "موكشة" و"جلمبو" غارقين في شرب الجعة (البيرة) في حديقة الفيلا،

توقفنا فجأة من نظراته النارية، تجمّدا جميعاً، ونظراته تنتقل بين "موكشة" و"جلمبو"، وبين "دويدار"، ثم تتحول إلى البوابة، لتنتهي ببصقة هائلة من منجم البلغم، انطلقت طلقة طائشة، حمدوا الله جميعاً أنها ضلت الطريق إلى وجوههم، وهدأت شظيتها على الأرض، على الممشى المؤدي إلى البوابة.

في اللحظة نفسها، وصل فيها "فايز" إلى عمارته التي تطل على ترعة "المريوطية"، بجوار الطريق الدائري، وبخ الباب بعد أن وجده نائماً، وأصدر إليه بعض التعليمات، ليخبرها للسكان، والباب يهز رأسه بلا معنى، داعياً الله أن يأتي المصعد، ليزيح عنه "فايز" بسماحته، وغلظته، ويعود إلى فراشه سريعاً، كي يخطف قبل شروق الشمس ساعة، فتح "فايز" باب الشقة التي غلّفها السكون والظلام، أغلق الباب خلفه، وتحرك نحو غرفة النوم، حتى بادره صوت أثوي يأتي من خلفه، من الظلام:

- حمد الله على السلامة. ما لسه بدري!

كادت تودي بقدرته على الإخصاب، والاكتفاء بولده "محمد"، الراقد على بُعد غرفتين:

- "سمّاح"!

وكان صوت آذان الفجر فاصلاً، بين معركة ربحها "فايز النخيلي" منذ قليل، وأخرى قادمة تنتظر قرع الطبول.

الفصل الثالث

صرخة أخرى قوية، احترقت السكون المؤقت، صحبتها ضربة قوية، باتت صاحبها عازمة أن تنهي كل شيء، ضربت، وانتظرت، تحولت كل مسامها إلى نقاط رصد حصينة، وقفت على أهبة الاستعداد، تصد هجومًا مُتوقعًا من الجانب الآخر، الجانب الذي أثخنه الضربات، فبدأ منهكًا، متعبًا، يتهيا لرفع راية الاستسلام، لولا ماء الوجه، فترت مقاومته، وأصبح بصعوبة قادرًا على صد الهجوم، بأصابع طحنها النصب، وعينين طمرهما العرق.

تعثرت القدمان، وانتهى كل شيء.

ارتفع صوت التصفيق من جماعة محدودة، جلست في صف واحد، تحت مظلات متماسكة، واختلط بهتاف ممزوج بالفرحة، احترق الشبكة الأفقية بالملعب الفرعي للتنس في نادي "الجزيرة".

كانت فرحة "درية المهدي" مبالغًا فيها، خاصة وهي تعرف أن قدراتها في لعبه التنس محدودة، وكانت هذه المباراة شبه التمثيلية، شبه المتقنة، اشتركت فيها مع كابتن "منال" -مدربتها السابقة- التي بدت أمام الجميع تسقط في فخ الهزيمة، من تلميذتها النجبية، الأمر الذي دعا

الأخيرة أن تكتم في صدرها مشاعر الهوان، وترسم ابتسامة رضوانٍ زائفٍ، وكأنه اعتراف رسمي بالاندحار من الطاووس.

تناولت "درية المهدي" منشفة بيضاء من خادمتها الفلبينية التي أضحت نعمة نشازًا، وسط حفنة من سيدات المجتمع، الجالسات خلف نظاراتهن الشمسية من فئات "كرستيان ديور"، و"شانيل"، و"دولتشي أند غابانا"؛ واللاتي تظاهرن بالانبهار بقدره "درية" على هزيمة مدربتها، مع سيل متقن من عبارات النفاق، عن رشاقتها، وجمالها، وتألّقها، الأمر الذي دعاها أن تطلق لشعرها العنان، بعد أن رفعت عنه غطاء الرأس "الكاب" الأبيض، لتسمع قدرًا إضافيًا من الثناء على جمال شعرها، وانسيابه.

مرت من بينهن راضيةٌ مرضية، مُوزّعة ابتسامتها المتباهية المتفاخرة، ردًا على إيماءات، ونظرات، وإشارات، تناثرت هنا وهناك.

ألقت نفسها فوق مقعد في آخر الصفوف، إلى جوار إحداهن التي كانت تراقبها في اهتمام وشغفٍ، سألتها "درية" عن رأيها، عدلت "د. عليّة ياسين" نظارتها الطبية، وابتسمت مجاملة:

- رائعة... كالعادة.

مرّرت "درية" أصابعها بين خُصلات شعرها، وطاقف بالمنشفة البيضاء على ساقها العاريتين، ثم ألقتها بإهمال على الكرسي المجاور، لتلتقطها الخادمة الفلبينية، والتي وقفت إلى جوارها، صنيًا وطيّدًا،

اقتربت من "د. عليّة" تلقّي مزيدًا من الزيت على شغفها المتقد،
وهمست أنها تعرف ماذا تريد.

انتظرت لترى تأثير كلماتها على "عليّة" التي بدت ملاحظها رصينة
مستقرة، لم يوهن الظرف من عزيمة سيدة الحزب الحديدية، إلا من
هالات سوداء تحلقت عينيها الذابلتين إرهابًا، التائهتين وطأة، الأمر
الذي جعل "درية" تُتابع:

- موضوع القضية مش كده!

أومأت "د. عليّة" برأسها إيجابًا.

تعرف "درية المهدي" أنها ورّطتها مع ابنة عمها "كاميليا" وزوجها
"خالد المنشاوي" الذي يكاد بغبائه وسوء تصرفه أن يحرق المعبد بمن
فيه، وما كان ليفعل أو يجرؤ لولا سفر والدها "حازم المهدي" إلى
"باريس" للعلاج، كانت تخفض صوتها إلى ما يقرب الهمس خشية أن
يُفتضح الأمر.

كانت "د. عليّة" تعرف جيدًا أن الوزير السابق "حازم المهدي"
هرب بعد الثورة مباشرة، بعد أن استطاع أن يُحوّل مُدخراته التي
تجاوزت المائة مليون إلى بنوك "لندن" و"باريس"، وكان من سعيدي
الحظ الذين لم تطلهم دوامات ما بعد الثورة، ولم يتأثر نفوذه بعدها، ولم
يُدرج اسمه في قوائم ترُقّب الوصول، مما أضاف لـ "درية" -ابنته
الوحيدة- مكانة فريدة بين سيدات المجتمع، بعد أن تساقط أزواجهن،
وأباؤهن، الواحد تلو الآخر، في قضايا فساد، وترُبح، واستغلال نفوذ.

عاهدَتْها "درية" أنها لن تتخلَّى عنها وأنها ستجد وسيلة مع "خالد المنشاوي" لِطَمْسِ عِناده، ومَحَقِّ تَعَنُّته، وتقنعه بالتنازل عن القضية بلا قيد أو شرط. تمتت "درية" مُنْهية الحديث القصير، أسبوع واحد وينتهي كل شيء.

باب آخر يُغلق، أُوصد رِتاحه بمزلاج من حديد إلا من كوة صغيرة وهي وعد الفتاة التي وقفت بجانبها يوماً ما.

تعلم مدى العداوة والبغضاء بين عائلتي "المهدي" و"المنشاوي"، مع علاقة النسب.

الهمُّ يزداد، والخوف يُجِئ بظلاله، خطواتها مثقلة بأكياس رمل، الناس حولها وجوه بلا ملامح، ضبابية غائمة تعوق رؤيتها، اكتشفت دمعة ساخنة فَرَّت قسراً من عين يَبْسَةٍ، جافة عمراً.

لم تعرف للضعف أبجدية، ولا للعجز مفردات، أَحَسَّت بالكابوس يطبق عليها، من كل الجهات؛ مستقبلها الطبي، مكانتها الاجتماعية، و"كريم" وحيدها، وكل ما تملك في هذه الدنيا، الشيء الحقيقي الوحيد في حياتها، بعد انهيار زواجها، وحبها الوحيد، كل شيء ينهار كسداً مأرب، والظوفان يأتي قسراً.

مسحت دموعاً تسربت إلى إطار نظارتها، وأكملت طريقها نحو مريض انتظار السيارات، وهي غير مطمئنة إلى خطواتها القادمة...

- د. "علية"!

كأنه صوت من الماضي، توترت لسماعه كل عضلة في وجهها،
اقتلعت نفسها من حبائل الدهشة، وتفرّست في ملامحه التي غيّرَها
الزمن:

- "د. ياسر"!

مدّت يدها نحوه تُصافحه في حرارة.

فـ "ياسر بدير" ليس فقط زميلها السابق في كلية الطب بجامعة
القاهرة، ولكنه الصديق المُفضّل لزوجها السابق "عبد الحميد صدقي"،
والسبب الرئيسي في تعارفهما، ثم زواجهما، وكان صديق العائلة
الصغيرة، إلى أن حانت اللحظة الفارقة التي تغيّر بعدها كل شيء في
حياتها، وتبدّلت الأمور رأسًا على عقب، وكان ابتعاد "ياسر بدير"
التلقائي إلى جانب صديقه، أمرًا طبيعيًّا تفهّمته "علية"، ومرت السنون،
وكان ظهور اسم د. "ياسر" في أزمة "كريم" الأخيرة، مدعاة لها أن
تبتعد أكثر وأكثر، خشية الإحساس القاسي بالخيبة.

- كنت عاوزك في موضوع مهم...

ومع الهموم التي تعصف برأسها، والدهشة التي أصابتها من هذا
اللقاء، غير المتوقع، والتي لا تعرف أمقصود هو، أم محض مصادفة؟
ترجّلت معه عائدة إلى مطعم النادي، جلسا متقابلين، أثارت جلسته
أمامها كل الذكريات، الكلية، والمحاضرات، والمشرفة، والكافتيريا
التي شهدت أول لقاء مع صديقه المقرب، وزوجها السابق، لا تعرف

إن جاء مصادفة أم يرقب لقاءها عمداً، وكأنها قرأ أفكارها وقال إنه أتى إليها قاصداً، راقب علامات الدهشة تعلو قسماها ولمعت عيناه من دمعة فارة وتمتم:

- البقية في حياتك.

تطلعت فيه، أحست بألم ينزع عن القلب جداره، وبعينين متسائلتين، وبصوت مكتوم، لم يسمعه.

- مين!

قاوم حزناً يعتصر قلبه، ويلجم لسانه، سكت حتى استجمع قواه:

- "عبد الحميد"...

رصاصة طائشة مزقت القلب تماماً، أو ما تبقى منه، لم تدر: أما زالت حية أم في قلب الجحيم؟ دموع تسربت بلا حاجر، وقلب يدمي بلا حدود، وانطلق من شفثيها نحيب أنثى، قتلت ذكرها، تبكي قتله، وفراقه، وظلمه، وحبها، ووحدتها.

مر شريط الذكريات على أنقاض قلب، صورته وهو يضحك، وهو يغضب، صورته يوم الزواج، ويوم الفراق، صورته وهو يحتضنها بعد مولد "كريم"، وصورته وهو يحمل حقييته، خارجاً من حياتها للمرة الأخيرة.

تركها د. "ياسر" لأحزانها لحظات، واعتذر لمرارة الخبر، ملمت ما تبقى منها، ومسحت دموعها بكفيها، وتلففت حولها تتأكد أن أحداً لا يرى حالها، تابعت بصوت اجتهدت أن يأتي طبيعياً:

- إمتى وادفن إزاي من غير ما نعرف؟

- من شهر تقريباً، المهم دلوقتي، لازم "كريم" يبدأ في إجراءات إعلان الوراثة في أسرع وقت.

لم يبدُ كلامه منطقياً في هذا التوقيت، ولكنه تابع مدرّكاً سرّ نظراتها الدهشة، إنه يعلم أنه ليس التوقيت المناسب لهذا الحديث، وأن "كريم" عنده ما يكفيه، حفظها الله له، ولكن ثمة أشخاصاً آخرين، الأمر بالنسبة لهم أكثر تعقيداً، وأشدُّ عُسرًا، قالها وهو ينظر إلى هاتفه المحمول، وأداره إليها لترى على شاشته صورة زوجها السابق، يحمل فوق شفّتيه ابتسامة، وبين يديه صبية.

رفعت عينها نحوه في تساؤل، ودقات قلبها تتقاطع في دويٍّ مُميتٍ، وانهار ما تبقي من أطلال "علية ياسين".

* * *

اكتملت أسابيع ثلاثة على استلام "كريم" للعمل في موقعة الجديد بالشركة.

الأمر تبدو مستقرة إلا من أمرين، أولهما نظرات أمه الشاردة، وإحساسه الخفي أنها تُخفي عنه شيئاً ما، ومع محاولاته المتعددة لسبر أغوارها إلا أنه فشل في اكتشاف السرّ، فهو يعرف أن التنقيب عن البترول، والحفر في صخور البازلت، أهون كثيراً من التفتيش في ثنایا الدكتوراة "علية"، ولكنه يؤمن أنه سيأتي يوم ما، يزول الغمام.

أما الأمر الآخر الذي يَنسُ مبكرًا في التعامل معه، هو الزحام الذي لم يعتده في "دبي"، فالطريق من آخر "شارع فيصل"، وحتى مدخل "أكتوبر"، لا يتعدى الكيلومترات القليلة، يقطعه صباحًا في ساعة تقريبًا، ولكن اليوم حالة أكثر استثنائية، يبدو الطريق مشلولًا، فقد جاوزت الساعتين، وما زال عالقًا بسيارته أمام البوابة الأولى من "حدائق الأهرام".

وفي نهر الزحام المُتدفِّق، لا أمل حتى الرجوع، ولم يمتد زمن التساؤل كثيرًا، فقد أجابت سيارات الإسعاف التي مرّت من الطريق المقابل، عن كل الأسئلة، ويبقى الموت قريبًا، أقرب من النفس التالي.

شعر بأن يومه قد انتهى، ولم تدق العاشرة بعد، ووجد نفسه حبيسًا لكل الذكريات.

طلاق أبيه وأمه.

حبه لـ "سارة الحسيني".

الإيدز.

السفر.

الأصدقاء، نعم الأصدقاء...

التقط هاتفه الجوال، ضرب رقم "كالوشا" الجديد، أيقظه من نومه، تحمّل توبيخه، ثم سأله عن اسم الشركة التي يعمل بها "حداد" أجابه بصوت مزّق المغيب، وأثار تعيُّظه لما سأله عن رقم المنطقة

الصناعية، تتم "كالوشا" بكلمات نوبية، ضحك "كريم" قبل فقرة السباب العربية المتوقعة.

أنساه الحنين إلى صديقه كل الذكريات المؤلمة، كان قد أبدى غضبًا لأنه أفشى سره لأبيه، وأحبط خطة هروبه إلى "أمريكا"، فقرر أن يقاطع صديقه طوال خمسة أعوام، تجاهل كل محاولات "حداد" للتواصل معه.

ولكنه بمرور الأيام، اكتشف أن بتلك الخطوة غير المتوقعة من "حداد"، انتهى كابوسه إلى الأبد، اكتشف عدم إصابته بأي مرض، وسفره إلى "الإمارات"، وحسبه أن احتفظت أمه بصورتها بين الجميع، دون تشويش، نعم، تلقى منها الكثير وقتها، لكن يبقى الصُراخ والسباب في حيزِ الغرف المغلقة، لم يتعدَّ حدود شقتهم، فلقد كانت وما زالت تحتفظ بوضعها المميز سواء كونها طيبة، أو سيدة مجتمعة، ومع الأيام، دُفن هذا الموضوع تمامًا، من ناحيتها، اختفى كأنه نسيًا منسيًا.

عاود الاتصال بالموقع:

- ألو أيوه يا حسن، معلش اعملي أجازة النهارده!

أنهى المكالمة؛ ولم تكد تمر الدقائق العشر، حتى حدثت انفراجة مروية، اتخذ طريق "الواحاح" الذي كان أسعد حالًا من سابقه، رفع صوت الراديو، وسمع صوت المذيع:

(هذا وقد صدر بيانٌ عن المجمع المقدس بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية، برئاسة قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث،

وبحضور ٧٠ من أهبأ الكنيسة؁ صباح يوم الإثنين؁ العاشر من أكتوبر؁ بالمقر البابوي؁ جاء فيه:

لقد راعنا ما حدث بالأمس أمام ماسبيرو؁ من استشهد أكثر من ٢٤ من أبنائنا الأحباء؁ وكذلك نحو ٢٠٠ من الجرحى في مسيرتهم السلمية؁ وإذ نؤكد إيماننا المسيحي بعدم استخدام العنف بكل صورته؁ كما لا ننسى أن بعض الغرباء قد يندسون وسط أبنائنا؁ ويرتكبون أخطاءً تُنسب إليهم (...).

أدار "كريم" زر الراديو بحثاً عن شيء آخر؁ حيث وجد ضالته عندما سمع صوت "فيروز"؁ يأتي من عالم آخر:

(والله رح موت فيك؁ صدق إذا فيك؁ ويكفيك؁ شو بدك مني إذا متت فيك؁ معقول في أكثر؁ أنا ما عندي أكثر؁ كلّ الجمل يعني عم تنتهي فيك؁ عندي ثقة فيك. ويكفي؁ إذا متت فيك ...).

كانت تجري بسيارتها في اللحظة نفسها.

"سارة!"

أطلق العنان لسرعة جنونية؁ اقترب من سيارتها أكثر؁ ولكن؁ لم تكن هي. لن ينسى نظرة التساؤل والتعجب من السيدة التي حَسِبَها هي؁ أشار لها معتذراً؁ وانطلق بسرعة أكبر؁ يتجاوزها؁ ويُدْاري مشاعر الحرج.

(عندي حلم فيك، عندي وَلَع فيك، وبيكفيك، شو بدّك أنّه يعني
موت فيك معقول في أكثر أنا ما عندي أكثر، كل الجمل والحكي
والكلام فيك).

وما زالت "فيروز" هناك توقظ كل نظرة، كل لمسة، كل لحظة ألم،
وحنين، وشوق، وعذاب، وفراق.

سأل عن الطريق أكثر من مرة، حتى وصل إلى مبنى "الأهرام"،
على مشارف المنطقة الصناعية، وسأل أحد سائقي عربات نصف النقل
(وسيلة المواصلات في المناطق الصناعية)، كي يصف له مكان الشركة،
حتى وصل إلى بوابتها التي تحتل منتصف سور حديدي، ركن سيارته
على جانب الطريق، وأنجّه نحو رجال أمن البوابة؛ ولم تكن سوى
دقائق، وكان صديقه بين ذراعيه.

* * *

يعرف أنهم يطاردونه، عاش وكأن المطاردة جزء من تكوينه، كود
سري دخل قسراً في جيناته، خطّاً بأحرفه الأولى مصيره المحتوم، في
المسافة بين العظم واللحم، فكان طريداً في البداية، ومرشحاً أن يظل
طريداً حتى النهاية.

كان يعيش حياة البوم، مزيج سحري من التشاؤم، والحكمة،
والتلصص، وسرعة الانقضاض.

- قهوة ثاني يا فندم!

اقتحم عالمه صوت النادل، وكأنه أتى من جوف بئر فارغة، أو مأ برأسه إيجاباً، دون أن يرفعها صوب عيني النادل المتلصصتين، وقد بدأت إجراءات الفحص، في المسافة بين إطار النظارة السوداء، ومقدمة غطاء الرأس (الكاب) الذي يرتديه.

كان تنكره مفتعلاً، إلى حدّ كبير، فبالإضافة إلى النظارة السوداء الكبيرة، وغطاء الرأس، ارتدى سروالاً من الجينز، وقميصاً احتلته مربعات من كل الألوان، ودّلوا اختفى عن كل العيون، بقدر استمتاعه نفسه سابقاً، بأن يكون محوراً وبؤرتها.

لم يكن لـ "حسين عبد العاطي" -ابن قرية خربت (خربتها) مركز كوم حمادة بحيرة، بلد الحاج "مسعد الصاوي" -أدنى فرصة للتنازل عن أحلامه، وطموحه المشروع من وجهة نظره، لم يترك فرصة واحدة تفوته أن يطرق من خلالها أبواب المجد، والمال، إلا وكان حاضراً ذهنًا، وجسدًا، وروحًا.

ارتفعت أسهمه بين أقرانه، بعد ختمه القرآن الكريم في سن العاشرة، تباهى "عبد العاطي" حفار القبور بولده، الذي صار منبت ابتسامة منفردة، هلّت منه على الناس، بعدما تعايش معهم مطوقاً بطبيعة عمله، معمدًا في طبيعتها، مضى عابس المحيا، واجم الوجه، منقوشًا على قسماته حزن مُزيف، وفي قلبه بؤس حقيقي.

ولم يكن غريباً أن يقضي "حسين" طفولته في مساعدة أبيه، ووضع آخر اللمسات في حياة فلان وفلان، مما جعله في نظر أقرانه كالطوم رمزاً

للتشاؤم، بينما عدّ نفسه كالبوم، رمزًا للحكمة، حتى قرّر أن يحيا كالبوم،
رمزًا للتلصّص والقنص.

- أي خدمة ثانية يا فندم؟

صوت النادل المعدني الخاوي، يأتي من مدار آخر، رافعًا قدحًا
فارغًا، خامسًا، من أمامه؛ صوت دكتور "شكري" -طيبه الخاص-
يأتيه من مكان على هامش جمجمته، محذرًا من إفراطه من تناول القهوة،
وقلة النوم التي لا تتجاوز الساعات الأربع.
يعرف أنهم هنا.

لا مكان للنوم في حياة المطارد، حسبه سعيه للوصول إلى المجد
المنشود، فلا مكان لليأس في حياة البوم، الصيد آتٍ لا ريب، حتى لو
أدار الحظ ظهره إليه مرة، وساقته الرياح إلى الالتحاق بمعهد "أبي بكر
الصديق" الثانوي الأزهري بالعمرانية، ثم كلية "الدعوة الإسلامية"
بجامعة الأزهر، فرع "الدراسة"، فقرّر أن يترك قريته إلى الأبد،
والإقامة بجوار الحاج "مسعد"، بحثًا عن فرصة، بجوار الرجل الغني
الذي أقدم على مساعدته، ممتعضًا، ووفر له سكنًا بالجوار، وعمل في
الأمن، على أحد أبراجه بشارع "خاتم المرسلين".

أمن من ماذا؟، ومن يجروّ على الاقتراب من رجل الحزب القوي
الذي طرحت حول ثروته آلاف التساؤلات، مخدرات، آثار، تجارة
عملة، لا أحد يهتم، الشيطان يبقى في التفاصيل.

وساعد "حسين" عمله كحارس أمن على القراءة، في كل شيء، بالإضافة إلى حاسة أمنية قوية، تترصد أي خطر، وأفادته كثيرًا مكتبة "أحمد حداد" المتنوعة، بعد أن توغّل في زميرتهم، عن طريق "فايز النخيلي" - صهر "الحاج مسعد" - حتى اكتسب ثقتهم، وبخاصة "حداد"، وقضى ما قضى من دراسته، متطفلاً على الأخير، الذي لم يخذله، ولم يتخلّ عنه.

لم تسكن هواجسه، عاش مُستنفِراً حواسّه، قنّاصاً صبوراً ينتظر، بعثر في كل طريق مصيدة، وزرع في كل مسلك شرّاً، وأقسم بأيام البؤس والمعاناة، على أنه لن يعود إلى الفقر أبداً.

وسرعان ما أتته الفرصة، وانتهازها، طالبه أحد الزملاء القادرين مალًا، والعاجزين صنعًا، أن يأتي محله في حضور اختبار القرآن الشفوي، كي تمر السنة بردًا، وسلامًا.

طمأنه ببطاقة الجامعة المزيفة، وأمنه بنظراته المؤازرة، وأجره بخمسمائة جنية، بات ليلته يجسه الصمت، يسكنه الترقب، قاتل لم تكتشف جريمته، مجرم أول مرة يفُضُّ عُذرية صحيفته، نامَ تطوفُ به الكوايبس، واستيقظ، واستنظر، واستفسر، واستعلم، وانتصر، أمسى منبسط الأسارير، بعد أن تمّت العملية بنجاح ...

وقد كانت البداية...

لا مكان للخوف في أرض البوم، وخاصة الجائعة منها، لا شيء تخسره وأنت في قلب العتمة، حتى الحياة نفسها لم تعد غالية، لمن أُلِفَ الموت.

آفة البشر... الخوف.

والموت هو الخوف الأكبر للكائن البشري، ودُّوا لو نسوه وتناسوه،
وخلدوا في الحياة الدنيا، واستقروا بها، ممددين على فُرشٍ ممهدة رخية،
متناسية ظلمة القبر وظلامه.

في بعض الليالي الصيفية، كان يفرش الحصيرة في أحد القبور
المفتوحة، ويقضي ليلته هائئًا، ساخرًا، مستقرًا.

الموت، صديقه القديم، رفيق دربه، مصدر رزقه؛ فهو الوحيد
الذي كان يُهدئ قلبه عندما يسمع صوت الصراخ والنحيب، فالرزق
آتٍ، واليوم ينام ممتلئ البطن.

دارت العجلة، طمع في الطلبة الخائبين، وطمعوا فيه، تطلعوا
لنجاح مُلَفَّق، وطمح هو في ألف خمسمائة، وكان له ما أراد، حتى جاء
يوم نحسه، بعد أن دخل لجنة الامتحان وكيل الكلية الدكتور "بكر
السنوسي"، الذي يعرف "حسين" جيدًا، واكتشف مصادفة فعلته،
وبعد الزجر، والتعنيف، والانتهاز، وطفرة الدموع، وتمتات التوسُّل،
والاسترحام، زر "حسين" كتفيه، وخرج في صحبة الشرطة.

عندما تدفعك الرياح للأمام، بعيدًا عن الجدار، يبقى ظهرك
مكشوفًا.

يعرف أنهم هنا، يطاردونهم، يراهم في أحلامهم، وليس في وجوه
الزائرين لـ "مول أركان" -الذي يتصدر واجهة مدينة "الشيخ زايد"-

فحسب، ولم تفلح الساعات الثلاث التي قضها منتظرًا ضيفه-غير
المُرحَّب به-أن يكتشف ماهية من يراقبه... يرى أن العدو الأول هو
الشعب، فعندما يبلغ الإنسان منتهاه، يبدأ فورًا في الانحدار.

قالها في نفسه، وهو المسيطر على شهواته، وغرائزه، حتى سقطته
الوحيدة، ومحاولته التحرش بـ"نهي"، بعد أن بلغت به الإثارة ذروتها،
وغزت مكمنه، صرخت، قاومت نزوته، صدت لهفته، هددت منزلته
بفضيحة كبرى، ولكنها لم تفعل.

تذكر أولى لياليه في قسم "مدينة نصر"، لم ينسَ نظرات الضابط
الذي كان يُحقِّق معه، وظل يوبخه، ويشتمه بأقذع الشتائم، عامله أسوأ
من القوادين، واللصوص، وتجار المخدرات.

استلمه الحارس، وأودعه السجن، حين ترحيله غدًا إلى النيابة...

النيابة... سمعها مقموغًا، ملجومًا، مكدود الذهن.

كابوس رهيب.

تبًّا لكل خمسمائة جنيه، لقد ضاع المستقبل في لحظة، استلم ركنًا
بعيدًا، بجوار المبولة، قاوم بركان تفتق في معدته، وزلزال رجٍّ أمعاءه،
نظر إلى الأرض، متحاشيًا أن تلتقي عيناه بأحد، اختلس نظرة إلى أعلى،
شعر بوجوههم تتابعه في ترقب، سرعان ما أطرق برأسه بعدها، فلم
تتجاوز نظرتة قدميه، ولقطت أذنه وقع أنفاس تقترب.

- مسجون سياسي يا مولانا!

طمأنه صاحب الصوت، بألا يخشى أحداً، وأنه سيبقى في السجن بلا مساس، أوجس منه خيفة "حسين" وهو يتأمل من طرف خفي، كان فتى قصير القامة، أخفش العينين، أبخر الفم، أمرد الوجه، وفي وجهه ندبة غائرة بد قطبها ظاهر الأثر، عرّفه بنفسه "موكشة" بينما الآخر في آخر السجن هو "جلمبو" رفيق دربه.

لاحظ "حسين" الشاب الغارق في النوم، المستند على الحائط المقابل، ثم رفع رأسه إلى محدثه، وقبل أن يردف بكلمة؛ بادره "موكشة" أنه يعلم أنه لا يدخن ولا يملك من السجائر شيئاً، هزّ "حسين" رأسه نافياً، ولكن "موكشة" أوما برأسه متفهماً، ولكن هذا لا يمنع أن يرضيه ويمنحه شيئاً يُبهجه؟

- الشيك يا فندم اي خدمة تانية؟

صوت النادل المعدني يأتي عبر الفراغ، ماداً يده بعلبة أرابيسك خشبية، فتحها "حسين"، وعيناه تجوبان المكان، أخرج محفظته الجلدية، بعد أن وقعت عيناه على الرقم النهائي للشيك، ولم يسمع صوت النادل، وهو يعتذر، لأنه حان وقت تسليم الوردية.

- "حسين عبد العاطي" ... تعال.

صوت العسكري أيقظه من غفوة عابرة، لا يعرف مدتها، أزاح رأس "موكشة" المرمية على كتفه كحجر، ولاحظ الجاكت الجلدي الذي اشتراه من وكالة البلح على الأخ "جلمبو"، وكان كل ما يملك،

مع حذاء اشتراه من المكان نفسه، تحرَّك خارجًا من الزنزانة، ملقيًا نظرة وداع على "موكشة"، الغارق في نوم عميق، أو بالأحرى، ودَّع حذاءه الذي وقع في قدم الأخير.

توجه منكس الرأس، عابرًا المسافة بين الزنزانة ومكتب المأمور، وخفق قلبه، بعد أن رأى كل النجوم، والنسر القابع فوق كتف عريض، والتي انفتحت عليه بحلقة جديدة من السباب التي طالت المرحومة أمه، ولم يلحظ إلا العبارة الأخيرة التي لم ينطقها المأمور، بل نطقها شخص ضخم كَثُّ الشارب غليظ الملامح يدخن سيجارته بشراهة لم يفسر من بين الدخان الكثيف سوى:

- أمن الدولة.

العبارة التي صدرت من:

"مصطفى النوري"...

- تأخرت عليك!

الصوت نفس الذي هاجمَ ذاكرته منذ قليل، يجلس صاحبه أمامه، الآن بعد سنوات.

الغلظة نفسها، عقدة الحاجبين نفسها، رائحة التبغ نفسها، هز حسين رأسه نافيًا وقد عبس وجهه، وشحن جوفه بالحنق، فجاء صوته مرتعشًا كسابق عهده، وهو من هو، المعروف بقوة صوته، المتختم ثقة، نبراته القوية، منطوق حروفه المميز، المقنع إلى أبعد الحدود.

هو مَنْ واجه الموت وصاحَبَه، واجه كل المصاعب، واثقاً بقدراته، متى بدأ الجدال، يصل إلى هدفه بالقوة، أو الإقناع، أو الحيلة، كل المعادلات تتحقق، إلا في حضور اثنين أولهما هذا الكائن الأسطوري الذي أمامه، المتغير الذي يهدم معادلة الخوف، ويهدُّ كل المعطيات، ويغير الموازين.

إنه سفير أمن الدولة في حياته.

الذي يحوله إلى كائن آخر، مهتز الأركان، مُهتَرِئ الحجة، يفقد قدراته العلمية والعملية في التفكير، لا يملك سوى أن يؤمر فيطيع، يقاد فينقاد، يطوع فيطاوع، مهما يكلفه الأمر.

حياته كلها، بكل ما فيها، من حرمان واحتياج في كومة، والأسبوع الذي قضاه في مبنى أمن الدولة كومة أخرى، لا ينكر أنه خرج إنساناً جديداً، فقد كان لاتفاقه معهم جائزة كبرى، وهو إطلاق العنان لطموحه، ورسم حياة أخرى، وإفساح المجال له للعودة إلى الكلية، لإنهاء السنة الأخيرة، لم تشغله وقتها نظرات "الشيخ بكر" - الشخص الثاني الذي يصهر في حضوره - الذي أُجبر ضمناً على عودته، وأصبح عينهم على الجميع.

بومة أخرى، التجسس على الجميع، القريب والبعيد، نظيرَ فَتَح كل الأبواب المغلقة، دروس هنا، خطب هناك، لا يكلفه الأمر سوى تقارير دورية، ورسائل موجهة، لا يهم، المشكلة الوحيدة كانت في هذا الرجل الذي يتعمّد إذلاله، سعل "المقدم" مصطفى" وأمر "حسين" أن يطلب

النادل وهو عاكف على هاتفه، تلعث "حسين"، وهو يشير إلى النادل الذي هُرع إليه، حاملاً دفتره وقلمه، أشار "حسين" نحو "المقدم مصطفى" الذي طلب قهوة سادة، دون أن ينظر إلى أيهما، وهو منكبٌ على هاتفه الجوال.

مرَّ الوقت، والقهوة بردت، دون أن يقربها "مصطفى"، وهو لا يزال مشغولاً بمراقبة هاتفه، وبدأ أنه نسي "حسين" تمامًا، وبعد فترة صمت، سأله "مصطفى" عن أخبار الثورة، واقتحام المقرات، وحرق الملفات قالها ثم ضحك "مصطفى النوري" ضحكة هزت "مول أركان" بالكامل.

سقط رأس "حسين" كالغشي عليه، متحاشياً لفت الانتباه، وثبت نزول مقدمة الكاب، على حافة نظارته السوداء، وهو يلعن "مصطفى النوري" في سرّه، ثم استجمع قواه في عبارة وحيدة، معزولة، مترددة، عاجزة.

إن الثورة مستمرة ضد الفساد والقهر، قاطعه "مصطفى النوري" بصوت كالضحك، بعد أن اقترب برأسه نحوه، وقد بدا أن قلبه يحمل شحنة من وغر، وكومة من غل، سلقه ببذائة لسانه، وسمته بكل عيب، جرعة مسموم كلماته ولئيم نعته، تلقاها "حسين" بوجه عابس وجناح منخفض وصوت مكتوم وغضب خفي، ثم تغيرت لهجة "مصطفى" فجأة، بعد أن ارتشف قدح القهوة البارد، والتقط نفساً عميقاً من سيجارته، ومنحه كلمات رأب بها الصدع ورام أن يداوي الجرح، ذكره

أن ولاء "حسين عبد العاطي" لمصلحته أبقى وأدوم من شعارات وهمية، ولقد كان وما زال وسيظل واحداً من ضمن الفريق، وقد جاء اليوم حاملاً إليه البشرى، تطلع إليه "حسين" في ربيبة، ولكن حسمها "مصطفى النوري" في كلمتين :

- مجلس الشعب.

قالها، ثم أفرج عن ضحكة مكتومة عابثة مدوية، لفتت أنظار الجميع، لم يُدارِ "حسين" وجهه، تلك المرة، بل خلع النظارة السوداء، وتتطلع إلى الأخير، بكل ذهول.
لتبدأ جولة جديدة.

* * *

لم تكن السنوات الخمس السابقة سوى لقطة عابرة، اختزلتها نظرات الاشتياق في عيون الصديقين، لم يتطرقا لسبب هذا الابتعاد، وعدها - دونما اتفاق - غمامة، ومرت، ولكن لم يتح لهما مكتب "أحمد حداد" تبدل الحديث بأريحية، وهو يتقاسمه مع شريكه من المحاسبين، في الإدارة المالية، عرف من "حداد" أنه تزوج ابنة عمه، وله منها ولدان، "حسن" و"معاوية"، عمرهما أربع سنوات وثلاث على الترتيب، وأنها لم تتأقلم على الحياة في "القاهرة"، في شقة "بين السرايات"، وبخاصة مع انشغاله الدائم، سواء في عمله في الشركة، أو كتابة مقالاته، فأثرت أن تظل هناك، في بيتهم في "بورسعيد"، وأسهم

قيام الثورة، ومرض والدته الأخير، في ترسيخ الفكرة، وأصبح يسافر إليهم مساء الخميس، ويعود مع صباح الأحد .

وبعد أن أنهى "كريم" الرشفة الثالثة والأخيرة، من فنجان القهوة الذي أمامه، وقد جاء غالبًا خاليًا من البن، ولكنه كان كفيلاً بمدّه بما يلزم من تركيز النيكوتين، وقف "حداد" مُوجِّهًا كلامه إلى زميله، إنه سوف يستأذن وينصرف مبكرًا، أشارا إليه ألا مشكلة، وأصرَّ أن يصطحب صديقه، ويغادرا الشركة مع رفض "كريم" المتلاحق لترك "حداد" عمله، وأن يكملا حديثهما مساءً في مقهى "فرساي".

لم يسمع ما قاله "كريم"، وعَقَدَ العزم على الرحيل، لَوَّحَ بيديه لأفراد الأمن وأوصاهم بسيارته، عبرا البوابة وما إن بدأ "كريم" يتحرك بسيارته، حتى أشار له "حداد" أن يتوقف.

ظن "كريم" في البداية أنه نسي شيئًا، إلا أن "حداد" لم يعد إلى الشركة، ولكنه نزل من السيارة متجهًا نحو تلك الفتاة الواقفة على جانب الطريق، عُرِفَ فيها بعد أنها:

"داليا جابر"

* * *

تحبه...

فقط لأنه هو...

ومع سنوات عمره التي تخطت الستين، تجده رجلها المفضل،
تعشق الحنان الصامت في عينيه، تحمله دلالها وتمردها، في طيشها
العشريني، رقتها وعنفها، يحتويها مع رحي المعاناة التي تطحنه،
وئدغدغ ما تبقى من حصون مقاومته، مُحاصراً بين ورقات التقويم،
وأعراض البدن، وفراق المحيين.

بعد موت المحيين ربما يلتئم الجرح، ولكن ماذا لو اختفوا، غابوا،
يبقى الجرح مفتوحاً، تزرعه الظنون شوك، ويسقيه الريب ماء أجاًجاً.
هجرهم "سعد"... ولم يعد.

حاولت هي أن تكون البنت والولد، كانت تحدث أباهما بأبجدية
أخيها الغائب، لتكتشف نظرة أبيها التائهة بين المراتفات.
هل هي نظرة إعجاب؟
أم نظرة تمنٍّ؟

أم نظرة حنين إلى لولد الذي غاب؟
لم تعد "داليا جابر" تلك الابنة المدللة التي اتخذت من الكتب،
والمذاكرة، وأسطورة الثانوية العامة، ذريعة كافية لتسقط عنها متلازمة
النشاطات المنزلية، كانت تأمر وكفى، وأحياناً لا تتكبد معاناة السؤال،
فكان الأب والأخ والأخت الكبيرة يلبون أوامرهم، مطوعين، مطواعين.
وكانت هي على قدر الرجاء، لم تقصر أو تفرط، ابيضت وجوههم
بعد إشهار النتيجة، أثمر زرعها مجموعاً كبيراً، ودخلت كلية الصيدلة
بجامعة القاهرة.

وبعد اختفاء أخيها من خمس سنوات تقريبًا، أضيف طلسم غامض لشفرة حياتهم، وباءت محاولات البحث عنه بالفشل، أضاف لهم عمرًا فوق عمر أبيها، وكادت عيناه أن تبيضًا من الحزن، لولا بقية من أمل، دهستها طرقات نقرت الباب المغلق على قلوب الآمنين، الكل أصبح يبحث عن "سعد"، اقتحم الأمن حياتهم، فتشوا عنه تحت الأسرة وبين الفرش وخلف الجدران، أفشوا عذرية ملابسها، أهانوا شيب أبيها، أصروا أنهم يعرفون مكان الإرهابي.

إرهابي!

أخرس اللقبُ صراخ أبيها، جحظت عيناه عن غير تصديق، وذهبوا، وتركوا قلوب سحقته الصدمة، وشيعتها اللعنات، وودعتها نظرات التهديد.

أغلقت بابها عن عيون المتطفلين، ولملمت ملابسها، وكُتبتها، ودموع أبيها، وابتلعت غصة خُلِقَتْ من كل مرار الدنيا، اختفى دلالها تحت رمال القهر المتحركة، انخرطت في دراستها حتى النخاع، امتزجت في دراسة السيوتيكس، والفارماكوجنوزي، والفارماكولوجي، مرت من السنوات الخمس بتقدير امتياز، متجاوزة مضايقات الأمن لها، ولأبيها، بين الفينة والفينة، لم تلتفت لنظرات الإعجاب الذكوري، وهمسات الحقد الأنثوي ذكية، نابهة، لمحة مع الانشغال جميلة، جذابة، لافتة مع الإهمال...

وبين جذب السباق العلمي، وجفاف الظروف الصلبة، يغرس الحب زروعه، في غفلة منها، ومن عقلها، قصة حبّ وليدة، مع معيد الفارما د. "وائل عبد الباقي" -ابن عميد الكلية -سرعان ما تلاشت، بعدما اعترض الأب على رغبة ابنه في الارتباط بابنه عامل في مركز تحاليل، وأخت لإرهابي مطلوب حيّ أو ميتاً، حتى لو كانت هي مَنْ هي.

ولم تكن تلك الصدمة هي الأهم في حياة "داليا جابر"، فقد خبأ لها القدر، الضربة القاصمة، رفضت الكلية تعيينها معيدة لأسباب أمنية، لم تشفع وساطة "د. ياسر بدير" -صاحب معامل التحاليل الشهيرة التي يعمل بها والدها- مع نفوذه وعلاقاته، وارتضت رافعة الرأس أن تعمل بشركة أدوية في مدينة السادس من أكتوبر.

لم تُخفِ "داليا" سخطها على النظام الذي تسبّب في ضياع حلمها، ووجدت نفسها تهتف في "ميدان التحرير": (الشعب يريد إسقاط النظام).

وانضمت وزميلها في الشركة "أحمد حداد"، إلى مجموعة من الشباب في تنظيم ائتلاف شباب الثورة، التابع فكرياً إلى آراء الأيقونة "فاروق الحسيني"، العائد من بلاد الغرب، ينادي بالديموقراطية والعدالة، في بلاد ما وراء المستحيل.

واليوم استقبلت مكالمته خلعت قلبها من أختها الكبرى، حيث تعبّ والدها، وتم نقله إلى مستشفى "الهرم"، خرجت من المصنع

مسرعة، وهي تدعو الله من أعماقها ألا ينهار الجبل، وهو لن يتحمل
جلطة دماغية أخرى، كتلك التي داهمته العام الماضي.

- د. "داليا"!

اندهشت برهة، وانتزعت نفسها من فقاعة الظنون التي أحاطتها،
عندما رأت "أحمد حداد"، علم منها أنها أستاذت هي الأخرى
وانصرفت لأن أباهما يمرُّ بو عكة صحية مفاجئة وتم نقله منذ قليل إلى
مستشفى "الهرم" وأنها ستترجل حتى تجد أي وسيلة تركبها حتى ميدان
"ليلة القدر" ثم بعدها تستقل أي حافلة تقودها إلى "الهرم" عرض
"حداد" توصيلها وأصرَّ ولم تكن إلا لحظات قصيرة، ودلفت الفتاة إلى
المقعد الخلفي للسيارة، وهي تلقي بتحية هامسة، بترها الإحراج من
"كريم" الذي ألقى نحوها لمحة عابرة في المرأة.

كانت تبدو رائعة، ملامحها المتوترة تشي بجمال غامض، تملك عيني
عرافة، تسحبك إلى قلب الدوامة.

لفَّ الصمت ثلاثتهم، بعد تعارف سريع، واعتذار عن التطفل،
وتمتمات الاطمئنان على صحة الوالد، كان الطريق شبه خالٍ في تلك
الساعة من الظهيرة، حتى قبيل مدينة الإنتاج الإعلامي.

ألقت نظرة خاوية على البقعة الأكثر خطورة في مصر الحديثة،
مصنع اتخاذ القرارات، والتأثير على الرأي العام، وتوجيهه حيثما
أرادت، راقبت بعض المتاريس التي تصدرت مداخل المدينة، التي دانت

بالولاء أخيراً لمتطلبات الثورة، بل صارت تدافع عنها، عن رجالها، وشبابها، ومكتسباتها، وتخلت شكلياً عن موالاة النظام السابق، وكفرت نطقاً بكل قناعاتها السابقة، وإن كانت لهجتها الحالية تدعو إلى المهادنة، وتتخذ من كلمتي الاستقرار وعجلة الإنتاج، مرفأً لكل حواراتها التائهة.

"إزاي ترضي لي حببتي".

صوت "محمد منير" يأتي من أختها بنياً يقين، ترد عليها، دقات قلبها توقفت أو كادت، مع نظرات ترقب من "أحمد" و"كريم"، لحظات مرت، اعتقلت فيها عقارب الساعة. لم يفرج عنهم سوى تنهيد آتٍ من صدر حمل الكرة الأرضية فوق ضلوعه، وختمتها بالحمد لله وأنها اقتربت، وما هي إلا دقائق وتكون أمامهم.

- يارب خير!

قالها "أحمد حداد" بنبرة، انسحب منها القلق للتو، أو مأت برأسها إيجاباً فقد كانت غيبوبة سكر أفقدته الوعي، كان أشد ما تخشاه أن تكون جلطة دماغية مثلما حدث من قبل، تكرارها يصعب الأمور، ويزيد حالته الصحية تعقيداً، وهي لا تملك من الدنيا سواه.

- ربنا يطمنك عليه.

قالها "كريم" في المرأة، بنبرة مترددة إلى حد كبير.

ابتسمت أخيراً، وكأنها اكتشفت وجوده للتو، وبدورها استعادت جزءاً من توازنها. واعتذرت منه، وأسفت لإزعاجهما، وعرضت أن تغادر في أقرب مكانٍ وأن يكملا رحلتها، قاطعها "أحمد حداد" بأن ما تقول مرفوض قطعياً وأنه و"كريم" سيتجهان إلى المقهى، لأنه لم يره منذ خمس سنوات فلقد كان هناك في صحراء البترول على ساحل خليج الزيت.

- حمد لله على السلامة.

قالت "داليا".

- الله يسلمك.

ردّ "كريم".

كانت سيارتهم تتخذ أولى خطواتها على الطريق الدائري، عندما اعتدل "أحمد حداد" في جلسته، وعدل من وضع نظارته الطبية، ووجّه كلامه إلى "كريم"، بأن الدكتورة "داليا جابر" بكل ذوقها ورقتها هذه أنها من المرجعيات العلمية في الشركة، واحدة من النشاطات السياسية، كانت تقاتل بشراسة خلال الثانية عشر يوماً من الشرارة الأولى وحتى الرحيل مروراً بجمعة الغضب وموقعة الجمل، لم تغادر الدهشة عيني "كريم"، وهو يتخيل هذا الجمال، في مواجهة البلطجية، والأسلحة القاتلة، وكل ما رآه من فيديوهات، ما أطلق عليها إعلامياً، بموقعة "الجمل"، احمرّ وجهها خجلاً وهمست أنه إطرأ مبالغ فيه من

أستاذها الذي تتأسى به، وتسير موطأ قدمه، ثم قالت إنها نالت صفقة على وجهها لن تنساها، قالتها بسهولة، مع ضحكة قصيرة، كشفت عن غمازات في خديها، اكتشفها "كريم"، وهو يتجاوز سيارة النقل التي تتحرك أمامه، ولم يلحظ الحزن الذي اخترق ملامح "أحمد حداد" وهو يزفر في حلق واضح بأنه يتألم من الصفعة أكثر منها، اقتربت بوجهها في دهشة، إنه يكرر الجملة نفسها بالأسى نفسه، وسألته مازحة: هل يعرف أحد من أصحاب الجمل؟

لم يرد "حداد"، وتبادل نظرة مع "كريم"، لم يفهمها الأخير، لاحظت ارتباكها فأردفت مُحوِّلة دفعة الحوار أنها بعد أن تطمئن على والدها، ويصفو ذهنها، سيحضران معا اجتماعاً الأسبوع القادم المزمع عقده لمناقشة التحضيرات الخاصة بانتخابات مجلس الشعب، سكت "حداد" هنيه لا يجب أن يكون مصدر طاقة سلبية، وبخاصة وهو يتابع الحماسة تلمع في عينيها، وقد فترت عزيمته، وكدحت همته، بعد أن وشت الأيام السابقة بخبث النيات، وزيف المقاصد، وأصبحت الثورة عطية تُمنح، ومطية تُستغل، فالكل يعمل على الأرض ويتنظر نصيبه من الكعكة، بينما أصحاب الثورة الأصليون غرقى في الوفاض، ضالين في المتاهة، لا صف يجمعهم ولا راية.

لاحظت عيني "كريم" تراقبها في المرآة، ارتبكت، ثم استطردت أن الأولى الآن أن يبدأ "فاروق الحسيني" التحرك في كل الاتجاهات بالتوازي، من الإعداد للانتخابات مع الضغط على المجلس العسكري،

والحكومة، لمحاكمة الفلول، ورموز الفساد، والإفراج عن الشباب المعتقلين.

جذبه اسم "فاروق الحسيني" من عينيها، أعاده إلى مربع حياته رقم واحد. لاحظ "حداد" ارتبأكه، وألف سؤال يفر من عينيه، وصلوا إلى مستشفى "الهرم" شكرتهم "داليا"، ومرت من باب السيارة، وعبرت الطريق، وبوابة المستشفى، وأجساد المارين، وساحة الاستقبال، ووجوه الممرضات، لتلقي نفسها بين ذراعيه المتهاككتين، وتركت دموعها فوق صدره.

تائه هو في المسافة بينها وبين "سارة الحسيني"، ألقت تحية مودعة، ولكن لم تختف صورتها عنه، استفز وجودها المؤقت شيئاً ما بداخله، يشعر بحنين غامض إلى رؤيتها في المرأة، يختلس النظر إلى مكانها، على المقعد الخلفي، أدرك عدم وجودها.

- ادخل من شارع سهل حمزة أحسن.

جذبه صوت "أحمد حداد"، ليعبر بالسيارة من شارع "الأهرام"، إلى شارع "فيصل"، سحبه من مس "داليا جابر" إلى شيطان الزحام وفوضى السيارات.

قضوا السهرة جميعاً، على مقهى "فرساي"، هو و "أحمد حداد" و "كالوشا" الذي لحق بهم، وأخرجهم الأخير من كل هموم الدنيا، أمير السعادة، كما لقبه "حداد" من قبل.

صَحِكَ كما لم يفعل من قبل، مكرونة من محل "الانسجام" العتيق
كانت غداءهم، وكبدة وحواشي من "أبو عماد" ليست العشاء الأخير،
وقد تلاها مزيج الكنافة، والبسبوسة، والقشطة، مع الأرز باللبن،
المسماة بالديناميت، نسي بعدها "كريم" كل سنين الغربية، مع رشفات
الشاي المغلي بالنعناع.

وصل إلى البيت في حدود الثانية صباحًا، وهو يدندن بأغنية قديمة
لـ "محمد قنديل"، كان يغنيها "كالوشا" بصوته العذب:

(سحب رمشه، ورد الباب، طويل لأهداب، نسيت اعمل لقلبي
حجاب).

أفلت من صدره تنهيد، ما زالت "سارة" تقتحم خياله، يراها في
وجه القمر، وفي أضواء السيارات، وفي واجهة المحال المغلقة، وكأن
عطرها يحتل زوايا الشارع، ويسكن في منحنياته، وإن داهمته فجأة
غمازات "داليا"، تأتي على استحياء، فتح الباب بهدوء، توقف عند باب
غرفة المكتب المضيئة الخاصة بوالدته، تنحنح في هدوء، وجدها جالسة
خلف مكتبها، ممسكة بصورة قديمة، رفعت رأسها نحوه، اقترب منها،
لاحظ عينيها تحبس دمعتين، ربت على كتفها في تحنانٍ، لاحظ الصورة
التي تضمه معها وأباه، أول مرة يراها هكذا، وقبل أن ينطق بكلمة،
بادرته هي بصوت مزقته الدموع:

- "كريم" ... في حاجة مهمة لازم تعرفها.

لم يشعر إلا بتيار بارد... ويد خفية تعتصر قلبه.

* * *

خطوات تقترب، وتبتعد، أصوات تعلو، وتخفت، صيحات هنا وهناك، تائهة بين زحفٍ وفرٍّ...

جاؤوا، من كل صوبٍ جاؤوا، جرحوا وقتلوا، قالوا كفى... ولم يكتفوا.

صرخوا مرتين، ملؤوا حناجرهم بالضجيج، أسراب متشحة بسواد الجهل، القهر، والصلف في آن، تمسك ببنادق تلعنهم، قررت يوماً أن تقتل... فقط تقتل.

أمي صوت من الماضي، أوامر مطعمة بدانتيل من التحنان، تأمل أن ترى ابنتها أميرة الأميرات، أميرتك يا أمي معتقلة بين الأسوار، تتناثر فوقها زخات الزجاج كسرب ذباب، تقبض بلهاث غاضب، على ذرات من أكسجين، مستخلص من موج الدخان، دفقات الماء تدفعنا، تقذفنا مترين، ونعود، كومة لحم ثائر، رافض، في قلبه وطن، وفي يده علم، وفي عينيه حلم، والحلم بعيد، والقلوب عند حدود الحناجر، والصرخات حيرى، من أي البقاع تنطلق، وبأي الكلمات تهتف:

- "إسعاف!"

صرخة هناك، وصرخة أخرى هنا، عند المتحف، على بعد خطوات مني روح تحتضر، صوت الغضب أعلى من صوت الرصاص،

الأرض عطشى، والدم يسيل، المومياوات تشهق على موت الأحفاد،
بيد الأحفاد.

ويبقى الليل غابة الشكوك، ومأوى المتربصين، والوطن مخطوف
في طريق التيه، الممتد من خليج الزيت وحتى محيط الخيبة.

والدموع هناك، في عيني رجل ستيني، يحمل ملامح "أبي"، أنفاسه
حارة كرمال الصحراء، يشير إليّ أن احذري، ابتعدي، وآخر بملامح
"أخي"، هناك.

- "سعد"!

أناذيه أن أدركني، لا يسمع.

- "سعد"!

يسير في عكس الاتجاه...

جاؤوا، من كل صوب جاؤوا، خيول وجمال، تدق الرهبة
الأسفلت، ولم تحرك في أضعفنا أنملة، مرعى بالجاهلية الأولى، وعصور
ما قبل الإنسان، تهجم بخناجر وعصي ليهرق دم المارقين، الثائرين،
لدفع خطايا الصامتين.

تمطر... تمطر... لتذوب المساحيق عن زيف ممتد كوشم فرعوني.

تمطر... لتسقط أوراق التوت، سترت عورات الفاسدين، وتنزع
عنهم غمّل النفاق، في عصر كان فيه الخنوع حكمة، والبلطجة وطنية،
والخضوع سلام...

ورأيته... ومع الليل، والظلمة، والحشود، وصرخات "أبي".
رأيته... عيناً بلا جفن، كعين بومة. سمعته، سمعت أنفاسه، تعلقو
وتهبط، وكأنها لهاث ذئب، تمكن أخيراً من فريسته، يطلق آخر زفرات
التهديد، ومضة برق خاطفة تشق الظلمة، تكشف عما تبقى من ملامحه.
صرخة مميزة تأتي بآخر نداء استغاثة... و. ويهدأ كل شيء.
أنادي "أخي" الذي اختفى، أبي يقف بيني وبين الذئب، شامخاً
كسنديانة قديمة... يتسم.
المطر يهدأ تماماً، القطرات تسقط عند قدمي، الذئب فَرَّ، وابتسامة
أبي تتلاشى، و...
وددت أن أرتمي بين ذراعيه، احتضنته، بدا هزياً، ضعيفاً، ساكناً،
والنزف يأتي من فوق القلب تماماً، لا أملك إلا أن أصرخ، والصراخ
يأبى أن يغادر فمي، أحاول، وأحاول، لملت ما بقي من قوة،
وصرخت كسفينة غرقى.
- "أبي..."
- "داليا"... "داليا".
صوت "فاطمة" الأخت الكبرى يعبر المسافة بين الكابوس
والواقع.
الكابوس نفسه...

- "كملي نومك يا حبيبتى . بابا الحمد لله بخير".

تحسست "داليا" مكانها، لتثبت أنها على سريرها، وتشاءبت، وهي تتأمل أختها وهي ترتب ملابسها - كعادتها - وهي تقوم بدور الأم البديلة، سألتها عن التوقيت، أجابت "فاطمة" إن الفجر أذن منذ قليل، عليها أن تعود إلى النوم وستوقظها في السادسة لتلحق بحافلة الشركة، عليها أن تغتنم السويقات الباقية، فركت "داليا" عينيها، وهي تحرك رقبته براحتها، وأنها ستقوم لصلاة الفجر قبل غمر الشروق، وأنها حصلت على إجازة اليوم لتذهب هي إلى أولادها وزوجها وستعني هي بوالدها اليوم، همّت "فاطمة" أن تعترض، لولا صوت سعال يأتي من حجرة أبيها، تحركتا إلى داخل غرفة أبيهما، استقبلهما ببسمته المتهالكة، ألقت "داليا" نفسها بين ذراعيه، وجلست "فاطمة" على طرف السرير، تتمم حامدة شاكرة.

همس إلى "داليا":

- عاوز اطلب منك طلب!

- ياه طلب، انت تؤمر يا عم "جبرة"، واحنا ننفذ، اهم حاجة متقولش انا نفسي في الكرشة، والفسه، والحاجات اللي بتهرب هالك "البطة المرتاحة"، بتتك الكبيرة.

قالتها وهي تغمز لـ "فاطمة" التي أحنت رأسها في حرج، وهي تتمم دون أن ترفع رأسها، كلصّ معترف، ضحك "جبرة" في تعب،

ضحكة متقطعة، مزقها السعال، كان كموتور أصابه العطب، هداً سعاله، ويدا ابتيه ترتان عليه في تخنان، واكتسب صوته كثيراً من الجدية عندما أراد أن يتخذ منها موثقاً، أن تبعد عن دنيا السياسة، ومكرها، وكيدها، وخبائثها.

حاولت "داليا" بثّ السكينة في نفسه وأنه ما دامت الثورة كانت الحرية، وأن ابنته بألف رجل مما يعدون، كما يجب أن يسمها، تتم أنه يخشى أن يفقدها كما فقد أخاها، جاء نصف جملته الأخيرة مؤملاً للقلوب الثلاثة، أطرقت رأسها، ثم أردفت في حزم، إنها من أجل "سعد" ستخوض الغمر والضحول لتثبت براءته من كل اتهام، وستكشف عمن طغى وتجبر، ولفق واختلق وافترى عليهم كذباً، ما علاقة "سعد" بتفجيرات "سيناء"، صنعوا منه وهمًا وغولاً ومارداً علقوا عليه خطاياهم.

راقبت حدثها في عيني أبيها، وصمت أختها، تنحنحت لتقطع دابر الحديث، فهي لا تملك التراجع، ولا تخلف عهداً، فقالت وهي تتجه إلى الخارج، متحاشية التقاء عينها وعين أبيها أنها ذاهبة إلى الصلاة قبل دلوك الشمس.

شيّعها نظرات الأب والأخت، وتنهدت الأخيرة في يأس، ثم قامت إلى جهاز التسجيل وأدارت سورة "يوسف" بصوت "الشيخ المشاوي" كما يحب أبوها الذي أغلق عينيه ولم يُعقب.



الفصل الرابع

بدأت أذنانُ الشكِّ تتسلل عبر مسامه، تحترق أسوار اليقين في أعماقه، التقطت أذنه دوي الكلمات في رفض، أسرها في نفسه، ولم يُبديها لـ"داليا جابر" التي جلست على بُعد مقعدين منه، راقب ومضّ علامات الأمل تبرق فوق ملامحها، عجزت سذاجتها الثورية أن تميز بين الخطب الرنانة، والواقع الفعلي.

يؤمن أن رومانسية الثوار، أو الرومانسية الجفارية، ربما تصلح في مرحلة التغيير، والتحول، من نظام إلى آخر، ولكن تبقى مرحلة البناء التي تليها تحتاج أن يتخذ الثوار -أنفسهم- مواقفهم المناسبة، في قاطرة اتخاذ القرار، وإلا سلموا ثورتهم طواعية، إلى رهط المستفيدين والمتنفعين.

التهبت الأيدي بالتصفيق، بعد أن أنهى المحامي الشهير كلمته، وراح يكررها ثلاثاً:

"عيش. حرية. عدالة اجتماعية".

يعرفه "حداد" جيداً، معارضاً قديماً، أو هكذا يزعم، ضد كل الأنظمة، يجاهر بمحاربة الفساد، وهو لا يدافع الا عن القتلة والقوادين

وتجار المخدرات، ينادي بالعدالة الاجتماعية، وهو من فضحته مطلقته،
وأفشت حجم ثروته التي تجاوزت الخمسين مليوناً، يصرخ أن النظام
السابق دبر له، والله خير الحافظين، وتراه في المناسبات غير الرسمية، لا
يأكل سوى على طاولاتهم.

أيا حمرة الخجل، رحلت... رحلت مع دماء الطاهرين!
ابتسامته غدر مبین، حنجرته صراخ جنية، سفينته تغادر مرفأها،
تلقي ماضيها عند الشاطئ، الماضي الذي عربد فيه، بصحبة من يهاجمهم
اليوم.

وتحولت الكلمة في هذه الأثناء إلى إحدى المؤسّسات لجمعية من
جمعيات العمل المدني، امرأة ستينية تنادي بتمكين الشباب، وهي المتربعة
على كرسي رئاسة الجمعية، من أكثر من خمسة عشر عاماً، وتأبى أن
تتركه لأحد.

ويأتي مسك الختام، رئيس الحزب الجديد الذي ظهر فجأة من قلب
المجهول، لا أحد يدري تاريخه السياسي، ولا حتى تاريخه الاجتماعي،
ولا كيف أنجز الموافقات اللازمة لإنشاء الحزب بهذه السرعة!
غريب، دخیل، اخترق زمريهم. جذبهم بوجوده الطاعني، وبرعايته
المادية لمعظم الاجتماعات...

تململ "أحمد حداد" في جلسته، شعر بدنو مستوى الأكسجين،
وارتفاع داخلي في درجة الحرارة، مع البرودة الصادرة عن أجهزة

التكليف التي تمتلئ بها القاعة الفاخرة، القابعة على أطراف "مدينة نصر".

فك رابطة عنقه قليلاً، ليجد متسعاً للهواء، يملأ به صدره، ويتخلص من بقية الأنفاس المزيقة، الملوثة لرتتيه.

سأل نفسه: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ ثمانية شهور كاملة منذ مغادرة الميدان، واكتملت الصورة في ذهنه، تكوّنت ملامحها في عينيه، لقد تم استعمال الحلم. يشعر بالمصيدة التي وقع فيها كغُرٍّ، مفردات الخديعة تكون جُملاً مفيدة، آله شهقات الثورة، في "البالون"، و"ماسبيرو"، و"مديرية أمن الجيزة"... وغيرها من الأحداث، والثورة موءودة بين الدولة العميقة والدولة السطحية، تصرخ بأي ذنب قُتلت!

ساعتان... ينقل بصره بين كلمات المتحولين، والمتلونين، ومصاصي الدماء، ولمحات الهائمين، والحالمين، ومتصيدي الآمال. رأى الفريسة تصفق للصيد، تمدح حيله، وهي تقع في شباكه، تترنّج في لذة، من سكرة الخدر الأخيرة.

الصيد يحمل ملامح "روبسيير"، نصير الديموقراطية، ورائد الإصلاح، صاحب الخطب الرنانة، وصاحب آلاف الضحايا التي حملته يوماً ما على الأعناق... أيام قليلة، ويصبحون كلهم "روبسيير"، ولن يبقى من ضحاياهم، ولا "باراس" واحد، يأخذ بثأر المخدوعين...

- "أستاذ أحمد...إنت كويس؟ في حاجة".

صوتها ما زال يشي بالأمل، ليس من العدل وأده، ولكن ليس من العدل أيضًا أن تبقى مُغَيَّبة، في عالم أصبحت المسافة فيه بين المنطق والواقع، أكبر من طريق درب التبانة ...

هي وأمثالها الذين حلموا أن يكون واقعهم يتماشى مع أحلامهم، حلمهم أن تتراجع "مصر" أربعة آلاف سنة، لتقود العالم من جديد، تعود أم الدنيا، تعود خزائن الأرض، أرض العلماء، وملاذ الخائفين. يسمع "ويل ديو رانت" في قصة الحضارة يقول عن المجد الذي كان:

(المصريون هم أمريكيو هذا الزمان).

يبحثون في زمنهم عن الحلم المستحيل ...

وتبقى هي...

"داليا جابر".. حلمه المستحيل.

شهاب ثقب غلافه الجوي، اقتحم مداره، أضاء ظلمة سردابه، عن غير قصد، فضح ستر مشاعره، مشاعره التي عبّدت آلات التفكير الثقيلة، حتى التصقت بجدار القلب، واختفت، أو كادت، دعاها للانصراف، تبعته إلى مريض السيارات على مضضٍ، فهي لم تكتف من الخطابات الثورية، طمعت في معرفة خطة تجمع الأحزاب، لمواجهة

التيارات الأخرى التي اكتسبت أراضي كبيرة، استعدادًا للانتخابات البرلمانية، وإن شعرت بتهميش -غير متعمّد- لتيارات الشباب، أصحاب الثورة الحقيقيين.

كانت سيارة "أحمد حداد" مميزة بطرازها القديم، ولوحاتها التي تحمل "ملاكي بورسعيد"، لمحت من بين صفوف السيارات المترصة أحد الوجوه المميزة لفتاة وهي تستقل سيارة فاخرة، وقفت تحدج، وترنو، وتتفرس ملاحها، وهي تحدث نفسها:

- أهى هي؟

بادرها "أحمد حداد"، وهو يسبقها لباب السيارة، وكأنه أدرك ما يدور بخلدها، تبعته إلى داخل السيارة، وتركت رأسها خارجها، تتابع السيارة الفاخرة التي انطلقت منذ قليل، وما زالت الدهشة لم تبرح عيني "داليا"، الفتاة نفسها كانت تقابلها في الميدان، وكانت تركب معها حافلة "الهرم" (الميكروباص)، وكانت ترتدي الرداء نفسه، ضحك "حداد" ضحكة ساخرة، صاحبت دوران المحرك، وتعجب من الغريزة الأنثوية حتى في أكثر المواقف هلاكًا، لقد كانوا على شفا حفرة من موت مُحَقَّقٍ ولم يفتُهم هذه الملاحظات عن لون الرداء وربما خامة الخذاء أو طريقة لفّ الحجاب، أطرقت رأسها في خجل، وخفضت صوتها أن مواجهة الموت نكرة أما ملاحظات تاء التأنيث نكرة أخرى، اتخذ صوته منحنيًا جدًّا، وهو يقاوم دقة قلب استثنائية وسألها: هل قرأت كتاب قصة مدينتين؟

- ده تشارلز ديكنز!

- أيوه.

- عن الثورة الفرنسية!

- تمام.

اعتدلت وهي تتابع:

- بصراحة... لا.

أكملت الإجابة بضحكة بريئة، وابتسم هو في وقار:

- الكتاب عندي هبعثوك.

- تسلم يا أستاذنا.

اختارت أن تكون تلميذة، تقصد قصده، وتسلك دربه، وتتخذة إمامًا، ولم يختر هو دور المعلم، يحسدها لأنها كائن له القدرة على الاختيار، حتى لو مرة وحيدة.

ازدحت السيارات في طريق "صلاح سالم"، مجموعة منها تطلق النفير المميز لمسيرة زفاف، يندم لأنه سلب قلبه حق الاختيار، حتى عندما قرّر أن يخطو خطواته الوحيدة نحو الزواج، لم يستشّر قلبه في اختياره، عقله فقط كان صاحب الحق...

وارتبط بـ "حنان"، ابنة عمه، يعلم أنها جميلة، وتحبّه منذ الصغر، في زيارته المُجدولة إلى المدينة الباسلة، - "بورسعيد" - المدينة التي

حضنت طفولته، حتى أتت اللحظة التي غيرت حياته، ورأى "القاهرة" أول مرة، في زيارة إلى عمته التي تعمل في "جامعة القاهرة"، وزوجها مدير أحد قصور الثقافة، تذكر انبهاره بكل شيء، ومع وجود البحر والقناة هناك في "بورسعيد"، لكن لنيل "القاهرة" سحرًا مثيرًا، بالإضافة إلى صخب الحياة، زار معهما جامع "السلطان حسن"، و"خان الخليلي"، و"الحسين"، و"السيدة زينب"، و"شارع المعز لدين الله"، جَذَبَهُ جمال "القلعة" وسور "مجرى العيون"، خطفه التحنان الذي وجدته في عيني عمته العاقر، وزوجها الذي أحبه، وناداه فيما بعد: "أبي".

وبعد إلحاح عمته المتوالي على أذن أخيها، ومكانتها عنده، رفق الأخير بحالها، قرَّر الأب نقل ابنه إلى جوار عمته بالقاهرة، والاكتفاء بالأولاد الثلاثة، والبنت الوحيدة، ومع دموع الأم الراضية، إلا أنها خضعت لتوسلات العمّة، على أن يزورها ابنها أسبوعيًا، ويقضي معهم أكبر فترة ممكنة في الإجازات.

وعاش "أحمد حداد" في "بين السرايات"، متنقلًا بين مكتبة زوج العمّة، وحكاياته، زرع فيه حب القراءة، والسباحة في بحر المعرفة.

وظلَّ "أحمد حداد" وفيًّا لهما، في الحياة، وبعد الممات، بقيَ في الشقة التي تربّى فيها، بعد أن غيَّرت العمّة عقدها، ونقلت له ملكيتها، يتذكر آخر كلماتها:

- إنت عارف يا "أحمد"، أنا عملت معاك زي ما عملت عمّة
سيدنا "يوسف"، بس الفرق إن أبوك وافق، من غير ما أقول إنك
سرقتنى!

ضحك وبكى رغما منه، فقد كانت قارة تحنان، يعيش فيها كـ
"روبنسون كروزو"، أوصته بالزواج بـ "حنان"، ابنة أخيها؛ "حنان"،
الزوجة التي لها حظٌ وفير من اسمها، كانت وستظلّ واحة خضراء في
صحرائه، لا تخرج من "بورسعيد"، ويحسبها لن تفعل، حاول أن يجذبها
إلى مركز الكون - "القاهرة" - وفشل، لم يرق لها صخبها، آثرت أن تبقى
في دفء البيت الكبير، ترعى أباه وأمه، وتنتظره في نهاية الأسبوع، لم
تبخل عليه بمشاعرها، وحنانها، لم تشتك قط ...

يحبها... ذلك الحب الذي تعريفه خليط المودة والرحمة والتقدير؛ أما
ما يشعر به نحو "داليا"، هو إحساس مختلف، إحساس يحار هو في
تعريفه، يشعر معها وكأنه استقبل رصاصة طائشة، وقد استبدل تأثير
المفاجأة بألم الإصابة، بريق سنا فجأة، وظلّ أثره في غياهب القلب، في
مكان لا يراه أحد.

وبقيَ وحيداً، وعذابه الخفي الذي يمتدُّ في المسافة بين عينيها،
وصحراء قلبه ...

انتزعته من أفكاره، عندما سألته عن صديقه الذي أوصلها تتذكر
أن اسمه "كريم"، عاد من أرض المعاناة، ردّ في ثبات وهو يصعد
كوبري "السيدة عائشة" الذي يعاني بدوره، نعم "كريم صديقي"،
١٣٢

صُعِقَ كَمَنْ تَذَكَّرَ أَمْرًا مَنَسِيًّا، لَقَدْ ذَهَبَ إِلَى اجْتِمَاعٍ لَا يَنْتَظِرُ مِنْهُ رَشْدًا، وَلَا يَجِدُ فِي سَبِيلِهِ هَدًى، وَتَرَكَ صَدِيقَهُ الَّذِي عَلِمَ بِمَوْتِ أَبِيهِ، تَنَهَّدَ فِي قُوَّةٍ، وَهُوَ يَبْصُرُ الْمَقَابِرَ الَّتِي لَمْ يُخَفِّهَا سَوْرٌ "مَجْرَى الْعْيُونِ".

- البقاء لله وحده.

رددتها في أَسَى، ثم رددت متسائلة:

- عرف إن والده تُوفِّيَ... هما كانوا مخبيين عليه؟

- لا ده حكاية طويلة!

قالها، وقد أيقنت من نبرة صوته أنه لا يريد أن يسترسل، ربما هناك سرٌّ لا يملك أن يبوح به... مرت دقائق من الصمت قبل أن تعرض أن تعزيه، لم يرد "حداد" فقط... تساؤل في عينيه، جعلها تستطرد في تلعثم أنها أرادت أن تواسيه بعد أن أسدى لها معروفًا عندما أوصلها، أو ما "حداد" برأسه إيجابًا وأملًا رقم "كريم".

تجاوزت السيارة نهر النيل، عند كوبري "عباس"، الفاصل بين "منيل الروضة" و"ميدان الجيزة"، أستاذته لتنزل على مشارف شارع "مراد"، ودَّعته ملوحة، وترجلت في الشارع، وهي تستقبل "صيدلية بليغ" عن يمينها، ألقت التحية على من فيها، مع وعد بقاء قريب، لقد كانت تعمل هنا يومًا ما، ترجلت على قرميد الشارع، تأملت وجوه الناس المتعبة، أرهقتهم الأحداث، في البداية، استقبلوا الثورة في حذر، ثم تعاطفوا معها، ثم فرحوا بها، والآن زال الفرح، وحلَّ في القلب

الانقباض، وتحول التعاطف إلى تذُّر ظاهر، حركته الآلة الإعلامية التي عمدت إلى تشويه الثوار، وتصويرهم كالأبالسة، أو أشدَّ شراً.

"أحمد حداد" يرى أن الثوار، وبخاصة أولئك الذين أدمنوا الظهور الإعلامي، متورطون في تصدير هذه الصورة.

"كريم"!

تذكرت رقمه الذي طلبته من "حداد"، أرادت أن تردَّ الجميل، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان، أخرجت هاتفها، رأت الرقم الذي لم يُحفظ بعد، قررت فجأة أن تلغيه، ولكن، اتصلت بالرقم، ولم تكن سوى لحظات، وجاءها الردُّ بـ "ألو".

* * *

لم يعد له سوى الليل والصمت، جلس وحيداً، شعر بآلاف العيون تبرق على جدران الحجرة المظلمة، وثمة تيار بارد يتسلل من مكان ما، ربما من نافذة نصف مغلقة، يدخل مع تيار أنفاسه المتقاربة، ليعانق أعماقاً ملتهبة، لافاً من الصراع، تحرقه، دانتيل من الحزن، والشماتة، والندم، والقهر، والتوجس، تبث الذعر في خلاياه.

رحل "عبد الحميد صدقي".

رَحَلَ بعيداً عنه، كما عاش بعيداً عنه، مات خارج حدود حياته، الحياة التي أطلَّ فيها برتبة ضيف شرف، أب وقف بعد حدود اسمه، ملتجئاً به في الأوراق الرسمية.

رَحَلَ "عبد الحميد صدقي".

حسبه أن مات وحيداً، لم يتصدر ولده جنازته، يكفيه هذا.
أدرك من فوره أن حُمى الشهامة غلبت في جوفه برد الفراق.
ولكنه أبوه ...

تمنى اقترابه، تقاربه، معرفة سبب بعده، لماذا فصل تلك الوشيحة
التي تربطه به؟ لماذا تركه يعاني اليتيم وهو على قيد الحياة؟ كثيراً ما احتاج
إلى وجوده، احتاج الأب الذي يرشد، ويقنن، ويناقش، ويعدل،
ويعاقب، حتى لو تطور الخلاف بينه وبين الأم إلى حَدِّ الطلاق، فهو
شرع الله وشريعته، حق كفله لهما، ولكن بأي شرع تركه، وهو أشد ما
يكون بالاحتماء به.

أفعى مسحورة تتسكع بين خلاياه، تبثُّ سماً، محمومًا، صامتًا،
يفتك بذكرياته وأفكاره، ومشاعره.

تمنى لحظات بين ذراعي أبيه، يفتح معه خزائن الأسرار لكليهما،
يفتش في قلبه عنه، وعن أمه، يعرف أن طلسماً ما في تلك العلاقة، سرٌّ
خفياً فرَّقَ الجمعين، رأى في عينيها مرات أنها ما زالت تحبه، ترتبك
لذكر اسمه، رأى الحزن يقفز من عينيها، بعدما جاءها الخبر، وكأنه مات
بين أحضانها، وليس في أحضان امرأة أخرى.

المرأة الأخرى... يتذكر كيف كانت ترنو إليه اليوم، بعد إتمام
الإجراءات الخاصة بإعلان الوراثة، لم تنبس ببنت شفة، وتولى المحامي

الثرثار دفعة الكلام، لم يسمع منه سوى القليل، حيث تاه ذهنه في هذه السيدة التي بدا عليها الإرهاق والحزن، كانت تتنفس بصعوبة، شعر بكثير من الشفقة تجاهها، ولكن أحس بسور من الرخام يفصل بينه وبينها، يدرك أنه لا ذنب لها، في تلك الفوضى، ربما شعر أنها احتلت مكان أمه، وربما حسدها لأنها قضت أطول فترة مع أبيه الراحل... ربما. وفي انتظار المحامي كان يشغل نفسه ببعض المكالمات التليفونية، كي يتحاشى تبادل الحوار معها، لا توجد أرض مشتركة بينهما، سوى ذكرى الأب، وهو لا يحمل من تلك الذكرى إلا ألماً وحسرة، ويتجنب الخوض فيها.

لاحظ بعد أن جلس مواجهًا لها على طاولة كافيتريا الشهر العقاري، أنها فوق سواد ردائها، ترتدي سلسلة تحمل صورة أبيه، يراه مبتسمًا أول مرة، لم يسمع صوت محدثه بالهاتف المحمول، ركز في عيني أبيه، رآه يغادر الإطار، يتضخم، يدنو منه، يحتويه...
- كله تمام.

عاد أبوه إلى إطار الصورة، بعد أن سمع المحامي يخاطبها، وقفت تستعدُّ للرحيل، ودعته بنظرة مبهمّة، مترددة، وكأنها تكتنز كلامًا، تبعته المحامي بخطى ثقيلة، أنهى مكالمته بدون كلام، ملم متعلقات من فوق الطاولة، ورأى مجموعة من المفاتيح، لا تخصّه، تنتهي بميدالية ذهبية اللون، ملتصقة بصورة صغيرة لأبيه، مع طفلة صغيرة، عرف اسمها من الأوراق:

"مريم".

"مريم عبد الحميد صدقي".

لم تمر ثوانٍ، حتى عاد المحامي وحيداً معتذراً فلقد نسيت السيدة "سناء" سلسلة المفاتيح، أطرق "كريم" رأسه متفهماً قبل أن يستدير إليه المحامي والتمس أن يحتفظ برقم هاتفه ربما احتاجه في بعض الإجراءات، لم يعترض "كريم".

صوت هاتفه يقطع هدأة الليل، لم تكن تجاوزت التاسعة، ولكنها تبدو وكأنها منتصف الليل، هكذا ليل الشتاء يأتي ربما بعد العصر، يظنه "كالوشا"، لا حاجة له اليوم بالحديث، إلى أي إنسان، حتى أمه التي على بعد خطوتين، أمسك الهاتف ليرد على صديقه، فهو يعرف أنه لن يتوقف عن الاتصال، الهاتف يأتي برقم غير مسجل:

-ألو...

انتظر حتى آتاه آخر صوتٍ يتوقعه... "داليا جابر"

* * *

أغلق "دويدار" أبواب القلعة، بعد آخر سيارة عبرتها، هبَّ بعدها إثر إشارة مميزة من "سيد برج"، معناها إحضار العشاء، المطلوب مسبقاً، بعد أن أعد كل متطلبات الليلة التي ضُمَّت الوجوه المعتادة نفسها، الحاج "مسعد الصاوي"، الأستاذ "فايز"، و"ثروت بيه"، بالإضافة إلى المعلم "برج"، وتابعيه "موكشة وجليمو"، كلهم باستثناء

هذا الرجل المائل للطول، صاحب الابتسامة الهادئة، والذقن المهذب، ما إن وقعت عينه عليه حتى تعرفه، يعرف أنه رآه في مكان ما، أين؟ متى، لا يتذكر.

بدووا في تناول العشاء، الحاج "مسعد" يبدو شاردًا، فاقداً لشهيته المعتادة، ولكنه بقي هادئًا واجمًا بعض الشيء، يكتز فدانًا من القلق في زمامه، على عكس "فايز" الذي فضحته لغة جسده، وأظهرته متوترًا، مرتعشًا، يعصّ شفته السفلى، بينما ظل الضيف رزينًا، رائقًا، يتبادل الحوار مع "ثروت بيه" الذي لاح مستمتعًا، مستأنسًا لحديث الضيف، معجبًا ببلاغته، وثقافته، وكانت الجاذبية، والكاريزما إحدى سمات "حسين عبد العاطي".

ومع تركيزه الكامل مع حديث "ثروت بيه"، كان يراقب بين الفينة والفينة أعين "مسعد" و"فايز"، ويقرأ بحدسه ما يدور في خلدتهما الآن، فالحاج "مسعد" ما زال يراه ابن "عبد العاطي" اللحد، حفار القبور، الذي كان يعطف عليه هو، وأبيه، وساعده كي يتم تعليمه في "جامعة الأزهر"، من باب الوجاهة الاجتماعية، الصبي الذي خرج من تحت عباءته، ويستعد ليرتدي العباءة نفسها بعد أن خلعه عنها ...

عضوية مجلس الشعب ...

عن الدائرة نفسها، على المقعد نفسه، المقعد الذي كان معدًا لغيره، الجالس على بعد ظفرين، فاقد السيطرة على مشاعره، وانفعالاته، وقد

تهتك ستره، بانت عورة غيرته، وكشفت عيناه عن أعماق مكنزة حسداً
وكرهاً.

كان أهون على "فايز النخيلي" أن تُنتزع منه زوجته "سماح
عبد المعز"، على أن ينتزع منه حلمه الذي يراوده، طوال عمره، وكان
منه قاب قوسين أو أدنى، لولا قيام الثورة...
آه...الثورة...

تذوق حروفها "حسين" باشتهاء، إنها التميمة التي حققت له كل
أحلامه، بنك الحظ الذي توجه ملكاً، لا يحظى إلا بلحظات الانتصار،
يستفيد بمواطن قوته -وما أكثرها- حتى نقاط ضعفه، طوعاً أخيراً لما
يريد، وأذنت أن تتحول إلى نقاط قوة، بعد أن قطعوا عهد المساندة
الأمنية حتى لو كانت بطريقة غير مباشرة واتخذ منهم موثقاً.

والآن هو يلبي دعوة "ثروت بيه" لنيل الدعم المباشر من أكبر
العائلات في الدائرة، وعضوها السابق.

لا يعلم "ثروت الجميعي" ما يدور في القلوب والأذهان وأن هذه
الصلة التي ظن أنها تجمعهم، لا تجمعهم، ربما تبقى عائناً متراساً في نهر
النفع المتدفق، أكثر منها دافعاً لفيضه، ولكن في النهاية لا تبقى سوى
لغة المصلحة، المصلحة التي جمعت "تشرشل" و"ستالين" يوماً ما،
تجمع اليوم أصدقاء الأمس وأعداء اليوم ومتحالفني الغد.

هكذا "حسين عبد العاطي" يأبى أن يترك شيئاً للمصادفة، الانتخابات على بعد رمية حجر، وبعدما حظي بدعم حزبه وتأييده، والدعاية المجانية التي ينالها من البرامج التلفزيونية، والدعم الأمني المنتظر، ودّ لو حصل على دعم أصوات الدائرة التي كانت تذهب تلقائياً إلى مرشحي الحزب الحاكم سابقاً، والتي كانت مرشحة لتجاهل الانتخابات ...

لا يعتقد في مجانية أي شيء، الدعم مقابل المنفعة، يريد الدعم لأنه قادر على تسديد الفواتير، وهو قادر على ذلك.

أخذ يشرح لـ "ثروت الجميعي" أنه يتبنى الحرب على الليبراليين لفضح زيفهم، بعد أن لفظهم الشارع في استفتاء "مارس"، حشدوا، حزبوا، ولما جاءت النتيجة عكس إرادتهم قالوا إنه شعب يعيش الجاهلية، لهذا أخفقوا بدرجة (امتياز) في استمالة جماهير الأمة نحو مشاريعهم الحضارية أو برامجهم التنموية - كما يدعون - وشواهد الإخفاق حاضرة مع الاختبارات الأولى لهم، فالذي ينادي بـ (الديمقراطية) ثم ينقلب عليها لأن صناديق الانتخابات (لفظته)، حتى أنّهم شعبه بالجهل وعدم النضج. كيف يكون ديمقراطياً أصلاً؟!

- كل يا "حسين" قصدي أ. "حسين".

قالها الحاج "مسعد" وكأنها خرجت من رئة متحجرة، استقبلها "حسين" بقطع ورك من الديك الرومي الذي يتوسط الصينية، ردّها حسين ببساطة ساخرة وأنه لم يخجل منه يوماً ما، يحسبه كوالده تماماً،

ومهما يُنعم الله عليه ويرفع قدره ويعز قيمته لن ينسى فضل الحاج
"مسعد" الذي ما رُجي فخيَّب ولا عاهدَ ونكثَ ولا دُعي فخذل.

شعر أنه سد قصبته الهوائية، وسعل الحاج "مسعد" بشدة وأحمر
وجهه الأبيض المتغضن، شعر بسخرية "حسين" وأنه يظهر عكس ما
يظن، لثيم الظفر والقدرة، دنيء التمكن والافتدار، ناوله "فايز" كوبًا
من الماء وعينيه لم تبرح "حسين".

كانت لحظة انتقام استثنائية، نظراته اللاذعة، ولمحاته الهازئة،
وضحكاته الساخرة، فار لها سعيهم، سيعالج كل شيء فيما بعد، يعرف
أنهم في حاجة إليه، ولا حيلة لهم، وتأثير "ثروت بيك" عليهم متعاطف،
يعرف أنهم سوف يتناسون تلميحاته، سيهددهم شيطانهم إلى هذا، ما دام
واقفا على لقائه منذ البداية، فهي علامة قبول أي شيء منه، كما يقولون
بلغة الدعاية: إشارة بالشراء.

فعندما تتخاطب المصالح فلا مانع من كسر الكبرياء، الحاج
"مسعد" و"فايز" من الذين يشرون أنفسهم ابتغاء المنفعة.

- "برج"!

بصوت حاول أن يبدو صارمًا نطق "فايز"، أراد أن ينتزع نفسه من
عيني "حسين" الساخرتين، وظهر "سيد برج" بقامته الفارعة كمسلة،
وملامحه الجامدة، ونظراته الثاقبة، وبَّخه "فايز" لتأخر المطلوب من
الشراب والنارجيلة.

بَكَّته "فايز" بعصبية مُبالغ فيها، توقف بعدها، متحاشياً نظرات "برج" الخاوية، الحارقة، الحارقة، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

فقاعة من الصمت تلفهم، وكأنهم سجنوا في كهف مهجور، لم يتحرك "برج" وتحولت عيناه إلى بركتي دم، نظر "مسعد" إلى "فايز" في لوم، واحتفظ "حسين" بابتسامته الظافرة الغالبة على أمرهم، لقد تمكَّن منهم، فقد لاح البرق فهنيئاً له بالمطر.

اقترب "موكشة" و"جلمبو" من المجلس حاملين أطباقاً من الفاكهة، وصينية عليها إبريق من الشاي، مع بعض الأكواب الزجاجية، بينما مرر "دويدار" على كلٍّ منهم نوع الشيشة المفضل لديه.

توقَّف "موكشة" متأملاً ملامح "حسين عبد العاطي" الذي تذكره، استبدل "حسين" ابتسامته بتوتره، متجاوزاً عيني الفتى المحدقتين فيه بإمعان، يذكره بأسود لياليه.

بينما حاول "ثروت" تجاوز الموقف، ورأب الصدع، فمدح لـ "برج" جهده في استضافتهم فلقد كان طعاماً شهياً، قالها "ثروت بيه" وهو يقوم مستنداً على ذراع "برج" الذي لم يحول عينيه عن "فايز"، بينما نظر "حسين" في ساعته الرولكس، مقطّباً جبينه، كمن داهمه الوقت، التقطها الحاج "مسعد" في ضيق، ولكنه أردف، أن وقت مناقشة العمل قد حان، ولا مزيد من هدر الساعات.

وافقه "حسين"، وكانت مشاركة "فايز" محدودة، فقلبه مربوط بحجر، وحنجرته محشوه بحنق، كان على حافة الهاوية، يسقط بيد صديقه القديم، رآه ينتزع الحلم من عينيه قسراً، ويعيش فيه بدلاً منه.

انضم "ثروت بيه" بعد دقائق قضاها في مواساة غير مباشرة لـ "برج" الذي لم يُبدِ شيئاً كالعادة.

ظلوا قرابة الساعتين، اتفقوا على كل الترتيبات سواء كانت في الانتخابات، أو وعود ما يليها.

خرج "حسين عبد العاطي" بسيارته من البوابة، متجاهلاً يد "دويدار" الملوّحة في حرارة، ونظرات "موكشة" المتابعة، رماهم خلف ظهره، وفي قلبه أهازيج الفرح، وارتسم فوق عينيه قوس النصر، وبقيَ ليلته مستيقظاً يحلم بأولى خطاباتهِ تحت القبة.

في تلك اللحظة ومضت ذكرى خافتة في رأس "موكشة"، كادت الحبوب، وأبخرة نباتات حدائق الشيطان، ومشروبات ما بعد الكحولية، أن تمحوها، ولم يُوقظها سوى إصراره الشخصي على استعادة هذا الوجه، من كهفه المهجور، وعندما داهمته تلك الذكرى، لم تهدأ نفسه، إلا وهو يلقيها في مُحيا معلمه، جامد الملامح، وأعجبه أن اتسعت دائرة الدهشة في عينين لم تلمعا قط، برقتا ككرتي لهبٍ.

بينما أفلت "فايز" من عيني "برج"، وغادر مبكراً قبل أن يغادر الحاج "مسعد"، على خلاف العادة، صعد إلى شقته يصارع أفكاره المضطربة، سمع صوت زخات المياه تأتي من الحمام، ألقى نفسه فوق أقرب كرسي، بعد أن ألقى مفاتيحه على منضدة الصالون الرخامية، أمسك هاتف زوجته، قلب فيه -كالاعتاد- في فضول، وكاد أن يتركه، لولا أنه وجد رسالة من "نهي"، كان محتواها لا يشي إلا بصراع قادم.

نعم ... لقد عاد "كريم صدقي".

أحرق الرسالة ما تبقى من قلبه، وكاد يفتح باب الحمام على زوجته، ولكنه تراجع، فالرسالة لا تدينها في شيء.

خرجت "سماح" من الحمام، وهي تدندن في غنجٍ ودلالٍ:

(القلب ما يريد والله... والعين وما تشوف... وغلوتك بتزيد قلبي...).

تتم في ضيق، لا تغني لـ "سميرة سعيد" إلا وهي في قمة السعادة، خرجت من الحمام، فزعت لرؤيته فلم تعتد أن يأتي مبكرًا حتى لو كانت قد تجاوزت الثانية عشرة، نظر لها في وكهٍ وسألها سؤاله المعتاد: هل ما زالت تحبه؟ كادت أن تجيبه أنها ما أحبته قط، وما فترت مشاعرها تجاهه، تقصد البغضاء والشحناء، لم تنطق وإنما تركته يزفر تغيطًا وهو يفور، التقطت هاتفها من أمامه، ودخلت إلى حجرة ابنها النائم، قبلته وشددت تدفئته، وعادت إلى غرفتها، وهي تدهن على يدها نوعًا من كريم الجلد المستورد.

أغمضت عينيها، ولم تتم، عادت أكثر من خمس سنوات كاملة، إلى كل الذكريات التي عاشتها، والموجودة حصرًا باسم "كريم"، رقص قلبها عندما عرفت أنه عاد إلى "مصر"، لم تشعر بذلك الكائن الراقص بجوارها، ممزق الأحلام، ويصب اللعنة على الجميع، "حسين"، و"كريم"، و"برج"، والثورة، وكل شيء، وهي، نعم هي، "سماح عبد المعز"، ربما كانت في المقدمة.

وكأنه كائن خرافي، مُمدد فوق العشب، تائه من بلاد العماليق،
مهيبًا، جامد الملامح، رأسه الأصلع كرة من حديد تتوسّد وسادة من
القطن.

تأمله "دويدار" صامتًا، ساكنًا كشجرة، ملقيًا المزيد من قطع
الخشب على النار الموقدة التي انعكست أنوارها الصفراء والحمراء على
وجه "برج" مغمض العينين، تحيله إلى كدس جمر مُستعر، ليزداد
"دويدار" منه رهبة ومهابة، أول مرة يراه هكذا، بقي معه وحيدًا بعد أن
أمر "موكشة" و"جلمبو" بالرحيل، انحنى متردد الكلمات:

- أي خدمة ثانية يا معلم "برج"!

لم يرد عليه، ولم يفتح عينيه، فقط رَقَدَ على ظهره، عاقداً ذراعيه أمام
صدره، كفرعون في مقبرته.

لم يدرِ "دويدار" ماذا يفعل، هل ينتظر أم يذهب كي يغفو ساعتين
قبل صلاة الفجر؟ لا يدري! ولكن أتنه الإجابة من الفرعون الراقد،
على هيئة إشارة من يده، تعني: انصرف.

لم يسمع "سيد برج" طقطقة النار التي بجواره، واكتفى بناره وقد
انشقت من فوهة بركان، لبث خامدًا في أعماقه، كان يدرك تمامًا أنه يوم
موعود، رآها في عيني "فايز"، لمسها في أنفاسه.

"سيد برج" الملك المتوّج على العالم السفلي في مصر، الخفاش القائد
لفزاعي الطير، الربان الخفي للسفينة المبحرة رغم العطب، الرقم

الصحيح في الانتخابات بأنواعها الرئاسية، والبرلمانية، والمحليات، حتى اتحادات الطلبة في الكليات، مرورًا بنفوذ طاغ في عالم الأراضي، ووضع اليد، انتهاء بترتيب التواصل مع عالم الفوضى الذي يضم المجرمين، والقوادين، وحتى المتسولين، فالوشائج بينها وبين دنيا النظام لا بد من أن تبقى حاضرة، فالسيطرة تبدأ دائمًا بالمعرفة، والحكمة تقول لا يكفي أن تغمض عينيك كي يختفي عدوك، ولن تستطيع أن تدير ما لا تملك قياسه.

و"برج" هو العين، والميزان، وهمزة الوصل... لم يكن مرشدًا قط، ولن يكون أبدًا، فهو نقطة تماس بين العالمين يحظى منهما بالاحترام، مما حفظ له مكانته بينهما، حتى جاءت الثورة... وتلاقت رؤية العالمين في رؤية مشتركة، واستراتيجية واحدة، وكان "برج" هو الوسيلة لتحقيق هذه الغاية.

وتلاقت كل الرغبات مع مصلحته الشخصية، وأصبحت الثورة هي التهديد الحقيقي لوجوده، واجهها بضراوة، في كل مناسبة، استخدم عالمه السفلي بأكمله للقضاء عليها، وزاد أن استعان بأطفال الملاجئ ومراهقيهم، لمقاومة من يطلقون على أنفسهم: ثوارًا.

أولئك الثوار الذين أثاروا وأشعلوا الرماد، وأيقظوا العنقاء، طرحوا المنظومة، اقتحموها، من بعد سنين الهجوع، لم يعلموا أن مدخلات العملية ثابتة، وأي عنصر شاذ -حتى لو كان إيجابيًا- يمكن أن يدمر المعادلة السحرية للبقاء، يعلم أن الكتب التي يقرأونها هي

السبب، والإنترنت الذي فتح عيونهم على عوالم أفضل، ولم يدركوا أن عالم النظريات مختلف تمامًا عن عالم الواقع، ولكن من داخله، لم يُخَفِ إعجابه بإصرارهم وتحديهم، وهو يقبل التحدي، يجب أن يصارع القوي، وليس الضعيف.

يكره الضعيف، يجب أن يقضي على نقاط ضعفه باستمرار، حسبها راحت مع وفاة أمه- الحاجة "زينب"- التي كانت تتمناه في مكان أفضل، حتى أخوه الأكبر، والسبب المباشر في عدم قبوله، سواء في كلية الشرطة، أو معهد أمناء الشرطة، كان حلمه أن يكون ضابطًا، استحوذ على فكره، منذ نعومة أظفاره، بدأ تدريباته البدنية في مرحلة الإعدادية، شارك في بطولات كمال الأجسام، وراح كل شيء...

استخدم علاقاته في سفر أخيه للعمل بالخليج، ناسخًا لسوابق السرقة، وتعاطي المخدرات، حتى فكرة الزواج، يطردها عن ذهنه، كيلا تُستخدم زوجته أو أولاده كنقطة ضعف، فهو بوابة بين عالمين، كلاهما أقدر من الآخر عندما ينقلب عليك، لذا فهو يحيا بلا قلب، وآلاف العيون ...

وكانت موقعة "الجميل" كاشفة لنقطة ضعف جديدة، عندما رأى "أحمد حداد"، صديقه الحميم، رأى في عينيه نظرة قاسية، أقسى من الصفعة التي فلتت منه للفتاة التي كانت تقاتل بشراسة ألف رجل، وكانت أولى وآخر المرات التي يصفع فيها امرأة، وتلك نقطة ضعف أخرى، لأن هناك في داخله بقية من مبادئ.

لن يرد على "فايز" الآن، فهو يحتقره في كل الأحوال، ولكنه اليوم بات ضعيفاً، مثيراً للشفقة، لما رأى الشيخ "حسين" يحصد ما زرعه، ولكن لم يكن بعد وقت الحساب... الذي سيكون قاسياً.

* * *

فشل "أحمد حداد" في إصلاح المدفأة الكهربائية، حاول معها، ولكنها أبت إلا أن تتركه يعاني كهارب البرودة والوحدة، اشتاق إلى ولديه بشدة، قرر أن يحصل على إجازة أسبوعاً كاملاً قبل نهاية السنة، يبتعد فيها عن "القاهرة"، وصراعاتها، وجهادها، وعنادها، ويقضي فترة إعادة التفكير، في كل شيء، هناك، مع ولديه، ووالديه، وزوجته. يرى هاتفه في إصرار، ترى من المتصل في تلك الساعة؟ وظهر الاسم على الشاشة: "كالوشا".

يعرف "حداد" أن "كالوشا" لا يعترف بالوقت أو المواعيد، سأله "كالوشا" عن مكانه، أخبره أنه في البيت ويستعد للنوم، سمع تنهد "كالوشا" الذي أخبره أنه في الطريق وسوف يبيت ليلته عنده، اعترضه "حداد" مازحاً وسأله عن سبب طرده هذه المرة، يعلم "حداد" أن أكثر هوايات الحاج "إبراهيم الكيال" هي الموسيقى والصيد وطرده "كالوشا"، هدده "كالوشا" أنه ذاهب لبيت عند عم "موريس"، ضحك "حداد" وأخبره أنه ينتظره وسيطرده إذا تأخر، تهلل صوت "كالوشا":

- حبيبي يا بو العربي... ربع ساعة واكون عندك.

يستفزّه هذا اللقب: "أبو العربي"!

حكاية مضللة عن أهل "بورسعيد"، ومسوخ للحقيقة التي تاهت
من أرض النضال وباتت في واقع الهزل.

أبو العربي... استخدمها الأجداد للتفريق بين المصري ومَن دونه
من الجاليات الأجنبية التي عاشت في "بورسعيد"، والآن أصبح
الراعي الرسمي للكذب والخداع.

ساعة كاملة مرت، حتى وصل "كالوشا" المرتجف من البرد،
دخل، وبدأ "حداد" في إعداد عشاء خفيف.

- معلىش يا "أحمد" مليش غيرك...

جاوبه "حداد" وهو يضع أمامه طبق بيض بالبطرمة:

- ولا يهكم يا سيدي، ها.... قولي الحاج "إبراهيم" طردك ليه
المرّة ده؟

توقف "كالوشا" قليلاً... قبل أن يتناول قضمّة من الجبنة الرومي
التي وُضعت أمامه:

- أبداً يا سيدي... قلت له أنا عاوز أخطب!

نظر له "حداد" في دهشة:

- تخطب! يخرب بيتك... ها... ورد عليك قالك إيه؟

- أبداً يا عم قالي يوم الجمعة الجاية لو مجاش الإمام، ابقى اخطب
انت، وراح شاتم!

قهقهه "حداد" حتى سعل بشدة:

- وهتخطب مين بقى يا كابتن "منيب"؟

توقف "كالوشا" عن قضم الخيار، وهو يردد:

- شوفت بقى مش قلت لكم قبل كده محدش يقولى الاسم ده...
الله يسامحك يا بويا... حد يسمى ابنه "منيب"؟

- يا بني ابوك راجل فنان بي فهم... سمالك على اسم "أحمد منيب"
...قول بقى... ولا استنى... إوعى تكون!

قاطعه "كالوشا":

- اه هي... "نهي عبد القادر".

- قصدك نهى رَوْشَة.

- أه بحبها يا "حداد" مانت عارف.

- يا حبيبي ماشي بس الجواز ده مسئولية، وانت ساحمني يا
صاحبي، لا خلصت موضوع التجنيد، ولا عندك شغل ثابت، ولا في
شقة، ولا أي حاجة.

نفض "كالوشا" يديه، وقام من مكانه:

- كله يتدبر إن شاء الله، بس هو يقول أمين، أنا مش هعمل زي أخويا "نجيب"، واتجوز واحدة لأنها بنت عمي، وتخدم أبويا وأمي، أنا عاوز زوجة يا عم مش خدامة.

سدّد عن غير قصد طعنة غائرة، في صدر "حداد" الذي للمم الأطباق صامتاً واجماً، وتسديدة "كالوشا" سكنت بين الضلوع الذي أكمل دون أن يعي ما أصاب:

- ده حتى والله "نهي" بتسلم عليك، وفرحت أوي، لما عرفت إن "كريم" رجع.

توقّف "حداد" في المسافة بينه وبين المطبخ:

- إنت قلت لها إن "كريم" رجع! روح يا شيخ الله يسامحك.

- إيه المشكلة يعني، مش فاهم!

- طبعاً، مش فاهم، مانت لو بتفهم، تعرف إن "نهي" هتبلغ "سماح عبد المعز"!

تثأب "كالوشا" في قوة، وهو يُلقي نفسه فوق السرير:

- وإيه المشكلة إن "سماح" تعرف إن "كريم" رجع!

سمع صوت "أحمد حداد"، وكأنه يأتيه من بئر سحيقة:

- يا متخلف، متقدرش تتوقع رد فعل الستات، وانت عارف "سماح"، وشعورها ناحية "كريم"، و"فايز" لا بقى صاحبنا، ولا ينفع يكون!

"كالوشا"!

لم يرد عليه سوى شخير متقطع صادر عن الأخير.
يحسده "حداد"، أنه مع كل العقبات التي يواجهه، إلا أنه لديه
القدرة على النوم، بكل هذه السرعة، وكل هذا العمق.
أما هو، فيستعدُّ لقضاء ليل مسهد، لا ينتهي، وتأهبت كل الأفكار
لمصارعته بعد أن مدَّ أسبابها على استقامتها، واكتشف نبعها، ومصدر
نبتها، وأعلنت عليه الحرب، ودقت الطبول.
لم يكن يدري أن "كالوشا" (أمير السعادة كما يسميه) هو النائم
الوحيد في تلك الليلة.

* * *

الفصل الخامس

كانت المنطقة الخلفية لمحكمة "الجيزة" الابتدائية تضجُّ بالحركة، في هذا التوقيت، من منتصف النهار، وكانت تعدُّ منطقة تجمع مرتادي المحكمة من المحامين، وأصحاب المصالح، وكان من الطبيعي أن تنتشر العمليات الخدمية، كمكاتب التصوير، بائعي الملفات، والدمغات، وكاتبي العقود، والشكاوى، وكانت مستقرًّا لسيارات الترحيلات الصادرة، والواردة للمحكمة، فكانت مقصد أهالي المرحّلين، لاستقبال ذويهم، أو إلقاء نظرة أخيرة، قبل الرحيل، وانتشرت بالتبعية السلع المقدمة في تلك الحالات، الجرائد والسندوتشات والشاي، وتكوّن مع الوقت مقهى صغير، كان يعد بمكانة استراحة مؤقتة للجميع.

انزوى "فايز" في ركن بعيد، بعد أن انسحب منذ قليل من مبنى المحكمة، متحاشياً النظرات، والغمزات الساخرة التي نالت منه، بعد حلمه الذي ضاع، فور إعلان نتيجة انتخابات مجلس النواب.

الحلم الذي راوده فأراد، غواه فغوى، أغراه وغيره، راح من حاضره، ولم يرتاح، وكاد أن يحتضر، حلمه الذي حمله تسع سنين، تلقاه صديقه "حسين عبد العاطي"، نسبه إليه، فرح به، حقّقه، أنجزه،

استوفاه ابن حفار القبور الذي جاء من أقصى المدينة يسعي، ليقتنص
الجائزة الكبرى، جائزته، التي ذهبت أدراج الرياح.

ارتشف رشفة أخيرة، من كوب الشاي الذي أمامه، قلب كفيه على
ما بذل وحلم وتحمل، انتظر بذهن مكدود "عماد صبري" - المحامي في
مكتب "علي راشد" - لإنهاء وساطة بيع سوق تجارية "مول"، بشارع
"الأهرام"، مجاور لمحطة "مذكور"، سعره يتعدى الثلاثين مليون، وله
نسبة سمسرة بسيطة تبلغ نصف مليون جنيه، صفقة عادية من صفقاته،
ولكنه يبقى غير سعيد، نعم للمال سحر خاص، ولكنه شهوة كباقي
الشهوات، يزهداها من اعتادها؛ كان يتأهب لنيل كل رغباته: المال،
السلطة، الحب.

ضاعت السلطة بعقل "حسين"، وضاع الحب في قلب "كريم"،
ولم يتبق سوى المال. وحتى مال العائلة أصبح غير مضمون، بعد قفزات
"جمال النخيلي"، ومشاريعه الناجحة، في الفترة الأخيرة، والثقة التي
يكسبها يوماً بعد يوم.. اللعنة عليهم جميعاً.

تمنى أن كل الأحداث تختفي، كل المشاعر تتبدل، الأسماء التي
عايشها في عقديه الماضيين، تتأكل حروفها من ذاكرته، كطبعة رديئة
أصابها المطر، حتى الوجوه التي عرفها، أحبها، وكرهها، قدرها،
واحتقرها، الكل يتلاشى، يسقط في غياهب بئر مظلمة...و...

- "أستاذ فايز!"

أطلَّ على الشاب المتأنق الذي ظهر أمامه، بسترٍ زرقاء فاخرة، ونظارته الشمسية التي أخفت نظرة احتقار للمكان الذي يجلس فيه "فايز"، أشار له أن يتخذ لنفسه مقعداً، تردد الشاب، ثم تناول كرسيّاً بلاستيكيّاً، مكسور المسند، وأخرج منديلاً ورقياً، للتخلص من التراب الملتصق على المقعد.

– أقعد يا عماد...

قالها "فايز" بنفاد صبر، وقد تعجّل إنهاء "عماد" مراسم جلوسه، مكان يدعو للازدراء، قالها "عماد صبري" في نفسه، بادر أن يقنع "فايز" بالذهاب إلى مكان آخر، تجاهله "فايز"، فاستسلم "عماد"، أخيراً، واستقر في مكانه، منتظراً "فايز" المغمضة عيناه، أخبره أن العميل سوف يأتي غداً إلى مكتبه لتوقيع العقود، وأن المبلغ سوف يُدفع نقداً، دفعة واحدة بلا تسويق، رد "فايز" وهو يفرك عينيه بلا اهتمام، وأن هذا المبلغ لا يشمل أتعاب كتابة العقود، فلها ثمن إضافي، أوماً "عماد" رأسه إيجاباً، وهو يكتّم ضحكة سخرية، كادت تفرّ من شفّته، وسخر من أنامله الجعدة وجامده الذي لا يذوب، سأله "فايز" بعدها عن أخبار "علي راشد"؟

كانت هذه هي كلمة السر، غير المتفق عليها، لفتح خزانة "علي راشد" المحامي، عن طريق "عماد صبري"، العين السحرية لـ "فايز" على المحامي الأشهر، وموكليه، وقضاياه.

يتلذذ "فايز" بهذه الأمور، عادة التلصص القديمة، ألفها واعتادها، تعود إلصاق أذنيه بالجدار، يتجسس على جيرانه، فتح خطابات أبيه، تسمع حكايات أمه وصويجباتها، نال من العقاب ما نال، ولكن بقيت الخصلة عليه -رغم العقوبة- زرع عشرات العيون في الأماكن المهمة، من وجهة نظرة، كان يحدث الأمانة بالسوء (تجسس لتحصل على المعلومات) (والمعلومات تأتيك بالسلطة)، والسلطة والمال هما جناحا المملكة، مملكة "فايز النخيلي"، والثلث عنده هين، وعندهم كبير، مهما يزد أو يكثر، يكون مجموعة عن خدمات، خدمات مجانية، خدمات مخفضة، خدمات متبادلة.

ترك "عماد" يسرد بعض القضايا التي تولاهما المكتب في الفترة الأخيرة، والتي شملت عددًا هائلًا من قضايا الفساد، وردد أكثر من اسم من صفوة المجتمع، لم يُبد "فايز" أي اهتمام، حتى وصل إلى قضية إجهاض "كاميليا المهدي"، القضية التي رفعها زوجها، أو مطلقها "خالد المنشاوي" والتي كان يؤجلها اليوم، ولكن أهم ما جذب "فايز"، أن الطيبة المتهمه هي عضو سابق في الحزب الوطني، وكانت هي: د. "علية ياسين"، وأصغى "فايز" جيدًا إلى كل التفاصيل.

* * *

منذ إنشائه من أكثر من ألف عام، بأمر الخليفة "المعز لدين الله الفاطمي" لقائد جيوشه "جوهر الصقلي"، كان وما زال للأزهر الشريف دور رائد في الحياة الدينية، والاجتماعية، والسياسية، في مصر

والعالم الإسلامي، ولدوره المتعظيم، ابتداء من اعتماده رسمياً بكونه المسجد الجامع للدولة الفاطمية - دولة العبيدين - وقد تعاضم هذا الدور بعد إضافة الآلاف من المخطوطات، وعاد قلعة من قلاع التعاليم السُّنية، بعد أن أُعيد افتتاحه في عهد السلطان المملوكي "الظاهر بيبرس"، بعد إغلاقه ما يقرب من مائة عام، بأمر السلطان "صلاح الدين يوسف الأيوبي"، وساعد في إصلاحه السلطان "برقوق"، ثم "قايتباي"، و"الغوري"، واستمر الدور الرائد للجامع الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وعلى إثر هذا أمر "نابليون" بإطلاق النار على المدينة، من قلعة "القاهرة"، وتهدف مباشرة إلى "الأزهر".

وخلال التمرد على المحتل الفرنسي، قتل ستة من علماء "الأزهر"، بعد أن وضعت ملخص الأحكام ضدهم، وألقت القوات الفرنسية القبض على كل مصري شارك في المظاهرات، وتم سجنه، وإذا وجد عنده سلاح، يقطع رأسه؛ ودنست القوات الفرنسية المسجد عمداً، ومشوا فيه بأحذيتهم، وقامت القوات بربط خيولهم في المحراب، ونهب أرباع الطلاب، والمكتبات، ورموا نسخاً من القرآن على الأرض.

وفي مارس ١٨٠٠، اغتال "سليمان الحلبي" الجنرال الفرنسي "جان كليبر"، وهو طالب في "الأزهر"، وبعد عملية الاغتيال، أمر "نابليون" بإغلاق المسجد، وظلت أبوابه مغلقة حتى وصول المساعدات العثمانية والبريطانية في أغسطس ١٨٠١.

ودّع وقتها "الأزهر الشريف" أحد أبنائه الذي كان له دور إيجابي في مقاومة الاحتلال الفرنسي، واليوم يودع ابنًا آخر من أبنائه، وهو عضو لجنة الفتوى الشيخ "عماد عفت" الذي استشهد - بإذن الله تعالى - يوم أمس، في محيط مجلس الوزراء، وتجمع العلماء والدارسون من أبناء "الأزهر"، في مشهد مهيب لتوديع رفيقهم إلى مثواه الأخير، وانضمَّ إليهم نفر من أهل "القاهرة"، الغاضبين، الحانقين، الدهشين، متمموا، وهمموا، ذكروا الله كثيرًا، كي تطمئن قلوبهم، توضحوا مستغفرين، صلوا فرضهم، وقبل أن يتموا تسبيحهم، وقف الشيخ "بكر السنوسي" مستندًا على ذراع أحد تلاميذه، وارتقى درجتين فقط من المنبر، وبدا أنه يعاني كثيرًا، وظهر على ملامحه علامات التأثر مصحوبة بمعاناة الإعياء، ألقى نظرة صامته على الحضور الذين تعرضوا أمامه، في صفوف متقاربة، ارتدى بعضهم الملابس الأزهرية المميزة، وقبل أن تكمل عيناه كامل استدارتها، وجدت أحدهم، متصدرًا في ركن غير بعيد، مرتديًا سترة سوداء فاخرة، توقفت عيناه لحظة، ثم أكملت طريقها، وهو يطلق زفرة حارة، خرجت من أعماقه.

لم يشعر "حسين عبد العاطي" بهذا الدنو إلا في عيني الشيخ "بكر"، وكأنها تحترقه، وتكشف عن ستره، تجاهل نظرة الأخير، وأثر أن يبدي أقصى علامات الجدية، والتأثر فيبدو للآخرين، وكأن نائب البرلمان الجديد أبى إلا أن يشاركهم الأحزان، رافضًا أن يحتفي بفوزه الساحق، والمستحق، في الانتخابات البرلمانية.

لم يعرفوا أن هذا الادعاء الذي بيديه هو إرث له، من قديم الأزل،
موروث في أبجدية جيناته.

وجاء صوت الشيخ "بكر" وكأنه يأتي من بئر سحيقة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، وَوَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً
وَعِلْمًا وَتَدْبِيرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ
نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَانَا إِلَى الْقِيَامِ بِالْمَسْئُولِيَّاتِ وَحِفْظِ
الْأَمَانَاتِ، - ﷺ - وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدْيِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ، عِبَادَ اللَّهِ، وَتَمَسَّكُوا بِدِينِكُمْ الَّذِي
ارْتَضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾
وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ فَهُوَ دِينٌ كَامِلٌ، نَظَّم
العِلَاقَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ شَرَعَ
اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - كَامِلٌ شَامِلٌ، لَمْ يَتْرُكْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مِمَّا يَحْتَاجُهُ
النَّاسُ إِلَّا وَضَحَهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى
الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ).

لقد فقدنا بالأمس أخوا عزيزا، عالما، زاهدا، ارتقى درجات العلى
من حسن الخلق، فاللهم اغفر له، وارحمه، وتقبله مع النبيين والصديقين
والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

تصايح الجميع "أمين" مع دعوات الشيخ "بكر"، ونزت قلوبهم
الما، وانفطرت دموعهم حزنا، حتى بللت اللحي، الأمر الذي تعاضم

بعد صلاة الجنازة والخروج من "الجامع الأزهر"، وانطلقت التهتافات تشق الأثير.

ترجّل "حسين عبد العاطي" بين الحشد، استوقفه أحدهم فوجد نفسه فجأة أمام الشيخ "بكر"، فعلم أنه لا مناص من المواجهة، رسم على شفثيه ابتسامة، تحمل قدرًا هائلًا من الزيف، وهو يمد يده نحو الشيخ:

- السلام عليكم، مولانا ...

صافحه الأخير بجفاء:

- وعليكم السلام، أستاذ "حسين"، قصدي: سيادة النائب.

حاول "حسين" خفض جناحه، وتلكأ في الإجابة:

- مسؤولية والله يا مولانا.

بادره الشيخ:

- أراك والله لترضى بأكثر من هذا.

- إِنَّ تَحْمَلَ المسؤولية أمرٌ خطيرٌ لكن لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهِ بعضُ الناسِ، لئلا تضيع مصالحُ المسلمين.

قاطعته الشيخ "بكر" في حزم وهو يتنهد:

- ابتلى الله تعالى عباده؛ فجعل لهم أناسًا على طريق الخير يدلونهم إليه، وأناسًا على طريق الشر يؤذونهم إليه.

- نسأل الله يا مولانا أن نكون من الدالين على الخير!

تمتم الشيخ بكر:

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ.

تعلق "حسين" بذراع الشيخ "بكر" وكأنه يسنده:

اللهم اهدنا الصراط المستقيم... وأنت تعلم أيضًا يا مولانا: إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ، فالقوة في العمل، والأمانة في المسئول مطلوبة، القوة يا مولانا في كل شيء، وأتمنى أن أكون قويًا بصوت الحق وأمينًا على مصالح المسلمين، بل المصريين جميعهم.

انترع الشيخ ذراعه:

- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُوَفِّكُونَ.

- ساحك الله يا مولانا. تشبهنى بالمنافقين أيام الرسول!

- المنافقون الذين فيكم شرٌّ من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله.

نفد صبر "حسين عبد العاطي"، وأيقن أنه لا مجال لتبديل رأي الشيخ "بكر" فيه، وخشي أن يتطور الحوار، ويلحظ المحيطون مدى

خلافهم، لم يبقَ لـ "حسين" سوى الانسحاب الدائم من أمام شيخه القديم، تباطأ خطوتين، وانشغل بجواله حتى تجاوزه الجمع، أنهى مكالمته الزائفة، ومضى إلى حيث ترك سيارته، لم يشأ أن يعكر ما حدث صفوه، ويفسد فرحته بفوزه بمقعد البرلمان، أجرى محادثة سريعة مع "ثروت بيه"، قصد بعدها نادي "الجزيرة"، لم ينتظر كثيراً عند البوابة، لم يملك بطاقة عضوية، لكنه تملك النفوذ، من هم أعلى الهرم بالعلاقات، ومن هم أدناه بالبسمات، وبعد أن نثر بسماته المجاملة في شتى النواحي، سار إلى ملعب التنس، حيث يجلس "ثروت بيك"، وجماعة من صفوة المجتمع، تحلقوا طاولة دائرية، مرتدين ملابسهم الرياضية، تصافح مع الحاضرين. متحمس وقور مع من يعلم، مجامل بشوش مع الباقين، تبنى "ثروت بيك" إجراءات التعريف والتقديم، وتقدمت على الألسنة عبارات التهئة، وتذيلت التساؤلات المختلفة مثل:

الاقتراحات الاقتصادية والأمنية للبرلمان الجديد؟

وضع الحكومة الحالية؟ انتخابات الرئاسة؟

علاقة التيار الاسلامي بالفنون؟

مصير رجال الأعمال الذين ساندوا النظام السابق؟

كانت أجوبته سهلة، مدققة، نافذة، بآئة، تلاها بلسان عذب، ووجه بشوش، هدأت سواكنهم، بعثت كلماته إلى صدورهم الطمأنينة،

وأزالت بسمته عن خاطرهم الجزع، مما دفع "ثروت الجميعي" أن يعود بظهره مشيراً إليهم، فخوراً به وأنه يسميه الرجل الاستثنائي.

أومؤوا برؤوسهم إيجاباً، واحتراماً، وتصديقاً، بينما أطرق "حسين" رأسه، مخفياً ابتسامة الظفر، مختلساً نظرة عابرة لتلك الحوراء، تذكر قول عمرو ابن قميئة:

وَفِيهِنَّ خَوْلَةٌ زَيْنُ النِّسَاءِ زَادَتْ عَلَى النَّاسِ طُرّاً جَمَالاً
لَهَا عَيْنُ حَوْرَاءٍ فِي رَوْضَةٍ وَتَقْرُو مَعَ النَّبِّ أَرْطَى طِوَالاً

راقب شمس بياضها، لا يخفيه سرواها الأبيض القصير، ونسم البرودة يتنسك فوق مسامها، فأحرقت نار التوق ثلج روحه، وبلغ الصبا من نفسه منتهاه، بعدما أطلقت مع صرخة نصرها، سهماً قاتلاً نافذاً إلى قلب صمول ضربت عليه الصلابة، وأصاب مكمته في إحكام.

* * *

أضفى وقع خطواته المترددة على الرصيف المقابل لمستشفى الجيزة الدولي "التطبيين" التي تتوسط شارع "الأهرام" مزيداً من الاضطراب على ملامحه، فكر في التراجع، وتأجيل فكرة زيارته لها في المستشفى وقد طغت على رأسه منذ علمه باحتجازها هناك.

لقد دأب في الأسابيع الماضية على التواصل مع "داليا جابر"، متعللاً بحجج وذرائع زائفة، وأسباب ملفقة، لم تقنعه هو شخصياً، فما

بالها هي! منذ أن قدمت إليه واجب العزاء تليفونيًا، وهو يحرص أن يحدثها، بين الفينة والفينة، سألها مرة عن دواء غير متوافر يبحث عنه صديق وبصفتها صيدلانية، ظنَّ أنها ستدله على طريقه توفره، أخبرته ابتعادها المؤقت عن مجال الصيدليات، لأن العمل في المصنع يلتهم أكثر من نصف يومها، بينما تتكفل دراسة الماجستير بالنصف الآخر، وتحتلس ما يتبقى من كسر الساعات في حضور الندوات والمؤتمرات، بينما ينقضي يوم الجمعة -عادة- في مظاهرات أسبوعية، إلا فينا ندر، وتقوم بما تيسر من الأعمال المنزلية يوم سبتها.

لم تصده بإشارة، ولم تدرأه بتنويه، وإنما ساعدته عن طريق صديقتها الدكتورة "إيريني" التي ما زالت تعمل في صيدلية "بليغ" الواقعة في ميدان "الجيزة".

لم يخبر "أحمد حداد" بتواصله معها، لا يعرف لماذا؟ ربما خشي سؤاله عن السبب، وهو نفسه لا يعرف السبب، هي بدورها لم تلفظ سرّه، ولا يعرف السبب.

ربما قالت، و"أحمد" ينتظر... لا يعرف!

لم يلمس ضيقها، ما كان يفرض نفسه عليها، ولا ينبغي له، حتى هي لو شعرت بانزعاج ما كانت ترد على مكالماته!

أو ربما اشتكت لصديقه، وهي لم تفعل!

تساءل: ربما أرادت بحدس الأنثى أن تنتظر عله يظهر ما يريد ثم

تنقض!

عالم النساء لم يكتشفه أحد، قارة منسية، يحكمها مبهم التدابير،
ويسكنها غموض التراجم، ملتبسة الأسئلة، مجهولة الإجابات، غلقة
التفاسير، محيرة البدايات، حائرة النهايات!

أشعلت الظنون نيرانها في صدره، ولما قاوم أسبوع كامل رغبة
الاتصال بها، انهار سدُّ مقاومته أمام فيض خفي من الشوق، دهمه وَلَعُهُ
لساع صوتها، وبعد عناء وجهاد، طلب رقمها بالأمس، وبذل جهداً
شاقاً في السيطرة على دقائق قلبه المتسارعة من سبب مجهول، وأنفاسه
التي تلاحقت كعداء مارثون في المائة متر الأخيرة، استحضر حكاية
مصطنعة لقريبة له ترغب في التدريب في مصنع أدوية، ويودُّ مساعدتها
في هذا الأمر؛ بدأ يقنع نفسه بالفكرة، اعتقل في أعماقه آلاف التساؤلات
عن جدوى الاتصال وهدفه!

لا سؤال ... ولا جواب.

تجاهل ثورة الأسئلة، ضغط على زر الاتصال، وأخذ أصداء
التمرد، وفور التراجع لم يسمع سوي صوت "عزيز الشافعي" يجيبه:
(أنا بحبك يا بلادي).

رددها، ولكن أين هي؟ - يقصد "داليا" - لم يعترض طريق
الاتصال التلقائي، لا جديد، فقط "عزيز الشافعي".

وبعد ساعات قضاها في متاهات الوهم، جاءه الرد في رسالة نصية
على الهاتف أنها تعرضت لوعكة صحية وتم حجزها في مستشفى الجزيرة
الدولي لإجراء بعض الفحوصات وسوف تتصل به فور خروجها.

رسالة مقتضبة أزالَت عنه فوضى الأفكار والظنون، لم يتبقَّ له سوى القلق والترُّبُّص، عن سبب مرضها، واحتجازها في المستشفى، قضى ليلته وحيداً، مسهداً، يسمع كلمات "داليا" بصوت "سارة"، وأحياناً العكس، وكأنَّ خيوط الماضي والحاضر تشابكت، في دانتيل من الأمل والتوجُّس.

لم يدِر كيف مرت ليلته، لم توقظه دقات المنبه، وكأنه استحى أن يؤرق هداة عطلته، ارتدى ملابسه، التقط رشقات قليلة من كوب الشاي نصف المغلي، لم ينسَ أن يلقي نظرة سريعة على غرفة والدته، غير الموجدة، عرج بسيارته على "زهور إستليزيا" في شارع "الأهرام"، ولأنه يؤمن بأن اختيار باقة الورد ونوعه، ولونه، يشي برسالة ما، لم يختَر لا لون الورد، ولا نوعه، لأنه بالفعل يجهل الرسالة؛ والآن يقف على بُعد خطوتين، لا مجال للتراجع، يريد أن يكتشف بنفسه، سرَّ نفسه، حتى لو كان هناك ... في عينيها.

ألقي نظرة نهائية على واجهة المستشفى، مُتردداً، مُتَحيراً، لم يحسم قراره سواء بالدخول أو الانسحاب، لا يدري أيهما طريق الرشاد، حسم أمره، استقبلته ابتسامة متكلفة من موظف الاستقبال، سأله عن د. "داليا" ... ال ... لم يتذكر باقي الاسم!

لاحظ الموظف تلعثمه، لا يتذكر الاسم الثاني، تكورت غصة خانقة سكنت في حلقة؛ لا يريد سوى الصمت، لقد سقط اسم الأب في غياهب ثقب أسود، وبدت استعادته مستحيلة!

يا الله! البداية أصعب مما تخيل، إذن، لا مفر. سأله موظف الاستقبال عن القسم المحجوزة به؟ لم يجب، ميعاد حجزها في المستشفى؟ لاحظ الموظف توتره، فقرر لسبب ما مساعدته ولكن بلا فائدة.

أسلته من خارج المنهج، لا جواب، لا يعرف، لم يعد سوى الانسحاب، قبل أن يتدهور الموقف إلى ما لا يُحمد عقباه، ربما يحسبه الموظف مجنونًا أو معتوفاً أو لصاً، في مجتمع خسر قدرًا هائلًا من الأمان، يعامل فيه الإنسان كمتهم إلى أن تثبت براءته، شكره واعتذر منه، قالها بحروف مزقتها زفرات التنهد، أدار ظهره مغادرًا، خارت قواه، بعد أن زحف جيش من نمل يائس إلى أطرافه، تدلت يده الممسكة بباقة الورد، هدلت من جذب الأرض لأمل طار في السماء؛ أطرق برأسه كما أطرق الورد أيضًا.

– أستاذ!

استدعاه صوت موظف الاستقبال، التفت إليه، وفي عينيه ألف سؤال، أخبره أن حالة وحيدة موجودة باسم داليا هي "داليا جابر"، من طرف الدكتور "ياسر"، تهللت أساريره، تذكر الاسم الآن وكأنه سقط من ثقب في قاع الجمجمة، عاد الأمل إلى صوته، وارتبك الموظف بعد أن تطوع باسم المريض لشخص لم يعرفه، وعاد الشك يُراوده وقال إنه سيتصل بالمرافق لها وهي أختها كما يظن.

تهاوى الأمل ثانيةً، أختها لا تعرفه، تتمد بكلمات غير مفهومة، ولكن لم يعد له خيار، طلب الموظف رقمًا داخليًا، انتظر حتى آتاه الرد، أدار سماعة الهاتف جانبًا وهو يسأل "كريم" عن الاسم:

- "كريم" ... "كريم صدقي".

ردد الاسم في الهاتف، وانتظر الرد، عمر مديد قضاه "كريم" في لحظة الانتظار، حتى أجابه موظف الاستقبال بأنها في غرفة ٣٠٧ وأشار له باتجاه المصعد، ما برحت علامات الدهشة تكسو ملامحه، استوقفه موظف الاستقبال طالبًا منه أن يترك بطاقة تحقيق الشخصية، تركها "كريم" بعد أن ابتسم للموظف في مودة، أنفاسه تتصاعد أسرع من المصعد، رأسه بدا أثقل من خطاه التي عبرت الرواق البارد، تسمرت عيناه على رقم ٣٠٧ فوق الباب المغلق، دق قلبه دقتين، ودق الباب دقتين، شق صدره أزيز الباب، وألفى عينيها لدى الباب.

لم يدرك مر من الوقت، وهو متيسر على كرسية المقابل لسريها، دوي الصمت رسم خيوطه في الغلاف الجوي للحجرة، لا يخترقه سوى شخير متقطع لأختها الملقاة على السرير المجاور، حيث تذرثت بأكملها تحت الغطاء، وبدا صوت الشخير كموسيقا تصويرية غير مناسبة؛ ضحكا فجأة بلا مقدمات، لاحظت باقة الورد في يسراه، لاحظ جبرة تلف يمناها، ابتسمت للورد، عبس للجبرة، راقبت الارتباك في ملامحه، اكتشف ندبات خفيفة في وجهها.

- ألف سلامة.

اخترقت عبارته الصمت، رصاصة طائشة من مسدس مبتل،
دحرتها رحي الانفعال، ابتسمت:

- الله يسلمك، الحمد لله على كل حال.

تساءل عن سبب الإصابة، أخبرته أنها أصيبت في أحداث مجلس
الوزراء، قالتها هامسة، وأشارت في اتجاه الكومة الملقاة على سرير
المرافق، أختها "فاطمة" الغارقة في سبات عميق، ستخبرها فيما بعد،
الدكتور "ياسر" فقط هو الذي يعرف الحقيقة أما الأب فهو يظن أنها
وقعت من أعلى السلم، لا ترى أن تجربه، لاحظ كريم تكرار اسم دكتور
"ياسر" وعندما سأها أجابته إنه دكتور "ياسر بدير" صاحب معامل
التحليل المشهور والتي يعمل في أحدها والدها، اربد وجهه،
واضطرب ثم أستاذ للرحيل حتى لا يثقل عليها أو يزعج النائمة،
قالها، وهو يقرن القول بالفعل، تاه في عينيها لحظات، مرت كدهر، اتجه
بعدها نحو الباب.

- "كريم"!

نطقت اسمه أخيراً، بلا زوائد، ولكنها تداركت:

- أ. "كريم"، أسفة.

- أمري يا دكتورة؟

- إيه دكتورة ده! "داليا" بس.

- أأمري يا "داليا"، بس.

أشارت إلى يسراه التي ما زالت تحمل الورد، ابتسم خجلاً، اعتذر، وترك الورد إلى جوارها، وهو يرفع عينيه نحوها:

- ألف سلامه عليك!

- الله يسلمك.

غادر الحجرة، وفي قلبه جنية مسحورة، صافح موظف الاستقبال بحرارة وسط دهشة الأخير، جلس في سيارته، وهو يسبل جفونه، وكأنه يضم صورتها بين أهدابه، ممزوجة بغيش الغروب.

أطلق العنان لصوت "فيروز"، يبعث الروح في لوحته الباهتة، لتنبت زيتوناً ونخلاً في فلاة مؤطرة ببؤس بلا حدود.

(سلم لي عليه، وقوله أنى بسلم عليه، وبوسلي عينيه، وقوله أنى ببوس عينيه، انت ياللي بتفهم عليه، سلملي عليه سلم).

لم يدرك سر الزغاريد التي صاحبت دقات قلبه، كما لم يدرك العينين اللتين تتابعانه من خلف النافذة الزجاجية، وصاحبتهما تسمع من قلبها الزغاريد نفسها.

(قوله عيونه مش فجأة بيتنسوا، وضحكات عيونه ثابتين ما ينقصوا).

اتصل بـ "كالوشا"، واعدته بعد ساعة في مقهى "فرساي"،
"حداد" ما زال في "بورسعيد" يقضي إجازته الأسبوعية، نحا إلى المقهى
مباشرة، ويتتظر أمير السعادة هناك.

الهاتف يرن، يأتي من المجهول برقم غريب.

- ألو!

صوت أنثوي مميز! جاهد أن يتذكر صاحبه، ولكنه فشل، جاءه
الصوت لائماً يحمل اسم صاحبه: "سماح"، "سماح عبد المعز".
لم يكن "كريم" على مشارف شارع "العشرين" كما ظن ...
لقد ارتدّ أكثر من خمس سنوات إلى الوراء، و"فيروز" ما زالت
هناك:

(انت ياللي بتفهم عليه، سلم لي عليه سلم).

* * *

اقترب بحذر من مدخل البازار، بازار "ماعت".

لم يستسغ اسم البازار قط، كثيراً ما اقترح على عم "موريس" تغيير
الاسم، خاصة أن زوار المنطقة -سواء كانوا سياحاً أو مصريين- يجدون
صعوبة في نطق الاسم، تذكر وقتها بسمة الأخير الساخرة، والرد الذي
دائماً ما يأتي بطيئاً، ضعيفاً، ساخرًا.

- يتفلقوا...

وحكى له يومًا معنى الاسم:
"ماعت".

إنها عند المصريين القدماء إلهة الحق والعدالة، كانت تبدو في هيئة سيدة تعلو رأسها ريشة، ريشة العدالة.

مما يذكر في كتاب الموتى، عند قدماء المصريين، أنه عند حساب المتوفى في العالم الآخر، كان قلب الميت يوضع على الميزان في كفة، وريشة الإلهة "ماعت" في الكفة الأخرى، فإذا رجحت كفة الريشة، فإنه يدخل الفردوس في معتقداتهم، وأما إذا رجحت كفة القلب، فإنه يذهب إلى الفناء الذي كانت المعتقدات المصرية القديمة تمثلها، على هيئة وحش مفترس، تخيلي، اسمه "عمعموت"، رأسه رأس التمساح، وجسمه جسم الأسد، والجزء الخلفي له من جسم فرس النهر، وكانت هيئة المحكمة في العالم الآخر تتكون من ٤٢ قاضيًا، بعدد أقاليم مصر.

كانت هذه الحكاية بالنسبة لـ "كالوشا" واحدة من حكايات الرعب، وليس المعرفة، لا يتجاوزها رعبًا سوى حكايته المشهورة مع البلاط المبطن لجدار الحمام، المنقوش عليه بعض الزخارف التقليدية، ولكنه يتحول - من وجهة نظر "كالوشا" - إلى مجموعة من الوجوه الوحشية، وبخاصة عندما يمتلئ الحمام بالبخار، تظهر هذه الوجوه بوضوح، تبدو وكأنها تتصارع، يسمع حسيستها، أصواتها كفحيح الأفاعي التي رآها مرة، مع أحد رفاعية النزلة - نزلة السمان - وكان وقت الاستحمام في الشتاء ثقيلًا، مرعبًا، مخيفًا، كان يفضل أحيانًا أن

١٧٢

يرتج تحت زلزلة الماء البارد، متجاهلاً ضحكات الشياطين، ويتقلص بعدها ككومة لحم مرتعد، وفي الوقت الذي أقنعه أخوه "نجيب" أن تلك الوجوه حقيقية، وأن جدران الحمامات متصلة ببوابات جهنم، وهو ما يفسر أنها بيوت الشياطين، في حين أن هذه الأصوات كان يصدرها "نجيب" نفسه، لبثّ الرعب في قلب أخيه، وكان وقتها يكتّم ضحكاته بصعوبة ؛ بكى "كالوشا" عندما صارحه "نجيب" بالحقيقة، كال له اللكمات، وقد تفلت من الأخير فيض من الضحكات العبيثة، ظن "كالوشا" بعدها أنه تخلص من هذا الوهم، ولكن هيهات، لقد صارت الأسطورة جزءاً من تكوينه.

عَبثاً يحاول "كالوشا" الاتصال بعم "موريس"، بعد أن وجد بوابة البازار الزجاجية مغلقة، ربما ذهب إلى مرحاض المقهى المجاور، تقدم نحو المقهى متحاشياً أن يراه أحد، من بوابة ورشتهم المفتوحة على مصراعيمها، على غير العادة، بتر حواراً كاد يفتحه فتى المقهى الثرثار، سأل عن عم "موريس"، فأجابه الثرثار أنه ساعده في إغلاق الباب الزجاجي، واتجه "موريس" بعدها إلى الورشة، وأوصى بشيشة، وينسون له، وشايا مغلياً للحاج "إبراهيم".

الحاج "إبراهيم"

إذن فالرجل استدرجه إلى خط النار، فكثيراً ما يلعب "عم موريس" دور أمين عام الأمم المتحدة، بين الحاج "إبراهيم"، وولده "كالوشا"؛ فعندما يواجه "أمير السعادة" أباه، يفقد الأمير تاجه، في

حضرة أبيه، ويتوج بتاج البؤس، وكان يتمم دائماً: " هذا لقاء لا ينتهي بالتعادل".

في حال هزيمته يرحل مطروداً من البيت، والورشة، وأما هزيمة الحاج "إبراهيم" فيرحل "كالوشا" مطروداً أيضاً.

لغة الحوار تكاد تكون مفقودة بين الجانبين، ينحاز "عم موريس" لطرف "كالوشا" ضد صديق عمره، ويقر في نفسه أن الحاج "إبراهيم" يملك بعض الحق في بعض الأمور، مثل تهور "كالوشا"، واستخفافه بمستقبله، وتكاسله إلا عن مباريات الكرة، تقصيره في عمله، سواء بالورشة أو غيرها.

"كالوشا"، أو "منيب إبراهيم" طائر بري، والصيد يجلس منهمكاً في إصلاح أوتار العود، فقط فقاعة من الصمت، إلا من حركة أصابعه على الوتر المختبر، وبقبقة ضعيفة من شيشة عم "موريس"، وانغرس مبسمها في فمه، مولياً ظهره للباب، رفع الحاج "إبراهيم" رأسه عن العود الذي يحتضنه في صدره، وحدث إلى وجه "كالوشا"، ثم تجاهله ليكمل مهمته:

- أهو وصل الموكوس!

استدار له عم "موريس" في بطة، راسماً ابتسامة تاهت، وسط ضبابة الدخان التي خرجت من ثغره، وأردفها بسعال متواصل، مما وثّر الحاج "إبراهيم" الذي أزعجته شيشة "موريس":

- يا عم بطل الهبابه ده انت بقي فيك حيل ...
- مع تخضب وجه عم "موريس" بلون أحمر قانٍ، وسعاله الذي لم تنته فورته، أدركته ابتسامة خفيفة، وهو يقترب بوجهه نحو الحاج "إبراهيم":
- من ده اللي مبقاش فيه حيل يا زول، بأمارة الحباية الزرقا...
- اسكت الواد واقف يا راجل يا خرفان.
- قاطعهما "كالوشا" مبتسماً:
- طب اجي في وقت تاني!
- تعالي يا واد يا "منيب"، هات كرسي واقعد جنبي.
- قالها عم "موريس" ببطئه المعهود، سحب "كالوشا" مقعداً، وجلس بجواره، ثم اقترب من أذنه هامساً:
- مش قلنا بلاش "منيب" ده. اسمي "كالوشا". "كالوشا" ...
- أغنى هالك.
- وماله "منيب"، خسارة الاسم فيك وفي أبوك.
- قالها الحاج "إبراهيم" منفعلًا، مما جعل عم "موريس" يلكز "كالوشا" خفية:
- يا واد ده أبوك راجل أصيل، سمى أخوك "نجيب" على اسم الرئيس "محمد نجيب"، الله يرحمه، ومسميك على اسم "أحمد منيب"؛ أه بالحق يا "إبراهيم"، بمناسبة "أحمد منيب"، متغني لنا حاجه كده!

هتف الحاج "إبراهيم" مغاضبًا، وكاد يلقي العود في وجه الجميع:
- أغني إيه يا راجل يا مخبول انت... ألاقها منك ولا من الصايح
ده.

- اهدي بس يا حاج، وقولي اعمل ايه عشان ترضى عني، أنا
ماليش غيرك والله.

قالها "كالوشا"، وهو يقترب من أبيه بحذر، وهو يُقبل رأسه.
هدأت ثورة الحاج "إبراهيم"، ورشف ما تبقى من كوب الشاي،
تمناه أحسن الناس وأفضلهم وأميزهم، القسوة عليه من أجله، والحزم
كاشف له، لا عليه، لثم "كالوشا" يده بفمه.

- أصيل يا واد يا "منيب"، قصدي يا "كالوشا"، بتفكرني بالواد
"ميناً... أه... وحشني أوي.

قالها عم "موريس"، وهو يعود إلى شيشته، اعتدل الحاج
"إبراهيم" في جلسته، وهدأت نبرته إلى حد بعيد:

- في زبون كان عندي كلمته عليك، عنده مطبعة كبيرة في
"الحرانية"، هتمسكه الحسابات.

- حسابات!

- أه... حسابات... إيرادات ومصروفات فيها إيه ده، مش كفاية
إنه كتر خير هيشغلك من غير ورق الجيش.

- تمام، تمام يا حاج، هروحله.

- أيوه كده.

وابتسم الحاج "إبراهيم"، أخيرًا، وجذب الشيشة من عم "موريس":

- ما تجيب نفس بقي يا اخي... إنت إيه!

صَحِكَ "كالوشا" وهو يتابع الشيخين المختلفين شكلاً، المتوافقين تاريخًا، جمعتهم ظروف الحياة، وظروف التهجير، فعم "موريس" عبد السيد "من مهاجري القناة، بعد الهزيمة، والحاج "إبراهيم الكيال" من مهاجري النوبة، بعد السد، وقد جمعتهم "نزلة السمان" في الستينيات، ومن يومها لم يفترقا قط، الفارق الوحيد أن "السويس" أصبحت على بُعد حجر، وبيوتها بقيت تحت الشمس، و"النوبة" صارت خلف الحجر، وبيوتها ضاعت تحت الماء.

- فاكريا واديا "كالوشا"، لما جيت معايا "الوراق"، عند كنيسة "الملاك ميخائيل"، من سنتين، في نفس الوقت ده، والناس كانت زحمة أوي، وأنا كان نفسي أشوف العدرا، وأحضر تجليها في السما، يومها وقفت جنبي، وحوطت عليه، علشان مقعش تحت الرجلين، وقتها دعيت لك، وهفضل أدعي لك، ربنا يحميك يا بني، ويسعدك.

كان كلام عم "موريس" قد تحول إلى نشيج متقطع، فاحتضنه "كالوشا" في صدره، بتر بعدها "موريس" دموعه، وأشار إلى الحاج "إبراهيم":

- شوفت يا "إبراهيم"، الواد سمع الكلام، ييقى انا كسبت
الرهان.

- إنت مبتساش حقك أبدًا، ماشي يا سيدي، إنت كسبت، تطلب
إيه؟

قالها الحاج "إبراهيم" في تأثُّر، تراجع عم "موريس" بظهره في
ظفر:

- غني لي يا "إبراهيم" يا "كيال"، الأغنية اللي بحبها.
نظر الحاج "إبراهيم" إلى ولده، مرتبِّغًا، الذي بدوره ناوله العود
مشجعًا، تناول الحاج "إبراهيم" العود، وعدل من وضع نظارته:
- ماشي بس تغنوا معايا!

(ربك هو العالم ربك رب قلوب، مين عارف يا حبيبي إيه لنا
مكتوب، إحنا قلوب مشتاقه والدنيا سراقه، دنيا فيها الغالب، تاني يوم
مغلوب، ربك هو العالم، بالصاحي والنايم، والقلب البراني، والقلب
الحليم، ربك هو العالم، ربك رب قلوب، مين عارف يا حبيبي إيه لنا
مكتوب، ربك هو العالم ربك رب قلوب).

* * *

"إن شاء الله يا دكتورة".

أنهى المحامي "علي راشد" محادثته التليفونية مع الدكتورة "عليه"،
وعدها أن يكون آخر تأجيل، لا يعرف كيف، لم يندم على شيء في حياته

أكثر من زواجه سرًا من الممثلة المغمورة، والتي كادت تُشهر به لولا صديق له في الأمن الوطني، إلا قبوله هذه القضية، قضية صعبة، بل ربما هي الأصعب على الإطلاق، مع كم وكيف القضايا التي يترافع فيها، كواحد من أهم محامي الصفوة، وبخاصة في تلك الفترة الملتهبة من تاريخ "مصر"، حيث تنوعت القضايا من قتل متظاهرين، وقطع الاتصالات، وقضايا الفساد، والتربح التي طالت الجميع، وباتت هذه القضايا معلومة الهدف، دونية المقصد، هزلية البراهين، لا دليل عليها سوى ثروة أفواه الثوار، ولغو المتحولين، وهذر المستفيدين، وحنق الخائفين من الوضع الجديد. أخذ على نفسه عهدًا، ألا ينسحب أو يتراجع أمامهم، حتى لو وقف وحده، فهو قادر على المواجهة، ما دام في صدره نفسٌ يتردد، وقلب ينبض.

أما قضية "د. علية ياسين" فهي لم تكن قضية إجهاض عادية، وإنما متاهة شديدة التعقيد، لغز ثلاثي الأبعاد، فالأضداد كلها في فريقه، تمنى بُعده عن مناطق التقاطع بين رفقاء الأمس، يلجأ كثيرًا إلى المهادنة، والمسألة الذي يخدم مصالحه، وبعد قيام الثورة، ظنَّ أن يرتفع الجميع فوق منافع الشخصية، ويقدم مصلحة المنظومة وشيكة الانهيار، ويقفوا صفاً أمام الطامعين الطامحين الجدد، ويتناسوا حربهم الأهلية الأبدية الصراع.

تأسف لحرب تكسير العظام بين عائلتي "المهدي" و "المنشاوي"، وهم من هم في دنيا المال، والسياسة، والنفوذ؛ العائلتين الذي دام

الصراع بينهما كحرب البسوس حتى تلاقا عند نقطة التماس على يد المأذون الشرعي، بعد أن تناست العائلتان بؤر الصراع وتلاقت المصلحة في دفتر الأحوال الشخصية، بعد أن تزوجت "كاميليا المهدي" بـ "خالد المنشاوي". فهدأ الصراع مؤقتاً في انتظار ولي العهد، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، وانقلب الاقتران إلى افتراق، والاتفاق إلى تواجّه.

تذكّر حفل الزفاف الخرافي، يومها تعرف ممثلته المغمورة، رأى نفسه وهو ملك الكيد والمكيدة، يوقع في ورقة الزواج العرفي، ومهرها بستة أصفار، صدق الحق عندما قال: (إن كيدهن عظيم).

وبينما ضربت "كاميليا" عصا الكيد بدورها على البحر الساكن، وتصدّع في طودي "المهدي" و"المنشاوي"، أنهت الهدنة للأبد، طلبت الطلاق، بعد أن تخلصت عن طريق ابنة عمها "درية المهدي"، وصديقتها "د. عليّة ياسين" من الجنين الذي رأت أن وجوده سوف يُججّم من فرصها في إعادة رسم مستقبلها مع شخص آخر.

وبالفعل دخلت "د. عليّة" في بوتقة الصراع، بعد أن أثبت "خالد المنشاوي" أن واقعة الإجهاض تمت دون سبب طبي، ودون حصول الطيبة على إذن من الأب، في حين ادّعت عائلة "المهدي" كذب ادعائه، وأن "كاميليا" تعرضت لنزيف حاد، أدى إلى فقدانها للجنين، وأن عملية الإجهاض كانت ضرورية، لإنقاذ حياة الأم، وفشلت كل محاولات التقريب بين الجهتين، وأصرَّ "خالد المنشاوي" على مواصلة

التصعيد، واستخدم نفوذه، للضغط على النقابة لإيقاف "الدكتورة عليّة"، لحين البتّ النهائي في القضية.

"د. عليّة" العضو المميز في الحزب الوطني سابقًا، تاريخ مميز يجب الحفاظ عليه، ولهذا قَبِلَ القضية، وكان يود أن تنتهي دون أن يخسر أي طرف من الأطراف، ويخرجوا جميعًا من دائرة السوء، لذا طلب التأجيل أكثر من مرة، لعله يجد مخرجًا لا يضرّه هو شخصيًا وبخاصة وهو يقف دائمًا على مسافة واحدة، مع جميع العائلات الكبيرة، مما يخدم الإمبراطورية، إمبراطورية "علي راشد" الموسومة بين ضفتي قانون العقوبات، أشعل سيجاره الكوبي الفاخر، وعاد بظهره إلى الخلف، وحدّق بعينه إلى الفراغ، وأخيرًا ضاقت عيناه، حيث وصل إلى الحل، طلب رقمًا من هاتفه الخاص السري، انتظر حتى جاء صوت محدّثه، صوتًا معدنيًا خاويًا، صوت "سيد برج" أخبره بموضوع القضية باختصار، أنصت جيدًا للتفاصيل، ولم يد عليه أي انفعالات، وإن تمدّد داخله تساؤل غريب، مبهم، عندما سمع اسم د. "عليّة ياسين"، أم صديقه القديم "كريم صديقي"، وكان هدف "علي راشد" هو "خالد المشاوي" بشخصه فقط.

كان "سيد برج" أوقف سيارته أمام مقهى "فرساي"، اعتاد تلقي مكالمة من رقم مجهول، لا رقم مسجل على هاتفه، حتى رقم أخيه المسافر في الخليج، حرص كالعادة أن يحفظ الرقم عن ظهر قلب، وحرص أن يُخفي اتصاله به، بقدر الإمكان، دلف إلى المكان بعد أن أنهى

محدثته، كان بحاجة إلى الانفراد بنفسه، أرسل رجليه "موكشة" و"جلمبو" إلى مهمة عاجلة، وعاد إلى المكان الذي يشعر فيه أنه حي يرزق.

اخترق بقامته السامقة مدخل المقهى الذي خلا تقريباً من المترددين، وبخاصة مع موجة البرد الشديدة التي داهمت البلاد، كاد يختار مكانه المميز في أقصى زوايا المقهى، لولا أنه رأى "طارق فرساي" يعنف أحد الشباب بطريقة جاذبة للانتباه.

- "طارق"!

هتف بصوته الخالي من الانفعالات، نظر إليه "طارق" فزعاً، وقد لاحظ "برج" أن الشاب الذي يُعنفه هو "كالوشا".

تقدّم "برج" خطوتين إلى الأمام، حتى أصبح أمامهما مباشرة، زر "طارق" كتفيه، تضاءل في بؤرة صغيرة، ارتبك "كالوشا" في نظرات "برج"، تلثم "طارق"، وارتجّت أركانه من نظرات "برج"، وأخبره أنه خلاف بسيط مع كالوشا لأنه لم يدفع حساباً متراكماً ولهذا، لم يجد داعياً أن يكمل، زاد ارتباك "كالوشا"، وأطرق رأسه في خجل، حذره "برج" أن يفعلها ثانية مع صديقه، وأن كل ما يريده "كالوشا" أو يطلبه دَيْنٌ عليه هو "سيد برج".

حاول "كالوشا" أن يعترض لولا نظرات "برج" التي تحوّلت إلى نقطة ما خلفه، إلى "كريم صديقي".

اقترب "سيد برج" من الأخير، ابتسم، فتحًا ذراعيه، وعانقه بحرارة.

دعاه "كريم" و"كالوشا" للجلوس معهما، اعتذر "برج" في البداية، ولكنه استسلم لرغبة "كريم" و"كالوشا"، تبادلًا حفنة من التحيات، طلب لهم "برج" مشروب حمص الشام الساخن، خيم السكون لحظات، حتى قطعه "كالوشا"، مُوجِّهاً كلامه إلى "كريم"، وهو يسترجع ذكرياتهم معًا، وذلك عندما صدمت سيارة "كريم" أمام المدرسة، ردَّ "كريم" بعد أن أبحر قليلًا في ذاكرته، وكيف ينسى وقد وُضِعَ قدمه في الحبس مدة شهر كامل، ولكنه أبدًا لن ينسى أنه السبب وراء تلك الحادثة؛ لأنه كان يتتبع الفتيات المارات أمام حديقة الحيوان، أجابه "كالوشا"، وهو يضع مزيدًا من الشطة على حمص الشام، يومها هربت السيارة اللادا و"برج" ضرب سائق التاكسي، نظر "كريم" لـ "برج" في شكرٍ ممزوج بالعتاب:

- ضربته جامد انت يا "برج"، مع إن الراجل مش هو اللي خبطني، وكان كتر خيره لما شافني واقع في الشارع حب يوصلني.

ابتسم "برج" ربما استعاد ذاكرة حسبها بعيدة، وقال بصوته المعدني وقد اكتسب بعض الدفء:

- لما وقف التاكسي في إشارة ميدان الجيزة، وأنا واقف مستني الأتوبيس، لاقيتك نايم ع الكنبه، و"كالوشا" قاعد أدام، وسألته فيه إيه، قالي عربية خبطتك، محستش بنفسي، غير والراجل كان بيخلص في أيدي.

ألقى "كالوشا" في فيه آخر حبات الحمص، وكاد يسقط على الأرض، بعد أن انفجر في ضحكة هستيرية، جذبت انتباه الجميع، احمرَّ وجهه، وكأن فيروسا قد احترق ذاكرته:

- فاكرين... فاكرين رحلة "إسماعيلية" الي في تانية ثانوي.

ابتسم "برج" و"كريم"، وكأننا أفرج "كالوشا"، عن ذكريات حبيسة خلف ألف جدار، ضحك برج ضحكة خفيفة بينما ابتسم "كريم":

- يومها فضلت انت معلق على أغنية كده، مش فاكرها، كنت بتغنيها في الأتوبيس.

عصر "كالوشا" ذاكرته...

- كانت أغنية "رايقة" بتاعة "حنان".

أجاب "برج"، ناظرًا إليه في دهشة:

- تمام الله ينور عليك يا "برج".

- رايقة ماتروقش ليه، رايقة إيه نبكي عليه، في صباحنا أو مسانا، رامين الحزن ورانا، والدنيا تروق وايانا، ماتر وقش ليه، يااااه كان يوم عالمي.

رددها "كالوشا" متجاوزًا سنينًا مرت، غيرت ما غيرت، تلاقى فيها تاريخهم ثم اختلف المصير.

تنهّد "كريم":

- كنا مش شايلين هم حاجة، وكنا قرييين أوي، أنا، وانت،
و"برج"، و"حداد"، و"فايز".

انفجر "كالوشا" كبالون، وقال بعد أن تماسك:

- بمناسبة "فايز"، فاكرين يومها نزل البحر بلباس ضمور، كان
تقريبًا بتاع أبوه.

ضحكوا بصوت مسموع عندما تذكروا "فايز"، وهو يرتج كطبق
من "الجيلي" بينما أكمل "كالوشا":

- وكل ما يطلع من الميه، ولباسه لازق على جسمه "برج" يحدفه
بالرمل فينزل تاني، وفضلنا كده لبعد المغرب، وهو خايف من "برج"،
ومش قادر يفتح بقه.

سقط رأس "كريم" من شدة الضحك:

- ورحت انت يا فقري مسكت الميكرفون بتاع الراجل صاحب
البدالات اللي ع الشط، وقعد تقوله "اطلع من الميه يا "فايز"... ضهرك
باين".

انهارت مقاومة "برج" وقهقه كزلزال ارتجّ له المكان كله، وهو
يشير بسبابته:

- مكانش ضهره... كانت حاجه تانية...

تضاحكوا ثلاثتهم، أخذتهم الذكريات إلى عالم موازٍ، ذكريات الثانوية، ومدرسة السعيدية، وسط دهشة الحاضرين، وأولهم "طارق" الذي أقسم لكل من رآه -فيما بعد- على أنه سمع ضحكة "سيد برج".

حتى "برج" نفسه اندهش يومها، عندما صادف قلباً، ما زال يسكن بين ضلوعه، وهو يعد "كريم" في قرارة نفسه، أنه سوف يُنهي مشكلة د. "علية" إلى الأبد، حباً وكرامة، مهما يكلفه الأمر، وسيظل الأمر سرّاً، حتى لا يرى ذلّ المعروف في عيني صديقه.



على غير العادة...

"فايز النخيلي" يقضي ليلته في المنزل، يداعب طفله الصغير الذي يلهو بقطاره الجديد الذي أحضره للتو، غنى له بصوته الأجش أغنية "توووت" "توووت"، مهدراً نصف كلمات الأغنية، ومحرفاً لثلاثي اللحن، تابعه الصغير في اهتمام، ممسكاً أذنه وأنفه كمكتشف تائه في قارة مجهولة، لم يكثر كثيرًا المغادرة الأب إلى غرفة نومه، كانت "سماح" ترتدي ملابس شتوية ثقيلة، مع حرارة المدفأة التي بددت برودة الغرفة، جلست مستندة إلى ظهر السرير، ممسكة بجهاز التحكم "الريموت"، وهي تتابع فيلمًا كلاسيكيًا، وبدا الاهتمام والتركيز يحتل قسماتها، حتى لم يبد منها التفاتة نحوه، جلس بجوارها في صمت، كانت تتابع فيلم "نهر الحب"، المأخوذ عن رواية "آنا كارنينا" لـ "تولستوي".

تعشق هي هذا الفيلم، ترى فيه أنموذجاً للرومانسية، وهو الذي يحكي عن زوجة وأم، ترتبط بعلاقة حب مع شاب، تطلب الطلاق، فيرفض زوجها، ثم يخبرها بين ابنها، وحياتها الزوجية، وإما الحبيب، فتختار الحبيب، ويرصد الزوج دليلاً على خيانتها، وبعد أن يموت حبيبها، تحاول العودة إلى ابنها، فيرفض الأب ثم تقرر هي أن تموت.

أي رومانسية هذه التي تحرض على الخيانة!

وأي أم هي التي تتخلى عن وليدها من أجل رجل آخر!

الأحداث تجبر المشاهد أن يكره الزوج المخدوع، ويتعاطف مع الخائن، والخائنة، ويتناسى مصير الطفل الذي هجرته أمه بحثاً عن شهواتها...

صَحِكَ "فايز" عند المشهد الأخير، عندما دهسها القطار، القدر يأبى إلا أن ينال الأثم جزاءه، بُهتت "سماح" من رده فعله، كظمت غيظها من كومة القطن التي تتمدد إلى جوارها، كادت تفلت من شفيتها زجاجة لبؤة عنيدة، إلا أنه وثب من مكانه، أغلق التلفزيون، وجلس على السرير عند قدميها، قبالتها مباشرة، نظر في عينيها، وتحولت عيناه إلى عيني غول، ظنت في البداية أنه مخمور، فاقداً لصوابه:

- عرفتي أن "كريم صدقي" رجع؟

تلعثمت متحاشية النظر إلى عينيه، وحاولت أن تبدو أكثر تماسكاً:

- "كريم"! رجع... وأنا اعرف منين يعني؟

زَمَّ شفتيه، تكذب، عيناها فضحتا الخبيئة، فكَرَّ أن يلتقط هاتفها الجوال، ويكشف عن رسالة "نهى"، ولكن لا، ربما مسحتها، حتى لو وجدها، ستنكر، وتستنكر، وتتجاهله، أو تجهل عليه، ستنفي أنها قرأتها، ولو قرأتها، ستدعي أن الأمر كله لا يعينها، مثل "لويزا" الطيبة، وحتى لو أثبت كذبها، ستسأله: ماذا بعد؟

يعرف أنها تكذب، وتتحرى الكذب، ويعرف أنه لا يفترى، ولا يدعي، ويعرف أنه يحبها، يهواها، يعشق شمسها، وظلها، ولمستها ولكن لماذا؟!!

بقدر حيرته كانت حيرتها، لا تدري لماذا تكذب؟ ربما الارتباك، ربما نظراته، لمحاته، تلميحاته، هل عرف برسالة "نهى؟ لقد حرصت أن تمحوها بعدها، هل يتجسس عليها؟ فسمع مكالمتها منذ ساعات! مستحيل.

وحرصت أن تكلم "كريم" بعد أن تثبت أنه لا يزال في المكتب، وكانت حجتها أن "محمد" يريد القطار اللعبة، ثم لم تتجاوز المكالمات الثلاث دقائق، كان فيها "كريم" كما اعتادت باهتًا، خاويًا، محايدًا، أيقنت اليوم أنه يُخلِّق خارج مدارها، وأن بينهما مقدار بضع سنين ضوئية، تكره حبها له، كما تكره هي حب "فايز"، وقلبها زائغ بين ما تريد وبين ما تُحِبُّه لها الأقدار.

كانت تعي خائنة أعينه، "فايز" دائمًا كتاب مفتوح، ترى قطار طفلها الصغير يدخل غرفتها، يتضخم، ويتضخم، يداهمها في شراسة،

تود أن تصرخ، والصرخة لا تغادرها، فقط تسمع صرخات طفلها،
وعلامات الرعب تكسو ملامحه، والقطار يقترب، لا مفر، سيدهسها لا
محالة، تصرخ أخيراً و...

وتستيقظ... وتراه نائماً إلى جوارها، مغمض العينين، وعلى وجهه
النائم ابتسامة، ابتسامة ذئب جريح، أيقنت أن في سرداب عقله تعربد
جنياث، وفي قلبه ينوح شيطان مريد.

* * *

الفصل السادس

أقسم بالله العظيم أن أحافظ مخلصاً على سلامة الوطن والنظام الجمهوري، وأن أرعى مصالح الشعب وأحترم الدستور والقانون.
قذفها "حسين عبد العاطي" في وجه الجميع، مؤرخاً لعصر جديد، عصره هو.

* * *

أذاعوا الجلسة على الهواء، ليراه. رأى المقت والازدراء والاستخفاف والسخرية في عينيه. رأى أحلامه تتبخر في الهواء، تتصعد بيد صديق الأمل. رأى "فايز" نفسه على فوهة البركان، يسومه سوء العذاب، وهيب الغيرة يجوس في دياره، يحيله إلى أثراً بعد عين، وقدم "حسين" تطحن ضلوعه، تسجن قلبه في "الماسادا"، وتسوق أحلامه سبائاً في طريق "بابل".

* * *

لم يكمل "حداد" صناعة غدائه، وهو يتابع أولى جلسات المجلس الجديد، حاول أن يزيح صخرة البازلت الجاثمة فوق صدره، أدرك وقتها أن الثورة انتهت، اعتقاد لا ريب فيه.

بعد التنحي، حلم بأولى جلسات البرلمان بعد الثورة. ولكن ما علاقة هؤلاء بالثورة؟ ما علاقة "حسين عبد العاطي" بالثورة؟

أغلق التلفاز، جمع حبات الطماطم، والخيار، وحزمة الخس الجافة، لقد فقدَ شهيته بالفعل، ولن يستعيدَها ألف طبق من السلطة. أبصر حبات الطماطم، سموها قديماً "خوخة الذئب"، اسم مخيف، حذروا منها، حذروا أنها تسبب الوفاة، فاكتفوا بها نبات زينة في حدائقهم.

تذكر أيام الثورة، سموها بعدها "مؤامرة"، توصيف عنيف، حذروا منها، حاذروا سببها للفوضى، واكتفوا بها ألواناً على الأرصفة وعلب المناديل والمقالات والحوارات ويوم إجازة يزيد راحتهم.

صَحِكَ "حداد" بمرارة وهو يحادث نفسه:

وكانت منتهى السخرية أن يصاب الأوروبيون بالإسقربوط "ضعف الشعيرات الدموية" الذي كان علاجها هو فيتامين (ج) الموجود في الطماطم نفسها التي كانت فوق رؤوسهم، وغاب عن واقعهم قدرها وقدرتها. كانت الثورة هي الترياق وليست السُّم، كانت ترياقاً للجسد الذي دبغه الفساد، والجهل، والمرض، والرجعية.

ندموا بعد أن ضاعت أو كادت.

ضربة بداية البرلمان مخزية، الخلافات لا تبشر بسوى مزيد من الانشقاقات، حتى الصيغة القانونية للقسم اختلفوا فيها!

حتى النائب الليبرالي الذي أصر على إضافة جملة (وأن أعمل على استكمال مطالب ثورة ٢٥ يناير، وعدم إضاعة حق شهداء الثورة) هل كان يعني أن أهم أسس الثورة هو الالتزام بالدستور والقانون، وأن حق الشهداء لن يعود إلا بالقوانين، والتشريعات، والإجراءات التي تعيد الحق لأصحابه؟

تُرى هل أنهى المثقفون جدالهم؟ أم في فتنة المصطلحات سقطوا؟ تفرقوا في تيه الجدل الأبدي شيعًا، خرقوا السفينة، وكسروا العصي، وعقروا الناقة، وأصبحوا نادمين.

استبدل ملابسه، غادر جدران شقته التي بدأت تنكمش، يختنق، تسلب أنفاسه، التقط هاتفه المحمول، طلب رقم "كريم"، جاءه الرد في موسيقا كلاسيكية تأتي خلفية لصوت "كريم"، الذي أتى بدوره هامسًا، تلقى "حداد" من "كريم" كلمات تعتذر منه، مع وعد آخر باللقاء غدًا.

* * *

كان المطعم الإيطالي "إل مولينو" بالمعادي، أشبه بجذيرة كلاسيكية، في بحر نائر، كان لأضوائه الخافتة، وموسيقاه الناعمة، تأثير خاص على الموجودين، شكر "كريم" النادل الذي أكمل رصّ الأطباق على الطاولة، نظرت "داليا" إلى الأطباق المتناثرة في غير اقتناع.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يدعوها "كريم" إلى المطعم نفسه، سألته خجلى عن اختياره لهذا المكان خاصة؟ وهل اعتاد التردد إليه؟

لم يرد... "سارة" شبح يبتسم، أعادت السؤال، قال إنه أتى مع
أصدقائه مرات، لم تقتنع، ولم تعترض.

شهر مرّ، مع "كريم".

تقاربت المسافات، التحمت في المدار نفسه، نبتت في القلبين أزهار
اللوّز، وغرّدت منفردة طيور التيراني.

فرّض وجوده في عالمها، استعاد بوجودها بسمته. سطرا بأبجدية
متفردة، عنواناً جديداً، تصدر ناصية صفحة بيضاء، وثّقا يوم لقاءهما
أول أيام التقويم.

نظرت إلى عينيه، ازدادت لمعاناً وبريقاً، تبادلا كل الذكريات،
ليجمعا تاريخهما المنفصل، كمقدمة مختصرة، قبل بداية الفصل الأول
لتاريخ مشترك، حكى كل منهما ماضياً مبتوراً-فالتاريخ لا بد من أن
يبقى مبتوراً-ناقص الأسطر، منسوخ الكلمات، اقتطع من تاريخه أباه،
و"سارة الحسيني"، ونسخت من كلامها كل ما يخص أخاها "سعد"
و"معيد الفارما".

اقترب بأنامله من أطراف أناملها، سحبت يدها في خجل، التقطت
كوب الماء بيسراها، في ارتباك، رشفت منه رشفتين، ما زالت تعاني ألماً في
يدها اليمنى، حتى بعد أن تخلصت من الجبيرة، منذ يومين، كان معها
هناك، مرّ شهر كامل من إجازتها المرضية، لم يكن فيه سوى "كريم".

تدرك بغريزتها الأنثوية أن هذا القلب يحوي مئات الأسرار، ودت
لو تخترق حجراته السحرية، هي نفسها تحمل في صندوقها الأسود
حكايات لم يَحْنْ بعد أوان البوح بها.

انشغل عنها دقيقة، ردَّ فيها على مكالمة تليفونية، عرفت أنها من
"حداد" فيما بعد؛ "أحمد حداد"، أستاذها، الذي تحول فجأة إلى بابا
نويل الذي أهدها نصفها الآخر في موسم أعياد الميلاد، شعر أنها لا
ترتاح لجو المكان، نظرت وكأنها تكتشف المكان بعينها، كان رونقه
بديعاً، ونسائمه رائقة، ولكنه هادئ أكثر من اللازم، مصطنع كمزهرية
الورد التي على الطاولة، تعشق الأماكن الحية حتى لو كانت أقل تنظيماً
وأدنى جمالاً، قام من مقعده، وترك مبلعاً من المال وحثها أن تختار المكان
الذي تريده، حاولت أن تؤجل الفكرة إلى المرة القادمة، ولكنه أصرَّ،
طاوعته على شرط أن تتكفل هي بالوليمة المنتظرة.

أدرك "كريم" أن المكان الذي قصده "داليا" مختلف فعلياً، الأزمة
الوحيدة التي واجهته هو صعوبة ركن سيارته لضيق الشارع الخلفي
لقسم "مصر القديمة"، بجوار محطة المترو، وبالتحديد عند أحد محلات
الكباب والكفتة، لم ينكر أنه أكل حتى امتلاً أول مرة في حياته، وهي
تراقبه في سعادة.



أخيراً ...

أنهى "كالوشا" عمله بالمطبعة، أثر أن يتم تجهيز ملفات الإيرادات والمصروفات مبكراً، وحتى الرواتب الخاصة بالعاملين مع إضافة نسبة الزيادة المتفق عليها مسبقاً مع أستاذ "هشام" -صاحب المطبعة- والتي لم تتجاوز نسبة السبعة في المائة، بعد أيام من المفاوضات بين الأخير ومندوبين عن العمال، استخدم فيها أستاذ "هشام" حيلة ماهرة، بعد أن نما إلى علمه تدمير العمال، ورغبتهم في زيادة تتجاوز الثلاثين في المائة لمواجهة موجة الغلاء التي ضربت البلاد، والمظاهرات الفتوية التي تناثرت كتوابع زلزلة يناير العظمى، وكان بديلهم الآخر هو الإضراب عن العمل.

أسرَّ أ. "هشام" للمحاسب السابق أنه يُدبر إجراءات التصفية، ولن يحصل العمال الذين تخلفوا عنها على أي زيادة، وتركه في المواجهة مما أثار عليه نقمة العمال، وتدخل الأستاذ "هشام" المخلص في الوقت المناسب، وينقذ الجمع من سطوة المحتسب المتجبر العاتي في غيه، وما بين التصفية والإضراب كانت النسبة المرضية للطرفين، مع إقالة المحاسب الغادر أو المغدور بين قوسين.

فكان "كالوشا" هو المحاسب الجديد، أو ورقة جديدة سوف يحين وقتها في مقامرة سيزفية^(١) بين أصحاب المال، وأصحاب البنون.

(١) نسبة إلى سيزيف في الميثولوجيا الإغريقية. وتعني اللانهاية .. استنباطاً مما حدث لسيزيف من عقابٍ أبدى لا ينتهي.

كره "كالوشا" -المحاسب الجديد- جو المكان، لم يشكُ معاناته
لأبيه، فالجواب معروف: متكاسل، متقاعس، مأفون.

نقل الصورة بأمانة إلى "نهي" التي صرخت فيه ثلاث مرات.

الصرخة الأولى لأنها الوظيفة الوحيدة التي عمل بها بمؤهله، وأن
الآلاف غيره يتمنون فرصة عمل، والصرخة الثانية أن هذا الرجل
الظالم المنافق تقبله بلا أوراق، حتى لو ظن العمال أنه تابع له، وجاسوس
عليهم، عليه ألا ينفي هذه التهمة، بل على العكس، عليه أن يؤكد،
فقيمته في العمل هي قيمة من يتبع، والصرخة الثالثة أنها اقتربت من
الثلاثين، وتحشى أن يسقطها من حساباته، إن كان له حسابات.

ندم بعدها، وهو من لا يعرف الندم، لم تكن "نهي" هي الشخص
المناسب لهذا الشأن، لا يقدر أحياناً أو بالأحرى دائماً المسافة بين "نهي"
الصديقة و"نهي" الحبيبة، من الطبيعي مثلها مثل أي أنثى تنشد حظوة
للرجل الذي ترتبط.

ودَّ لو استشار "حداد" من البداية، يرغب من داخله عن
الاستمرار، فهو أبعد ما يكون عن تحمُّل هذا الصراع، فهو يرى الدنيا
أقل تعقيداً مما يظنون.

انتهت كل حسابات شهر "يناير" وقدمها إلى صاحب المطبعة
الذي أسره هذا المجهود الخرافي الذي أظهره "منيب" في اليومين
السابقين، عرض عليه أن يحصل على إجازة يستعيد بها نشاطه، لأن مع

بداية "فبراير" وبعد إلقائه لفوضى الرواتب خلف ظهره، سوف يبدأ العمل الجاد من مراجعة أوامر الشراء، وعروض الأسعار، والدورة المستندة، وإعادة هيكلة كل ما يخص المطبعة؛ شكره "كالوشا"، ولكنه طالبه بإرجاء أمر الراحة إلى الأربعاء القادم، الموافق الأول من فبراير، وعندما استفسر الأستاذ "هشام" عن السبب، أجابه "كالوشا" ببراءة أنه سوف يكون في "بورسعيد"، لمشاهدة مباراة الأهلي والمصري البورسعيدي، عندما أبلغ "نهي" فيما بعد، كادت تُلقي بنفسها تحت أتوبيس هيئة النقل العام، ووصمته كالعادة بالمتعوه الساذج، أدهشته بردة فعلها لأن أ. "هشام" نفسه أعجبتة الصراحة، وطلب منه وقتها أن يفسر له كلمات أغاني الألتراس التي لم يفهمها، فغرت وقتها فاهها، وقالت في ذهول:

- وقلت له بقي؟

هَزَّ رأسه نفيًا، وهو يعبر معها نفق "نصر الدين" الفاصل بين ميدان "الجيزة" وأول "الهرم":

- إنت مجنونة. وده حاجة تتقال!

تنهدت غير مصدقة، وهو تضع راحتها فوق قلبها:

- الحمد لله، أيوه كده.

أردف في بساطة:

- أنا غنيت هالة.

توقفت فجأة، وجحظت عيناها مشدوهة:

- إزاي؟

تراجع خطوتين، متحاشياً برك الماء المتناثرة على بلاط الرصيف الواسع، وبدأ يقفز في مكانه، كما يفعل في المدرج، متجاهلاً نظرات المارين، وارتابك "نهي" التي تمنى من الله وقتها، فقط أن تتصدع الأرض وتبتلعها، وهو يردد:

(أوووووووووووه... أعظم نادي في الكون... لو كل الدنيا ضده هفضل أحبه بجنون... يوم نصره ليا عيد... عمري ما هكون بعيد... يوم ما أبطل أشجع هكون ميت أكيد... يوم ما أبطل أشجع هكون ميت أكيد).

* * *

مكالمة غريبة...

من محامي السيدة "سناء" أرملة أبيه، بدا صوته متوترًا بعض الشيء، وهو يطلب مقابلته عاجلاً، حاول "كريم" أن يعتذر لضيق الوقت، ودَّ أن يستوضح الأمر، ولكن صوت المحامي، وطريقته، حسماً القضية، فوافق "كريم" بعد تردد، واعدّه بعد تذبذب فور عودته من العمل، ما يعادل الساعة مساءً، في المكان الذي يحدده المحامي، وجاءه الطلب الأغرب:

(شارع ثروت السيدة زينب).

شقة أبيه الراحل أو بالأحرى، شقة جدته، المكان الذي شهد جزءاً
مُضيقاً من طفولته، يتذكر جدته جيداً، كانت فيضاً من الحنان، ارتبكت
الحياة بعد موتها، وبعد طلاق والديه، أصرَّ الأب أن يعود إلى شقته
القديمة، بعد الطلاق، وعاش هناك مع زوجته.

ولكن لماذا يريد المحامي أن يقابله هناك؟

لقد أكمل الإجراءات، وتم تقسيم الإرث، كما ارتضت السيدة
"سنة"، وكانت هذه الشقة لها، لم يعترض، ولم يحتج، كان أجل ما
يشغله هو الانتهاء من كل شيء، فهو شخصياً لا يريد شيئاً من
"عبد الحميد صدقي" حياً أو ميتاً، فلم هذا اللقاء؟

يبدو شهر يناير أطول مما ينبغي، وللمصادفة ينتهي الشهر اليوم
بالثلاثاء، سمع كثيراً عن تشاؤم بعض الناس من هذا اليوم، لم يقتنع،
مع أن معظم الأحداث السيئة حدثت يوم الثلاثاء، طلاق والديه،
حادثة السيارة، رسالة "سارة".

لماذا يظن أن اتصال المحامي خبر سيء؟

حاول أن يطرد الأفكار السلبية، ازدحمت السيارات في الطريق،
تخطت الثامنة، ولم يصل حتى إلى شارع القصر العيني، كان يأمل أن
تنتهي رحلته في موعدها، ويعود إلى "فرساي" لمقابلة "حداد" الذي
أخلف معه أكثر من موعد، بسبب "داليا".

(صوتك... صوتك أرق من النيات).

رَنَ هاتفه بنغمة "داليا" المميزة التي أرفقها "كالوشا" عنوة، بعد أن قص عليه الحكاية الجديدة، وأخذ عليه موثقًا ألا يخبر أحدًا، وبخاصة "حداد" فلم يحن الوقت المناسب.

اعتذر منها فلقد كان يوم عمله شاقًا، نال كل عزمه، وطفى على وقته وهمته وأنه اعتزم أن يكلمها مرات، ولكنها تعلَّم برداءة التغطية في الصحراء، تأتي ساعة وتغيب مثلها، إنه الآن في شارع القصر العيني مُتَّجِهًا إلى السيدة زينب، يتمم مهمته وسوف يحدثها بعدها، ودعها بكلمات رقيقة وما مرت دقائق قليلة، ووجد نفسه قبالة بيت الذكريات، بيت الجدة، تغير المكان كثيرًا، نجح في الوصول، بعد طحن "قرن أمون"، وعصر خلايا الذاكرة، اتصل بالمحامي، وسرعان ما وجده أمامه، خارجًا من مقهى مجاور، اعتذر من التأخير، تفهم المحامي، وتفوه بكلمتين عن زحام "القاهرة"، أجرى المحامي مكالمة مع السيدة "سناء"، توجَّهًا بعدها إلى عمارة رقم ثمانية وعشرين ...

فتحت الخادمة الباب، ودلفا إلى الشقة، لم تتغير كثيرًا، دقَّ قلبه في عنف، بعد أن جلس على مقعد الصالون المذهَّب، وواجه حائطًا على جزئه السفلي استندت مدفأة رخامية قديمة، يتذكرها جيدًا، ما زال أثرها وشمًا فوق جبينه، تحسَّسه تلقائيًا، رفع عينيه إلى أعلى الحائط، لتقع عيناه على ثلاث صور مؤطرة، في المنتصف صورة أبيه مع جدته وهو في سنِّ الشباب، على يمينها صورة الأب مع السيدة "سناء" وهي تحمل طفلًا صغيرًا لا تظهر ملامحه، وعلى يسراها تبقى صورة الأب و... وهو يقف بجانبه.

صورته مع أبيه وهو في سن الخامسة، اقترب من الصورة تلقائياً،
كومة لحم مرتعد، متهدج الأنفاس، صعقه رجف اللحظة، وركمه صداً
الذكريات، لم يشعر إلا وييد صغيرة تمسك طرف سرواله، وتهزه برقة،
نظر خلفه، لم يجد إلا المحامي، يرتشف فنجان القهوة، نظر إلى أسفل،
ووجدها... ملاكاً صغيراً يتسم، عرفها في اللحظة، لم يملك سوى
الابتسام للموناليزا الصغيرة، وهي تسأله:

- إنت اسمك إيه؟

صوت ملائكي يأتي من عالم آخر، تأمل ملامحها، ونظر إلى الصورة
المعلقة على الحائط، تحمل ملامحه نفسها، فهي في السن نفسها-تقريباً-
أطلقت سهمها على قلبه، وأصابته مكنه، أمسكها من كتفها بتحنيان
واضح:

- أنا اسمي "كريم"... "كريم صدقي"... وإنت!

- أنا اسمي "مريم"... "مريم عبد الحميد أحمد صدقي".

نظر إلى صورة الأب، ثم قبّل رأسها:

- شاطرة!

ثم أردف بعدها وهو يشير إلى دُمية تحتضنها:

- الله... إيه العروسة اللي شايلها ده!

نظرت إلى دميتها، ولاحت الدهشة بين حاجبيها الصغيرين:

- عروسة إيه ... ده دوبي!

- اسمه دوبي ... جميل أوي ... وإيه النضارة الجميلة ده!

- دوبي ده بييجي في التلفزيون ... في دريم بارك.

- وإنت بتحبي تروحي دريم بارك!

- أنا عمري ما روحت ... علشان مامي تعبانة.

قالتها في حزن طفولي، رَقَّ قلبه، واحتضنها، وهو يرفع عينيه إلى
"سناء" التي ظهرت خلفها، وهي تبسم في ضعف، وهي تتمتم:

- الحمد لله.

جلسوا جميعاً، وأنصتَ إلى السيدة التي تتكلم بإعياء، وانشغل
المحامي بالكلام في هاتفه الجوال، بينما التصقت به "مريم"، وكأنها
تعرفه منذ سنين، وأخذت هاتفه، أحزنها عدم وجود ألعاب، فقررت أن
تطلق العنان لكاميرا التصوير، لتلتقط صوراً عشوائية، كان يرتب على
شعرها الناعم، وهو ينصت إلى "سناء" التي عرضت عليه عرضاً
واضحاً... لم يفهمه.

* * *

لا أشعر بشيء.

فقط هدوء ما بعد الزوبعة ...

آخر ما أتذكره، هو أنني كنتُ بالمدرج، وعلى قلبي حزن ما بعد الهزيمة، وبجواري أصحابي، نواسي بعضنا البعض، فهي في النهاية مباراة كرة قدم، لملنا بقاينا استعدادًا إلى رحلة العودة، كنت أنوي المرور-كالعادة-على الحاج "حسن حداد"-والد صديقي "أحمد"- كنتُ أودُّ الاطمئنان عليه، كما اعتدت عند زيارتي لـ "بور سعيد"، وعند باب الخروج المغلق، سمعت صرخات وصيحات، لم أسمع مثلها قط و... زعق صوت عنيف في أذني، وألم مبرح دكَّ عظامي و... لا أذكر شيئًا.

سمعتُ امتداد اسمي بين الضجيج، يتردد صده، وكأنها يصدر من بئر خاوية، دوار عنيف يلف رأسي، وتيار بارد يمر من صدري تحت القلب تمامًا، حاول أحدهم أن يغرس شيئًا ما في ذراعي، لا أعرف إن كان قد نجح أم لا، فأنا لا أشعر إلا ببرودة عمدت الضلوع، يبدو أنه يتصبب عرقًا، اختفى عن عيني لحظة وعاد، وكأنها ارتجَّت من شيء ما، الأصوات هنا أصبحت غير مسموعة، ولكنني أسمع صوت طيور تصدح، تأتي من مكان ما، مكان بعيد، أرى كل ما فات أمام عيني، أبي، وأمي، وأخي "نجيب"، وأصدقاء المدرسة، والجامعة، ومدرج الاستاد، و"نهي".

أرى نفسي وأنا ألعبُ بالكرة خلف فندق "سياج"، وفي ملاعب "السعيدية"، أرى نفسي مع أبي في جامع "عمرو"، ومنتظرًا عم "موريس" أمام كنيسة "مار جرجس"، ومرتبًا "نهي" أمام "الارين" على كورنيش "المنيل".

أنا لم أؤذِ أحداً، ولم أظلم غيري؛ ربما لم أكن على قدر المسؤولية، ربما زادت الهوة بيني وبين أقراني، ولكنني لم أحسدهم قط، بل على العكس كنت فخوراً بهم، ربما سخرت من بعضهم يوماً ما، ولكن كان بدافع حبي لهم، فليسأخني الله.

التيار البارد يتمدد، أكاد أطيّر، أنسحب من نفسي رويداً رويداً، الوجه الذي أمامي يبدو منفعلاً، يبحث عن شيء ما، لا أدرى، أراه فقط يبتعد ويبتعد، السماء تبدو جليلة من هنا، والأرض تبتعد بعض الشيء، التيار البارد في صدري يتمدد، يملؤني، يحملني لأعلى كفقاعة، أراني راقداً هناك، مبتسماً كالعادة، قلقاً بعض الشيء، أشتاق إلى أبي، وددتُ لو أرتمي بين ذراعيه، ولكن لا أملك الآن سوى أن أقول... وداعاً.

منيب إبراهيم الكيال "كالوشا"

عادت الطائرة العسكرية محملة ببعض الجثامين، وبعض الحالات الحرجة، وألمٍ يمتدُّ من ساحل البحر حتى منبع الشمس.

* * *

تراصوا أمام السراقق، جذوع نخل مسندة، تهزهم أكفُّ الوافدين، وتشيعهم نظرات المودعين، تخلف عنهم الشيخان اللذان سقطا فوق مقعدي الدهول.

آيات من قرآن يُتلى، لا يقطعه سوى نشيج النسوة المتقطع، القادم من وراء حجاب، وتمتمات وهسات تناثرت فوق شفاه غير مصدقة.

وبين البكاء والذهول.

كانوا ...

* * *

بعد أن غادر القارئ، وشيَّعه "نجيب"، انفض الجمع، إلا في جزر متناثرة، بقيت في تجمعات صغيرة، تتبادل حديث هامس، وتتوج حزنها بإحراق مزيد من التبغ.

خرج "حداد" و"كريم" من السرادق، وفي حلقيهما غصتان وحسرتان، وفي قلبهما فراغ، تبعهما "فايز"، تبادلوا سلامًا باردًا، وبقي كل منهم في شروده، حتى ظهرت "نهي" في سوادها، محنية الظهر، تستند على ذراع "سماح"، حيث طفرت عيناها فيضًا من الدمع، بعدما ظهروا قبالتها، رثوا لحالها، وقاوموا حزنهم، ليواسوها، بينما ازداد نحيبها، تحلقوا حولها، تجاهل "كريم" نظرة "سماح" التي أربكته، حدقت فيه، نظرات مزقت صدر "فايز"، وكشفت عن ضلوعه، انضم "حسين" إليهم، بعد أن أتمَّ توديع مندوبي الجهات الرسمية، تجاهلت "نهي" مواساته، ربت على كتف "كريم"، وقبل توديعه لـ "حداد"، ألقى على "فايز" نظرة خاوية، وعلى شفثيه آثار بسملة ساخرة، ابتلعها "فايز"، فأحرق ضلوعه العارية، حانت من "حداد" التفاتة نحو "برج"، الجالس هناك، كشجرة قديمة، تقدَّم نحوه خطوتين، توقَّف في منتصف الطريق، تابعت نظراتهم في ترقُّب، بينما اختلست "سماح" نظرة أخرى إلى "كريم"، تلقاها "فايز" كسهمٍ مسموم، بين الضلوع

المحترقة، رفع "برج" عينيه، لتلتقي مع نظرة "حداد"، في صمت،
أطرق بعدها "برج"، ثم غادرهم، ولم يُعقب.
تفرقوا ...

وفي قلب كل منهم نبت جرح، سقاه نرف حار، وراحت البسمة
إلى زوال.

* * *

جلست إلى جواره صامئة، تابعته وهو يولي وجهه شطر ولديه
"حسن" و"معاوية"، وهما يلعبان أمامهما، في حديقة "الفرما"، أيام
مرت، والحزن لم يفارقه، لم تعدد "حنان" أن تحترق صمته، تتركه تمامًا،
حتى يتكلم وقتما يشاء، تعلم أن الصدمة قاسية، ولكنه قوي بما يكفي،
كي يتجاوزها بسلام، ربت على كتفه في حنان، وبقي هو في عالمه بلا
حراك، لم تخبره حتى أن علقه أخرى تكونت في أحشائها...

(لا أرى سوى ظلمة وظلم، وكأننا نعاقب على ذنب لم نقترفه، فلم
يجد "ست" مكانًا غير هنا كي يقتل أخاه "أوزوريس"، هنا عند بوابة
الأنبياء، وطريق الأسباط، ودعوة النبي يعقوب الأبدية في اللوح
المحفوظ: قَالَ تَعَالَى: ااعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١١﴾ فَلَكَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ
ءَاوَيْنَ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٢﴾ قَتَلَهُ فِي
طريق العائلة المقدسة، سَفَكَ دمه عند قبر "جالينوس"، نثر أشلاءه على
خطى الفاتحين، اهدموا "بورسعيد"، لو أردتم دمروها مع "بلدوين"،

وفلول "الفرس"، حاصروها مع جنود الملكة في العدوان، ولكن أبداً
لن تمنعوا عنا الحياة.

ترى ما طعم الحياة من بعدك يا صديقي؟
وأين لنا من أمير للسعادة... (سواك؟).

* * *

(أنا القاتل الحقيقي، أنا الراعي الرسمي لهذا العالم، أنا الطرف
الأول من عقد المؤامرة، أنا الجاني، تأمرت، وائتمرت، وتواطأت،
وحرقت، وقتلت، وهدمت، وحطمت، ودمرت. لم أقتل صديقي،
ولكني قتلت ألف صديق، رأيته في عيني "حداد"، واضحة كشمس
النهار، رأيته قبلها في اليوم نفسه منذ عام واحد، لن يصدق أنني بريء
هذه المرة، لأنني حتى لا أصدق نفسي، رحمك الله يا صديقي).

* * *

(رأيت في عينيها، ما زال هناك، يقظاً، مستعراً، تماماً كالبركان الذي
يشتعل تحت ضلوعي، وقد أحرق قلبي، أو ما تبقى منه).

وزادتها بسمه ابن حفار القبور الساخرة التي انتزعت روحي،
اقتلعت كل ما نبت، وخلفت هشيئاً تذروه الرياح، ولكن تبقى العنقاء،
راقدة تحت الرماد، وما هي إلا أيام، وتبعث لتلتهم الجميع... وبلا
(استثناء).

* * *

"خطوة أخرى للأمام، وليست أخيرة، البومة تنظر دائماً إلى الأمام، ماضي الأشياء لا يعني سوى موتها، والموت صديقي القديم، بصرت تجاهل "نهي"، لا يهمني، فهي لا ترى مني سوى الماضي، والماضي لا يستحق سوى السخرية، كلهم أسرى للذكريات، أما أنا ...".

* * *

صوتك... وسط القلوب انا بعرفه... صوتك... مليون كمنجة
يعزفوا... صوتك... صوتك أرق من النايات.
(رن هاتفني بنغمة "داليا" أسمعه بصوتك أنت... لا أرد... لماذا
تركتني يا صديقي؟ وليس لي من البشر... سواك؟).

* * *

(لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْآبِدِيَّةُ).

* * *

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

(صبر جميل، وعند الله أحتسبُ ابني، اللهم إني فعلتُ ما أمرتني به؛ فأنجز لي ما وعدتني، ولو بقيَ أحدٌ لأحدٍ، ل بقي محمد ﷺ لأمته
﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
^(١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿

* * *

الفصل السابع

خيَّم السكون عليهما، ناظرًا إلى المقعد الثالث الذي وضعه "طارق فرساي" عن غير قصد، تذكَّر بعدها، وحاول أن يرفعه، لولا إشارة من "حداد"، هاتف "كريم" يرُنُّ في إلحاح، كان محامي السيدة "سناء"، أرملة أبيه، لم تسعفه الأيام في التفكير فيما عرضته عليه:

الوصاية على "مريم".

أطلعته وقتها على بعض التفاصيل عن حالتها الصحية المتدهورة، وخوفها على ابنتها الوحيدة، وبخاصة أنها غصن بلا شجرة، ولا يوجد من تأمنه على ابنتها، سوى أخيها!

هي لا تعرف بالتأكيد طبيعة العلاقة بينه وبين أبيه الراحل، وأنه شخصيًا ليس على هذا القدر من المسؤولية، وأنه يراوده أحيانًا حلم العودة إلى "الإمارات". لا يعرف كيف يصارحها بكل هذه المعطيات، يتذكر كلمتها الأخيرة، وهي تودعه، إنه يحتاج أن يتعرف شخص يهتمه، نظر لها في دهشة، وأشارت إلى الصورة:

"عبد الحميد صدقي".

صورته أصبحت على الهاتف بفضل التصوير العشوائي لـ "مريم"، وقد التقطت صور عدة منها صورة للمحامي مفتوح الفم، وهو يحشر قطعة من الكعك، وصورة له مغمض العينين، وأخرى مهزوزة لوالدتها، والغريب أن الصورة الوحيدة الواضحة المعالم، المتزنة الإنارة، هي صورة الأب.

لا يعرف بماذا يرد على المحامي، فقرّر أن يتجاهله مؤقتاً، لولا الحالة النفسية التي يمر بها "حداد" لشاوره في الأمر، وصارحه بموضوع "داليا"، ولكنه بدا مستسلماً لحزنه، وقد تمكّن منه تمكيناً.

تنهّد "حداد"، ولاحظ على شفّيته ابتسامة ساخرة، وهو يُلقّي نظرة على التلفاز، وهو يحمل صورة "حسين عبد العاطي"، ثم طلب من "طارق" أن يرفع الصوت قليلاً، كان "حسين" يتكلم عن الانتخابات الرئاسية، والرئيس التوافقي، والجمعية التأسيسية للدستور، والفرق بين الديمقراطية والشورى، وتعارض الديمقراطية والليبرالية، وكأن كل البرامج أصبحت حكراً على "حسين عبد العاطي"!

قالها "كريم" في تساؤل، ردّ عليه "حداد" في مرارة، دون أن يرفع عينيه عن الشاشة، إن "حسين" طوّع الأحداث لصالحه فهو أثقّبهم فهمًا وأرجحهم عقلاً، قرأ، فهم، عرّف، بحث، حتى عظم شأنه واستفحل حاله، لم يدخر جهداً ولا عزمًا أن يصل إلى مبتغاه، لا فقر أبعدته عن مقصده، ولا حاجة فترت قواه، اختزل الدنيا في شخص واحد، شخصه

هو، والحظ لا يأتي إلا لمن يستحقُّ، أمّا من جنح إلى السلم وارتضى من الحقيقة سبيلاً واحداً، لا إفراط ولا تفريط، فلن يجد له أذناً واعية، وتنتهي رحلته قبل أن تبدأ، مع أولى المقالات في عالم الصحافة، الحلم الذي كان، أثارت حفيظة الرافضين، زعموا أن التغافل عن الحق والحقيقة في كثير الأحيان أعظم وأبقى، حتى تأتي لحظة التهيؤ والمكاشفة، متى؟ قالوا عندما تأتي الشمس من المغرب، ويبقى الحساب يوم الحساب، ولا داعي من إثارة البلبلة والتشويش والفوضى، في عالم المستحيل يبقى قول الحق فوضى، وأن الخرافة أდوم حالاً من الحقيقة وأعز نفراً، وابتعد "حداد" عن عالم الصحافة، وتنفسوا الصعداء وقالوا: ذلك ما كنا نبغي.

حول "كريم" دفة زميله، استطاع أن يجذبه عن ضحول حزنه إلى غمر المأساة.

تنهّد "حداد" وكأن الكلمات حركت ساكن همه، وأحرقت ثلج مشاعره، يعتقد أنه أعطى فتنع، ومنح فارتضى، لا يكره عمله في الحسابات ولكن ليس من الضروري أن يذوب فيه عشقاً كي يألّفه، حتى بلده "بورسعيد" يجبها ولكن لا يقوى أن يبقى هناك ويترك صخب "القاهرة"، حتى زوجته....

بتر "حداد" كلامه، لم يدفعه "كريم" أن يبوح مُكرهاً، وكأنها اكتفى "حداد" بكلماته، وودَّ أن يطمئن على صديقه، وقد لاحظ منذ فترة صفاء وجهه ونقاء سريره ولولا موت "كالوشا" وفراقه لقال إنه

يعيش أفضل لحظاته، ابتسم "كريم" فيما يشبه الاعتراف وأحس أنه أن الأوان كي يقص لصديقه حكايته مع "داليا"، ينتظر نصيحته خاصة وأنه يعرفها خيرًا منه، هوى قلب "حداد" في قدميه، وحدّق إلى "كريم"، الذي أطرق برأسه في خجل حاول "حداد" أن يمتص الصدمة، "داليا" و"كريم"! لقد كان على بعد خطوتين أن يفشي السر إلى صاحبه.

وفتح "كريم" شفّيته ليقول شيئًا...

- السلام عليكم.

رفعا رأسيهما، ووجدوا "فايز النخيلي" الذي حاول أن يرسم على ملامحه علامات الحزن، جلس على المقعد الثالث - مؤلم أن يحتل أحدهم مكان أمير السعادة - بعد تبادل السلام تجاذب الحوار مع "كريم" عن "كالوشا"، والموت، والقدر، والسفر.

حاول أن يجذب "حداد" إلى الحوار، لم يرد، وقد تحول إلى أثر بعد عين، كان كل شيء يبدو غير حقيقي، وأن "فايز" لم يأت مصادفة، وهو يفرش ليرمي برميته، فهمها "حداد"، ولم يدركها "كريم"، سأله رقم تليفونه الجديد، أملاه "كريم" الرقم، سجله "فايز" ثم سأل بلا مقدمات عن أخبار د. "عليه".

تمتم "كريم" في دهشة أنها بخير، وعقد "حداد" حاجبيه، تظاهر "فايز" بالارتباك لحظة ثم قال إنه تشرف بمعرفة د. "عليه" في إحدى

جلسات الحزب فهي من أعلامه -سابقاً- وهو لم يَرها من بعد الثورة،
أوماً "كريم" برأسه متفهمًا، بينما أشاح "حداد" بعيدًا، في اتجاه التلفاز،
وقد بثقت حمم الأوار من جوفه، ودهست سنابك الخيل روحه، رأي
صورته "داليا" في كل الوجوه، وتبدلت صورة "داليا" بصورة "حسين
عبد العاطي".

بينما أردف "فايز" كمن يرمي بآخر أوراقه أن الابتعاد عن السياسة
بات فرضًا على جميع أعضاء الحزب، ولكنه لن يطول، وربما هذا أفضل
ل "د. علية" خاصة كي تتابع قضيتها بقدر عالٍ من التركيز.

- قضية!

قالها "كريم" في تساؤل بينما تصنع "فايز" الارتباك، وهو يتابع
نظرات الذهول المكددة نحوه وكأنه أفشى سرًا لا ينبغي له، وتابع أنها
قضية إجهاض بسيطة وإيقاف عن مزاوله المهنة، واعتذر منهم وتصنع
الخشجل، لم يتبق لـ "كريم" سوى الصمت والذهول، يعرف "حداد" أن
"فايز" يعني ما يقول، وما حضوره محض مصادفة، بل بيّت النية لينتقم
من "كريم" لسبب ما، علامات الغل والحقد ظاهرة في عينيه، لا تخفى
على أحد سوى "كريم"، حاول أن يرد كيده ويمحق ذلته، ويخلص
كريم من لثيم صنعه وخسه مؤامراته ولكن قبلة "داليا" تهاوت فوق
قلبه، أيقظته حتى آخر العمر، شيطان مريد يدفعه للتعاطف مع
"فايز"، دفع الغيرة لا راد له، يشعر أن "كريم" استولى على قلب
حبيبته، وهو بريء من حب "سماح"، ومدان بحب "داليا"، يجب

حبيبته هو، حتى لو كانت خفية تحت الجلد، كامنة بين شغاف القلب وشرائينه، محبوبة خلف الخيال والتقاليد والظروف والمجتمع والمنطق، مُجَبَّاة في عالم الأحلام، مستحيلة كعروس البحر، استعاذ بالله من شيطانه ولام نفسه الأمانة بالحب، الحب الذي يفقده صديق عمره الذي تهاوى على مقعده، عيناه كرتان من لهبٍ مُصَفَّى، رحلته الصدمة إلى المنفى.

بينما طغى صوت "حسين عبد العاطي" -الذي رآه "فايز"- يتسم على شاشة التلفاز، طغت على طعم اللحظة في شفتي الأخير، مر لذة الانتصار، وبعد أن فاض نهره، أصبح ماؤه غورًا، قلب كفيه حتى وصل إلى "القلعة"، شرب حتى الثمالة، عندئذ أقسم "دويدار" أنه أصابه مَسٌّ، فقد كان يهذي، ويضحك، ويصرخ، ويزعق، ويعوي، ويهامس، ويبكي، حتى مطلع الفجر.



- مساء الخير يا دكتورة، ألف مبروك، بكرة الصبح الموضوع هيتنتهي تمامًا، تصبحي على ألف خير.

أنهى "علي راشد" مكالمته مع "د. علي ياسين"، مع انتهاء أزمته، ولم يتبق سوى بعض الإجراءات، والتدابير القانونية، لقن "عماد صبري" التعليمات، ليصبح "خالد المنشاوي" غداً إلى المحكمة، ليقدم تنازله عن القضية، القضية التي انتهت بفضل "برج" الذي تواصل معه منذ ساعة، وأخبره بانتهاء المهمة، بعدها تلقى كلمات معدودة من "خالد المنشاوي" أبلغه باستعداده التام للتنازل، أبدى المحامي الكبير

اندهاشه من مكالمه "خالد المنشاوي"، وسأله بخبث عن سبب تراجعته عن القضية، فادعى "خالد" أنه استمع لصوت العقل، بعدم جدوى الاستمرار في القضية، والحصيلة النهائية هي الخسارة المُتوقَّعة، لكل الأطراف، وتحدث بالعفو، والصفح، والتسامح، والقسمة، والنصيب، والغد الآخر، وأن الترابط بين العائلات الكبيرة لا بد من بقاءه لصالح الجميع، حتى في حالة فشل بعض الزيجات، ستبقى المصلحة، والاحترام المتبادل، وأنه سوف يعلن عن خطبته قريباً، وستبدأ حياة جديدة، وسيدعوه هو شخصياً للحضور، بعد الاستقرار على الموعد النهائي، بل سيدعو عائلة "المهدي"، ليثبت للعالم كله، أن ما حدث ما هو إلا زوبعة في فنجان.

يعلم "علي راشد" أنه اختار خير سفير، سفير جهنم: "سيد برج".
نفَّذ المهمة، وأغلق الدائرة بكل دقة، لم يترك ثغرة، بلا خسائر، لهجة "خالد المنشاوي" توحى بتقبُّل الأمر، لم يدرك بحدسه أن هناك لهجة وعِيدٍ أو تُربُّصٍ، بدا "خالد" مستسلماً تماماً.
ولكن كيف؟ لم يسأل "علي راشد" عن التفاصيل، ولكنه... "برج".

أتمم "برج" مهمته، درس التفاصيل بمنتهى الدقة، واستطاع أن يكتشف ثغرة "خالد المنشاوي" التي تجبره عن التنازل، ولا تستفز ردة فعله، ووجدها بالفعل؛ فرجل الأعمال، كلما زادت أعماله، تزايدت نقاط ضعفه، علاقة طردية غريبة اكتشفها في هذا العالم، وبخاصة عندما

٢١٧

يتماشى مع دوائر الفساد، فهو يمارس طقوس فسادته على الجميع، لا تميز بين قريب وبعيد، فبالإضافة إلى الأعمال غير الشرعية التي يمارسها "خالد" على عائلته نفسها، كانت علاقته الطائشة بزوجته عمه، كفيلة وحدها لإنهاء وجوده من على قيد الحياة، ولم تكن سوى دقائق، واقتنع ابن عائلة "المنشاوي" بضرورة الاستسلام.

كل ذلك من أجل "كريم".

ودَّ "سيد برج" لو تخلَّى عن عرش العالم السفلي إلى الأبد، ولكن قبل الانسحاب والاعتزال، لا بد من إنهاء عدة أمور، لا بد من أن تنتهي.

لم يمضِ "برج" إلى القلعة، ولا إلى شقته في شارع "العروبة"، المجاورة لشركة الأدوية، سكن حتى آخر الليل، ثم قصد عمارات "الأوقاف"، شارع "الثلاثيني" تلمَّس الجدران القديمة، تنسَّم عبقها، تحسَّس فيها رائحة أمِّه، وطيبها، وما إن أدار المفتاح في باب الشقة، وأضاءها بهاتفه النقال، أشعَّ ضوء خافت، يستره عن الأعين، ويكشف الظلمة عنه، وتتجلى ساطعة صورة الحاجة "زينب" -رحمها الله- المعلقة على الحائط، مزينة بملابس الإحرام، وخلفها "الكعبة المشرفة"، مشرقة الوجه، زاهرة الملامح، خاشعة العينين، سالمة المحيَّا، مستسلمة الجوارح؛ وحالما أنار بهاؤها، حتى انفجر في بكاء شديد.

* * *

انتهت أعمال لجنة الشباب في مجلس النواب، تأهّب "حسين عبد العاطي" للمغادرة.

- أستاذ "حسين"!

نظر "حسين" إلى الشاب العشريني الذي أقبل نحوه، تعرفه قبل ذلك في المجلس، عرف أنه كان مرشح إحدى قوائم الأحزاب الدينية، عن دائرة "شبرا الخيمة"، وأنه يعمل في أحد مصانعها الشهيرة، نال شهادة التعليم فوق متوسط، لم يره يتكلم قط في المجلس خلال الفترة السابقة، أخبره أنه آتٍ إلى المجلس فقط لخدمة دائرته، وتطبيق الشريعة، ولكنه فوجئ بمناقشات عن الدستور، والجمعية التأسيسية، وعمل اللجان، وطلبات الإحاطة. والاستجابات.

اسمه "عادل نوح"، أبدى إعجابه بمناقشات "حسين"، وأظهر استعداداه التام لمساعدته في محاولاته لتطبيق الشريعة، وتحجيم أصحاب الحريات المزعومة، والليبراليين، المستغربين، والطامحين لطمس الهوية عن المجتمع المصري.

وَعَدَهُ "حسين" بجلسةٍ طويلة، يشرح له فيها الخطوات القادمة، ودوره الصحيح في المجلس، من توفير التشريعات اللازمة لخدمة المجتمع المصري كله، وليس أهل الدائرة التي انتخبته فقط، وشجّعهُ أن يكسر الحاجز، ويطلب الكلمة، ويتحدث بلسان شاب مصري ملتزم، صاحب مجموعة من المبادئ، شكره النائب "عادل نوح" مع ابتسامه مودعة من "حسين".

رائع أن يكون لك مريدون، راغبون في أفكارك، راغبون عن غيرها، تكون أنت مُعلِّمهم، مثقفهم، قائلهم، شيخهم، يأترون بأمرك، يأترون على عدوك، آذان منصتة عندما تتكلم، صوتك عندما تُؤثِّر الصمت.

غادر المكان، وجاء إليها.

لم يأتِ إلا ليراها، خامرَه هذا الشعور أول مرة، صدحت أنغام غامضة في كهفه المهجور، أصبح أسيرًا لمباريات التنس في نادي "الجزيرة"، تعمد أن يلتقي "ثروت الجميعة" هنا، متعللاً أن اللقاء في قلعة "مسعد الصاوي"، أمسى شائِكًا بعض الشيء، وبخاصة من جانب "فايز النخيلي" الذي لم يخفِ انزعاجه بعد عضوية البرلمان، مما قد يعرقل مسيرة التعاون بينهم، فهو لم يخلف وعده معهم خلال الفترة السابقة.

أيَّده "ثروت الجميعة" في عموم كلامه، وبخاصة في قضية "فايز"، حيث أسرَّ له البعض من عائلة "النخيلة" أنهم ضجروا من أفعال "فايز"، وانتقدوا تهوره، وتكاسله، واستهتاره، في الفترة الأخيرة، وأنه شخصيًا سوف يعالج هذه المسألة، وأراد "ثروت بيك" أن يُخفِّف الأمر، بعد أن أنهى له عضوية النادي في وقت قياسي، شكره "حسين"، ووعدته بمزيد من التعاون في الفترة المقبلة، وتمنى "ثروت بيه" لو كل أعضاء البرلمان يتمتعون برجاحة عقله، ودماثة خلقه.

بدا "حسين" في قمة التركيز، وهو ينظر لـ "ثروت بيك" من خلف نظارته السوداء، ولكنه في الحقيقة كان يختلس النظر إليها، وهي تضحك مع رفيقاتها اللاتي تعرشن حول الطاولة خلف "ثروت الجميعي" مباشرة، خلع نظارته كي يراها بلا قيود، بلا حواجز معتمدة. استراحت عيناه فوق ملامحها، أميرة من كتاب الحكايات، تلاقى الأعين، لاحظت وجوده، احتلاله لمساحتها الشخصية، هدأة عينيه فوق ملامحها لا تضايقها قط، لم تنكر عليه تفرسها هكذا، فهي تعرف أنها جميلة، جاذبة، لافتة لعيون الرجال حتى لو كان هو، واثقة هي ببهاء ضيائها، وهذا يكفي.

تعرفه جيدًا، ولكن ما علاقته بـ "ثروت الجميعي"؟

سألت نفسها: ماذا جاء بالشرق إلى الغرب؟ ثم تذكرت قول أبيها: في عالم المال والمنفعة، تختفي خطوط الطول، ودوائر العرض، وجغرافيا المكان، ورقميات التاريخ وتخلو أوراق الثبوتية من خانات الأسماء والنوع والجنسية والديانة والهوية، بعد علاقة المكسب المشترك، لا شيء يهم.

يعرفها جيدًا، ويعرف من أبوها، ومن عائلتها، والفارق الزمني، والطبقي، والثقافي، والمادي، بينهما، حتى بعد تحول أبيه "عبد العاطي" من لحاد إلى إمام المسجد الكبير بقرية "خربتا" الذي أتم "حسين" بناءه، بالإضافة إلى دار تحفيظ القرآن الملحق به، وقد تكفل بهما "حسين" بمفرده، إلا أن "أزمير الدا" نادى "الجزيرة" تبقي خارج حدوده-

نظريًا-ولكنه يقبل التحدي مع جوهرته النادرة، سيذهب مليًا نداء قلبه، وعقله أيضًا.

نَظَرَ إليها مجددًا، نظرت إليه وابتسمت، ارتبك، أسبلت جفونها، حدق بعينيها، أدارت رأسها إلى صديقتها، تصلّب رأسه، عادت إليه، لم يبرحها مطلقًا.

لاحظ "ثروت بيه" شروده، نظر خلفه، وأدرك بحدسه إلى ما ينظر.

- اختيار ممتاز.

اقتحمه "ثروت الجميعي"، حاول أن ينفي، أن ينكر، أن يعترض، ولكنه بدا مسحورًا، ارتدى نظارته، عائدًا من عالمها، ودعّ "ثروت" بابتسامة رقيقة، لم يُلْقِ عليها نظرة وداع، تابعتة بناظريها، ثم اتجهت إلى "ثروت الجميعي" لتسأل عنه بمنتهى الجراءة.

ترجّل إلى سيارته، وقبل أن يدير المحرك، لاحظ تلك الورقة البيضاء الصغيرة المعلقة فوق مرآة الصالون، فتحها، وقرأ فحواها: (مبروك على العضوية).

كلمتان بينهما حرف جر، ولكنها رسالة جرت من المعاني الكثير، وفي ذيلها ضحكة ساخرة...ضحكة "مصطفى النوري".

* * *

- "تأخرت عليك".

هَزَّ رأسه نفيًا، وهو ينطلق بسيارته، بعد أن انتظرها كعادته أيام السبت، أمام "كلية الصيدلة" بشارع "القصر العيني"، وكانت في المراحل الأخيرة من إتمام الإعداد لمناقشة الماجستير، فتقارب تردها على الكلية لمقابلة المشرف على الرسالة.

كان ينتظرها، ويتحمّل صعوبة الانتظار، مع زحام السيارات، انتظرها ما يقرب من نصف ساعة، أجرى مكالمة تليفونية بالدكتورة "علية" ليطمئن عليها، وهي تستعد للذهاب إلى العيادة، بعد أن انتهت القضية "الوهمية" التي تورطت فيها عن غير ذنب، كما قالت له إنه صراع بين عائلتين، وأنها ترددت أن تخبره فينشغل بها، ويتشاغل عن عمله، وهي واثقة ببراءتها، وأن القضاء لن يخذلها، وأنها بصدد أن ترفع قضية تعويضًا للضرر النفسي والمادي التي تعرضت له، وردّ اعتبار لها، وعوضًا عن التبرّص الذي تعرضت له حتى من نقابة "الأطباء" التي لم تساندها بالشكل المناسب في أزمتها، وخضعت للضغط الذي مارسه المدعي، وأوقفتها عن العمل، عقابًا لها، لأنها -على حسب وصفهم- من فلول النظام القديم، كل ذلك قبل أن يستقبلها النقيب بنفسه، بعد انتهاء القضية، ليبرر لها الملابس التي اضطرت به إلى هذا الفعل.

تركها تستعدّ كعروس في يوم زفافها، لم يعكر صفوها بموضوع السيدة "سناء"، لم يخبرها بتواصله معها، ورؤيته لـ "مريم".

غَفَلَ عن موضوع الوصاية، أو تغافلَ، لا يعرف كيف يتصرف،
يحتاج رأي "حداد" -الذي لا يرد عليه- لا يعرف هل ما زال غاضباً منه
من موضوع "داليا"؟

عَلِمَ من "داليا" أنه بادَها كلمات مقتضبة في نطاق العمل، لم يزد،
على غير عادته.

- "ياللا بينا".

بادرته "داليا" التي استوت على المقعد المجاور وعلى شفيتها
ابتسامة رقيقة.

ودَّ لو جلس معها طويلاً، ولكنه يعي ضيق وقتها، وماذا عن ضيق
صدره؟

تردَّد، ثم حسم أمره، وبدأ حكايته من البداية، من طلاق أبيه وأمه،
وحتى "مريم"، وقضية الإجهاض، مروراً بـ "سارة الحسيني".

كانت تسمعه باهتمام، وحرص بالغين؛ أزاح عن صدره الكثير،
صدر لها العديد من الصدمات، بداية من دور أمه السابق في الحزب
الوطني، انتهاء بعلاقته العابرة بابنة "فاروق الحسيني"، لم يفسر متلازمة
العلاقة، فقط علاقة حبٍّ استمرت شهوراً، كغمامة مرت على أرض
مقفرة، لا بقيت الغمامة، ولا ارتوت صحراؤه.

تركها تجوس بين التفاصيل، عن شكلها، ومظهرها، ولونها،
وشعرها، ولبسها، وكلامها، وتفصيلاتها، وهو يرد فاغر الفم، مضطرب
الهاجس، وقد أسقط في يدها: إنها فتاة.

كان يحتاج رأيها في موضوع "مريم"، وعلاقته بأبيه الراحل، فأخذتها الطبيعة الأنثوية في درب لا ينتهي، ابتسم رغماً منه، تركته مغاضبة، تركها عند أول شارع "الأهرام"، عند نفق "نصر الدين"، وترجلت في المسافة الصغيرة حتى شارع "الجزائر"، بـ"العمرانية الشرقية".

أيقظ حمية الأنثى داخلها، بثق في قلبها ينبوعاً من الغيرة، لامت نفسها لأنها تجاهلت أصل الحكاية التي تربكه، اتصلت به بعد أن عبرت الطريق لشارع "ترعة الزمر"، اعتذرت بعد أن أخذتها حمية الأنثى، ركزت على الحالة الصحية للسيدة "سناء" وأنها وحيدة ولا تخشى الموت بقدر فزعها أن تترك ابنتها وحيدة بلا راع، الدور الذي تحتم عليه الإنسانية فعله مهما تكن الخلافات بينه وبين أبيه، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وأن رابطة الدم أقوى وأعظم من أي خلاف، وربما تكون البداية لمعرفة الجانب الآخر من الحكاية التي سمعها طوال عمره من طرف واحد، وأن له أن يفتح أذنيه للطرف الآخر، ربما وجد عنده هدى أو حجة، لأن الطرف الأول أي والدته حيادية رأيها محل شك، ولا عيب فيها، لأنها الطبيعة الأنثوية، التي تحب حتى النخاع وعندما تُصدم في من تحب، تكره حتى النخاع أيضاً، ابحت عن تلك الصدمة لتكتشف السر.

- وانت؟

صمتت، ولم ترد، فقدت طلاقة لسانها، تاهت الكلمات، ودت لو باحت بما قلبها، ولكن لم يحن الوقت بعد، سألت إن كان قد وصل إلى البيت أم لا، يعرف إنها آثرت تغيير دفة الحوار، ومع ذلك أجابها، أنه الآن في شارع "الجامعة"، في طريقه إلى "بين السرايات" مُتوجِّهًا إلى "حداد"، وسألها السؤال نفسه، فأجابته أنها تبتاع بعض حوائج البيت الضرورية قبل أن تعود، أحسَّت أن كلمتين في حلقه، على وشك الانطلاق ولكنها قاطعته وأغلقت الهاتف بحجة أنها في الشارع.

كان قلبها يرقص فرحًا، لامت نفسها أنها قاطعته، ولكنها بقدر شغفها أن تسمعها منه، بقدر أنها رغبت أن تسمعها وهو ينظر إلى عينيها، ودت لو سمعتها مصاحبة لدقات قلبه.

هدأت دقات قلبه، بعد أن وصل إلى شارع "أحمد الزيات"، فتح له "حداد"، تأمله الأخير، ثم عانقه بشدة، لم يرَ "كريم" صديقه بمثل هذه الحالة، فقد تدهورت حالته النفسية بشدة، بعد موت "كالوشا"، وقبل أن يسأله "كريم"، أخذه "حداد" من يده إلى الشرفة، وأشار "حداد" إلى سيارته، تأملها "كريم"، ولاحظ إطارتها الفارغة، وعلامة x باللون الأحمر على زجاجها الخلفي، ومع غبش الغروب الخافت، قرأ "كريم" الكلمة التي كُتبت فوق "ملاكي بورسعيد"، وكانت كلمة بذئنة.

فتح "كريم" فمه كي يواسي صديقه بكلمات، لولا رنة هاتفه المميزة لـ "داليا" رد "كريم" بعد تردد:

- الحقني يا "كريم".

قالتها... وهي تبكي... لقد عادت إلى بيتها، ووجدت أباه،
ساقطاً على الأرض... بلا حراك.

* * *

لم يدرك "جبرة" كم مرَّ عليه من الوقت. آخر ما يتذكره، هو أنه
وصل المركز في موعده، وبدا اليوم هادئ المزاج، رائق السجية، قدَّم
فنجان القهوة الصباحي لدكتور "ياسر بدير"، وكان بدوره صافي
الذهن، ظل يمازحه ويضاحكه، سأله عن "داليا"، وعن عملها،
وجنونها، ورسالة الماجستير، وعده أنه سيكون أول الحاضرين، سأله
عن ميعاد المناقشة، رد "جبرة" أنها بعد شهرين في شهر "مايو"، أوصاه
بها خيرًا، وسأله عن أحوال "فاطمة" وأولادها، وبخاصة "ياسر"
الصغير - لقد أصرَّ عم "جبرة" على تسمية أول حفيد له على اسم
"د. ياسر" - ولم يسأل عن "سعد" فالسؤال مؤلم، والإجابة أكثر إيلاماً.

غادر الدكتور "ياسر" المركز عند الظهر، بعد أن ألقى بعض
التعليقات ل د. "محمد فتحي"، وأوصاه بعمل تحليل الكوليسترول لعم
"جبرة" ليطمئن عليه. وبعد أن صلى "جبرة" صلاة الظهر في المصلى
الخاص بالمركز، وتأهَّب ليوصل أعماله مع تزايد عدد الوافدين في
منطقة الانتظار، لم يكتثر عندما اقترب منه شابٌ ثلاثيني، حليق
الذقن، يخفي نصف ملامحه خلف نظارة سوداء كبيرة، وقبعة للرأس،
شكله يبدو مألوفًا، سأل "عم جبرة" على المصلى، قاده الأخير إليه، تقدَّم
أمامه خطوتين، وفجأة أمسك الشاب ذراع عم "جبرة" وانحرف به إلى

ركنٍ مُستترٍ، نظر إلى الرجل في دهشة، ولكن الشاب أشار عليه بالصمت، تَلَفَّت يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وخلع نظارته.

"سعد"!

تفلتت صرخة الأب، كتمها "سعد" براحتة، وانحنى على يد أبيه يقبلها.

بثقت عينا "جبرة"، ودَّ أن يحتضن وحيدته، يطوق بذراعيه كومة الألم والوجع التي خرجت من صلبه، وأحنت ظهره من بعد استقامته، أكلت منسأته، وأسقطته على رمل ملتهب، حرق قلبه قبل جلده، ولكنه ابنه... لا يملك له سوى الغفران، والمغفرة، والدعاء بالهداية، والاهتداء بسبيل الرشاد، والنجاة من أي شَرٍّ يرصده.

أخبره "سعد" أن الأمن يطارده في كل مكان، ويتربص به، وأن البلد تستحق منه أكثر من هذا، وأنه قرَّر الهرب خارج مصر، وسيواصل الجهاد في بلد آخر، وما أكثر البلاد التي تستحق الجهاد، وأنه يسير على طريق الحق، حتى لو خَلَف وراءه الدنيا، وارتضى ما كُتِب له، وسيفعل ما كتب عليه، لم يسمع توسلات الأب الذي لم يستنكف أن قبل يديه، وجثا على ركبتيه، استناخ عند قدمي ابنه، عقره الحب والخوف والتوجس والوحدة والمرض والعمر الذي مرَّ، والعيش الذي مرَّ.

لم تحركه دموعه، كان أمامه شخص آخر، غير "سعد" الذي أنجب وربى، لم يسأله عن أختيه، لم يسأله عن مرضه، لم يسأل عن أحواله المادية.

لا شيء... لا شيء...

ذَهَبَ "سعد" ولم يُعَقَّب، اختفى بعد أن زرع في قلب أبيه ألف عقرب، غرسوا في مسامه سموم الخيبة، أحسَّ بمطرقة تدقُّ جمجمته، في ديمومة تصاعدية، تلاحت حتى لف الدوار رأسه، لاحظته أحد الكيميائيين، وهو يفقد توازنه، أو كاد، سنده حتى أسنده على الأريكة، عرض عليه أن يذهب به إلى المستشفى، رفض، حاول معه "د. محمد فتحي"، رفض، ودوا لو أخبروا "د. ياسر"، رفض، طلب منهم فقط أن يذهب إلى البيت ليستريح، وما إن وصل إلى البيت ألقى نفسه فوق الفراش، لم يشعر بشيء.

حرَّك رأسه بصعوبة، أحس بوخزٍ يأتي من ذراعه، اكتشف بعدها الخراطيم المتصلة به، تحسسها في حذر، فوق جفونه حجر، ورأسه أثقل من جبل، الرؤية غير واضحة، فقط أشباح تقف أمامه، تعرف "داليا" و"فاطمة"، رفع يده نحوهما، دُسر تربط لسانه بسقف حلقه، تقدمتا نحوه، لثمتا كلتا يديه بشفاهما، لاحظ شبحين آخرين عند الباب، لا يعرفهما، قالت "داليا" أن أحدهما زميلها في الشركة والآخر، لا يتذكر، وأنهما من قاما بنقله إلى المستشفى.

جاهد كي يرد، ويشكر، لم يستطع، استمع إلى حمدهم الله على سلامته، وبعدها سمع صوت "د. ياسر بدير" ورآه.
لم يرَ أثر مفاجأة اللقاء بين "د. ياسر" و"كريم".

لم يرَ الدهشة التي أطلت في عيني "داليا".
لم يرَ نظرات التساؤل وعدم الفهم على ملامح "فاطمة".
لم يرَ نظرات "أحمد حداد"، التائهة في المسافة بين عقله، وقلبه.

* * *

بقيت "فاطمة" إلى جوار أبيها، تتأمله، كانت عيناه الدامعتان
تقولان شيئاً، قربت أذنهما إليه، جاهد كي ينطق الحروف
الثلاثة... ونجح.

وفهمت "فاطمة" أن "سعد" ظهر من جديد.
انقسم الأربعة في الرواق المتعامد على باب الغرفة، وقفت "داليا"
مع "حداد"، بينما على بعد خطوات انتحى "د. ياسر" ب "كريم".
سألها "حداد" عن حالة والدها وميعاد خروجه من المستشفى، بينما
هو كان يحدث نفسه:

(كنت على بُعد كلمتين، وتسقط الخطي عن الحافة، ويضيع مني
صديق العمر، إلى الأبد، كدت أصارحه بأني أحببت، استخدمت قلبي
للمرة الأولى في حياتي، في حب حبيته، وأني تمردت على مسار عقلي
الإجباري، وتوهمت أن البقعة الفارغة في منتصف الصدر آن لها أن
تعمل، لي، لصالح، وعطلت ألف تساؤل فرّ من عقلي، ثم أما بعد؟ لا
يهم، المهم هو أنني استمعتُ إلى نداء قلبي، مرة، بالتأكيد هي الأولى، ربما

الأخيرة، كدتُ أبوح له بأني أحببتُ وأنا صاحب الطفلين، وأحببت تلميذتي كما تحب هي أن تلعب نفسها، كنت على وشك السقوط، فقط عندما تأهبت أن أختار، لم أدرك وقتها أن مساحة الاختيار أقل مما نظنُّ، ولكنني تذكرت نصيحة الشيطان لفاوستوس "لقد اخترتُ الطرق السهلة عندما تجنببت أن تختار"، واخترت، وكدت أن أقع في المصيدة، عندما اخترت، حمدًا لله، فما زلت أنا الصديق، والأستاذ).

جاوبته "داليا"-وعيناها معلقتان على "د. ياسر" و"كريم"-بأن العلاج السريع لحالات الجلطات الدماغية يقلل من تأثيرها السلبي المتوقع، وهذا ما حدث لوالدها -بفضل الله تعالى- وفضلهما هو و"كريم"، ولكنها تتوجس خيفة من تأثير تلك الجلطة، وبخاصة أنها الجلطة الثانية التي يتعرض لها الأب، ربما من الإفراط في العمل، وستقترح عليه أن يكفيه هذا القدر من المجهود، وحن وقت الراحة. وترى أنه -بإذن الله- سوف يغادر المستشفى خلال أيام.

(الحمد لله ... ستمر الأزمة بسلام، كما قال الطبيب المعالج، ولكنني أخشى من وجود د. ياسر كعامل مشترك في علاقتي مع "كريم"، بعد أن علمت أنه صديق والد "كريم" الراحل وزميل والدته، الأم طيبة النساء الشهيرة، وسيدة المجتمع، هل ترتضي أن يرتبط وحيدها بفتاة يعمل والدها عاملاً لدى زميلها، وكريم نفسه لو زار د. ياسر في مركزه، سيطلب له الأخير فنجاناً من القهوة، ويقدمها صهره، لم أستنكف قط من مهنة والدي، ولن أفعل، مهما يكلفني الأمر، لكن لهذه الطبقة

حسابات أخرى، فماذا ستخفى لي الأيام القادمة، تجوس في خاطري فوضي الأفكار، أشعر وكأنني الخاسر الوحيد).

بعد ترحيب متبادل بين "كريم" و "د. ياسر"، شكره "كريم" مرة أخرى على كل شيء، واعتذر من تقصيره الشخصي، وهو من هو، من حيث فضله الواضح عليه، شرح له الفرق بين عمله في "القاهرة" و "دي"، ووعد بلقاء قريب، وتبادلا أرقام الهواتف.

(يبدو أن العلاقة بين د. ياسر ووالد "داليا" أكبر من علاقة عمل بين صاحب العمل وأحد مرؤوسيه، لدرجة أنه يأتيه خصيصاً، وبهذه السرعة، لا يهمني الدرجة الوظيفية لوالد داليا، المهم، هي، أري في علاقتهم هذه خطراً محدقاً، أعرف أن د. ياسر صديق والدي، ولكنه يعرف أيضاً السقطة الوحيدة في حياتي، أخشى أن يلفظ سري، وعلاقتي السابقة بـ "سارة الحسيني" التي كادت أن تؤدي بي إلى الهاوية، أحمل في قلبي له موقفه تجاهي، أو بالأحرى تجاه والدي الراحل، في تقويم مسار مستقبلي، ولكن هل سيفشي السر؟!).

مع ذهنه المكدود، ويومه المزدحم، إلا أنه هنا، لما لـ "جبرة" من مكانة في قلبه، يعتبره "د. ياسر" في منزلة أبيه، يترك الدنيا كلها من أجل الاطمئنان عليه، في أي وقت، وفي أي زمان، وحرص عندما رأى "كريم" على الاطمئنان على د. عليّة، ومدام "سناء"، و "مريم"، لم يتعجب عندما رأى "كريم" هنا، لم يعد يندهش من أي حدث، يبدو وكأنه مفاجأة، فلديه قناعة كاملة، أن الدنيا أصغر مما ينبغي.

"لم أعرف ما سر وجود "كريم" هنا، ولكنني أعرف تمامًا، أن ذكرى عبد الحميد تطاردني، وكأنها تأبى عليّ أن أنساه، صديقي الوحيد، ظلّمته الدنيا بما يكفي، ولكنني لن أدع ذكراه مظلومة، كما هي، لا مفر من المواجهة، المواجهة التي تحاشاها عبد الحميد نفسه، لا أملك أن أقصر مع صديقي، وبخاصة فيما يخص ابنته: مريم".

* * *

"الله أكبر. الله أكبر".

- الفجر أذن يا حاج. اصحى.

قالتها بحروف مثاثبة، مصاحبه للكزات خفيفة في ظهره، ولم تندھش عندما رد عليها مباشرة، ولم يتعبها كعادته.

فطوال عمره يعشق السهر إلى ساعات متأخرة من الليل، وفي الوقت نفسه لم يفوت صلاة الفجر في المسجد، اعتاد أن ينام سويعات قليلة، واعتاد أيضا أن يرهقها كي يصحو، تركته مرة لنومه، والله غفور رحيم، صحا بعد الشروق، ولم يكن معها غفور ولا رحيم، ثار، وفي وجهها صبّ غضبه، فارقها ليلتين، ومن يومها لم تفوت صلاة الفجر، ومهما نهرها، تصر على إيقاظه، ولا يجرمها من صادق دعواته.

أكثر من أربعين عام بنفس الحال، ولكن بعد أن راح فلذة كبدها، لم يفارقه السهاد، والحزن، والقلق، والدموع - كما لم يفارقها هي أيضًا - وزاده الحزن قيراطاً من بعد دخول "موريس" إلى المستشفى الأسبوع الماضي، ازدادت نظراته تيهًا، وملامحه حزنًا.

كادت أن تعيد الكره ولكنه رد بصوت لم يطأ النوم قط:

- صاحي يا حاجة.

قام ليتوضأ، رآته وهو يتمتم بذكر الله يرتدي -على غير العادة- شيئاً غير جلبابه الأبيض، وقبل أن تسأله، لمح دهشتها بطرف عينيه، بعد أن ارتدى نظارته، طلب منها أن توقظ "نجيب" حتى يتحركا بعد عودته من المسجد مباشرة، سألته في دهشة، أين يذهب في هذه الساعة المبكرة؟ قال في حزم إنه ذاهب إلى المستشفى ليطمئن على "موريس"، دهشت فقد كان عند موريس من ساعات قليلة، فاض به الكيل، وقال بنفاد صبر:

- اسمعي الكلام يا "جماليات"... أنا قلبي مقبوض... مش عاوز مناهدة.

"جماليات"!

تعرفه جيداً، ما دام ناداها باسمها مجرداً، فهو إما في قمة صفائه أو في قمة توتره، شهور مرت ولم يدرك الصفو محياه بعد أن سكن الكدر قلبه؛ هو الآن في دائرة انفعاله وتوتره، وعدم مناقشته هي السبيل الوحيد.

مرَّ من العمر ساعة، وَجَدَ نفسه أمام مستشفى "الدمرداش" يُلقِي اللعنات صوب رجال الأمن الذين رفضوا دخوله، فلم يَحِن ميعاد الزيارة بعد، ضاق صدره، ولم ينطلق لسانه، وسالت دموعه باستسلام،

مما ضاعف من انفعال "نجيب"، وثورة لكبرياء أبيه، أمسك الحاج "إبراهيم" نظارته المبللة بيده المرتعشة، وتهدّج صوته، وتقطّعت أنفاسه. وداهمه الغثيان، أجلسه أحدهم على مقعد قبل أن يسقط، وهو يستند على يد "نجيب" الجاحظة عيناه من الدهشة والقلق، واشتد نسيج الحاج "إبراهيم" وهو يتلفظ بصعوبة:

- "موريس" ...

أدرك "نجيب" ما وقر في قلب أبيه، وخفق قلبه في عنف.



(نورس أخير، في سماء الوحدة، قذفتني ريح الغربة من ساحل بحر السويس إلى صحراء أبي الهول، رحلت عني رفيقة الرحلة، وهاجر وحيدي إلى بلاد الكانج رو، بحثًا عن أرض جديدة، يزرع فيها أيامه القادمة، أما أنا فلا قادم لي، اعرف أن ساعتني الرملية تفقد آخر حباتها، ومزولتي تشير إلى الزوال، ولكن بقدر ضعفي وشيبي ووحدي لم أقاوم رغبتني في رؤية "البابا" للمرة الأخيرة، أحببت أن ألقى عليه نظرة مودعة، انتابني إحساس أني أودع نفسي، وأن جدران الكنيسة تودعنا، معًا.

للشباب فتوة، نفتقدها نحن وقد بلغنا أرذل العمر، الشباب ظهر يستند عليه شيبك، لا ظهر لي بعد أن مات "كالوشا"، كنت على وشك الغثيان، نقلوني خارج الكاتدرائية، تهدّج صوتي مع بقايا أنفاسي، اسمع

صوت الحاج "إبراهيم"، اسمع مناجاته لي، همسه في أذني، اسمعك يا صديقي، وقلبي يرد.

"أَنْتُمْ الَّذِينَ لَا تَعْرِفُونَ أَمْرَ الْغَدِ! لِأَنَّهُ مَا حَيَاتُكُمْ؟ إِنَّهَا بُخَارٌ، يَظْهَرُ قَلِيلًا ثُمَّ يَضْمَحِلُّ"

فتحت اليوم نصف عيني، نصف نظرة أخيرة على الدنيا، غبش الفجر يذكرني بك يا صديق العمر، تعاني الحاجة "أم نجيب" في إيقاظك الآن، لتدرك الصلاة، كما أعلم عنك يا كائن الليل، لا أطلب من الله سوي أن أراك الآن... فهل يستجيب؟).

موريس عبد السيد ميخائيل

* * *

الفصل الثامن

أنهى درس "الجمعة" بعد صلاة الفجر في مسجد "الرحمة" بشارع "الأهرام" - كما اعتاد منذ بضع سنين - وأتمه بالدعاء مع المصلين الذين تحلقوا حوله، في صفوف متقاربة، لم يقوموا حتى قام من جلسته، تبادل مع بعضهم المصافحة وكلمات الشناء، وسمع همهمات وتمتمات شاكرة حامدة جهوده تحت القبة، ومع ذلك لم يقصر يومًا في درسه الأسبوعي، مع جدول يومه المزدحم، وأكد للجمع أن هم الدعوة في قلبه أعظم من هم السياسة، لأنها هي الباقية.

تجاوز الأكتاف المسحة ببركته، وتعدّى الأذان المنصتة لحلو حديثه، والوجوه المستبشرة بابتسامته المشرقة؛ تأبط ذراع "عادل نوح" عضو المجلس الذي أصبح من مريدي الأستاذ وتلاميذه، يحرص أن يتابع دروس شيخه الدينية والسياسية، في كل مكان، حتى لو كلفه الأمر أن يضرب السبيل من بيته في "بهيم"، وحتى شارع "الأهرام"، ترجلا معًا عدة أمتار، حتى الشارع الجانبي المجاور للمسجد، حيث ربضت سيارتهما، مستبشرين بضوء الشمس الذي بزغ في قلب السماء، صافحه "عادل" مودعًا، وتمنى له سفرًا يسيرًا ناجزًا - بإذن الله - وقد

أخبره "حسين" فيما سبق أنه سوف يستغل العطلة الأسبوعية في السفر إلى البلدة- "خربتا"- كي يطمئن على صحة الوالد الذي تعرض لوعكة صحية بسيطة، عرض "عادل" مخلصًا في البداية أن يصحبه، وأصرَّ، بينما شكره "حسين"، وأثنى عليه، وعلى دماثة خلقه، أخبره أن الموضوع بسيط، وسوف يعود غدًا على الأكثر، وأنه سيتحين الفرصة ليصحبه إلى بلدته لقضاء يوم أو اثنين، في ظرف أفضل، وحال مستقر.

استقل سيارته، واستوى على مقعده، وأدار مؤشر المذيع على إذاعة "القرآن الكريم"، واقتحم شارع "الأهرام" الخالي تمامًا من المارة، في تلك الساعة، إلا من زوار الملاهي الليلية الذين يخرجون عادة في تلك الساعة، مَرَقَ في اتجاه الطريق الصحراوي، وهو يتمتم بدعاء السفر، حتى أتاها صوت الشيخ "بكر السنوسي" من الإذاعة، بحشرجته المميزة، وإن زادت بفعل السن والمرض، يعلم أن الرجل كان يتوسم فيه عالمًا مميزًا مخلصًا، حتى تلك اللحظة الفارقة، وقد سيرته الظروف أن يحقق حلم الشيخ "بكر" فيه، ولكن بطريقته هو، وبظروفه هو، وبتاريخه هو.

يعرف أن طريق الشيخ "بكر" طريق مستقيم، ولكن هذا في الدين، ولكن للسياسة طريقًا آخر، طريقًا ملتويًا، ولا خط مستقيم في طريق مُعَوَّج.

يدرك من أعماقه أنه أحيانًا يلجأ إلى السفسطة، والفلسفة، والتنظير لإقناع غيره، وإقناع نفسه أحيانًا.

أغلق المذيع، عسى أن يكبت أصداء دوي غامض، وزمجرة ملتبسة، تأتيه من كهف مجهول داخل أطلال ضميره.

ظَنَّ أنه كتم صوت الشيخ "بكر" الذي يُورِّقه-رغماً منه-ويبني سوراً عالياً يحاصر أفكاره، وشطحاته، وأضغاثه، تسور السياج-وقد أقسم أن ينقبه ويستطيع له طلباً-وأكمل طريقه إلى قريته "خربتا".

"خربتا"، نواة الخلافة الأموية في مصر، كما يقول التاريخ، أول من طالبت بالقصاص من قتلة "عثمان بن عفان" رضي الله عنه، ورفضت بيعة الأمام "علي"، وآوت من الفرسان عشرة آلاف، هادنها "قيس ابن سعد"-والي علي-ولم يقدر عليها "محمد بن أبي بكر" واليه الأخير.

إنها جينات السياسة التي وصلت إليه، هكذا يظنون، هكذا يفتخر. خطب جمعه في المسجد الكبير، وقضى ليلته بين أهل قريته، ونظرات أبيه المتباهية، يحيب هذا، ويشرح لهذا، متأرجحاً بين الدين والسياسة؛ نام ليلته في رحاب البيت الجديد، وفي طريق عودته، تلقى اتصالاً من المقدم "مصطفى النوري" كل فحواه عن شخص واحد: "فاروق الحسيني"

* * *

"حاول الاتصال مرة أخرى".

تسمّر في مكانه، من غرست قدماءه في قريميد الرصيف المجاور لمطعم "دون كيشوت" في منطقة الزمالك، ممسكاً بهاتفه الجوال، يحاول

الاتصال بها، ولا يسمع سوى الرسالة نفسها، لا يعرف أنها انسحبت
مهمومة، حزينة، مكسورة، باكية.

ظنَّ أنه خطَّط لأجل أيام حياته، ولكنه وقع في شَرَكٍ لم يتوقعه، ربما
توقعته هي.

كانت البداية عندما سنحت له الفرصة، واستغل صلاح بال
الدكتورة "علية"، وحدثها بـ "داليا"، استمعت منه كيف قابلها، ومتى،
وأين.

طلبت منه أن تقابلها اليوم السبت في "الزمالك" لتتجه بعدها إلى
العيادة، ترددت "داليا" عن قبول هذه الدعوة، ودت لو تأجلت هذه
المواجهة، تعلَّلت بالإعداد للرسالة، ومرض والدها، ولكنه ألحَّ أن يتم
التعارف في أقرب وقت، تمهيداً لخطوة جديدة إلى الأمام، لا يهيمه شيء
سواها، وافقت عن غير اقتناع، رسمت صورة خرافية لسيدة، طيبة،
ناجحة، عضو في الحزب الوطني المنحل، عضو في نادي الروتاري،
ونادي الجزيرة.

تظنُّ أنها تقف على الجانب الآخر، تخشى أن تستوى قدرها، ولا
أعز لديها من كرامتها.

تأنَّقت، حاولت أن تبدو في أفضل حالاتها، لم تبذل مجهوداً كبيراً،
المجهود الأكبر كان في السيطرة على دقائق قلبها التي صرخت كسفينة
تحترق المجهول، اتصلت بأستاذها المشرف على الرسالة، اعتذرت من

عدم الحضور، التقت مع "كريم" في أول شارع "الأهرام"، حاول أن يطمئنها، لم تعرف للأمن مستقرًا ومقامًا، تمكنت منها المشاعر الأنثوية، لم تتبادل معه الحوار، اكتفت بإيحاءات مرتبكة، كانت من المرات القليلة التي تنزل فيها "الزمالك"، سمعت كثيرًا عن تلك المنطقة المشهورة بفخامتها، وتاريخها، وطبيعة أهلها، وقاطنيها.

رَكَنَ "كريم" سيارته بصعوبة، واتجهها معًا إلى المطعم الفاخر، مع "كريم" المطاعم الفاخرة تقبض قلبها، رفع سبابته نحو العمارة المجاورة، وتحديدًا نحو لافتة في الأدوار العليا، تحمل اسم والدته: "د. علية ياسين".

لم تمر سوى دقائق معدودة على جلوسها إلى جوار "كريم" أمام المائدة حتى حضرت "د. علية".

سيدة مجتمع... بما تحمل الكلمة من معنى، تحتفظ بقدر من الجمال، مرتدية رداء بسيطًا رائع الألوان، حجابها معقود على الطريقة الإسبانية؛ تبادلًا التحيات، وكلمات المجاملة، جلست أمامها مباشرة، عيانًا ثاقبتان، تجوس في المسافة بينهما، تبعتهما مكالمات هاتفية طالت، شقت حفرة فراغ مبهمة، زادت من ارتباك "داليا، وضاعفت من إحساس الغربة والوحشة، بدت كسلحفاة غادرت صدفتها، ولم تخفف عنها بسمات "كريم" المشجعة.

أنهت "د. علية" مكالمتها معتذرة منها، متعللة أن دكتورة النساء لا تتجاهل مرضاها مهما يكن.

كانت البداية مُبشِّرة، تبادلًا حديثًا عن العمل، وشركات الأدوية، بعض الأدوية التي تنتجها شركة "داليا"، وطبيعة عملها في المصنع، وطموحها، ورسالة الماجستير، وهدفها، وعلاقة الطبيب والصيدلي.

أتى النادل مقاطعًا، ومرحبًا بها، يعرفها جيدًا، ناداها بلقبها، واسمها؛ طلبت منه وجبتها المعتادة، دجاجًا مشويًا، وأرزًا، وسلطة؛ سأل "كريم" و"داليا"، وافق "كريم" والدته على الفور، و"داليا" بعد تردد.

تابع "كريم" نظرات الإعجاب في عيني والدته، ودعا الله أن تستمر، ولكن العينين نفسيهما نظرتا إليه نظرة ذات مغزى، وقتما كانت تشعل سيجارتها، فأستأذن منها بعد أن فرغ من تناول الشاي، ودع "داليا" بنظرة مشجعه وغدا بقلب مطمئن.

عاد بعد أقل من ساعة، ليجد أمه وحدها، ردت عليه بكلمات متقطعة مقتضبة عندما سألها عن "داليا"، تركته وتوجهت إلى عيادتها بينما ظلَّ هاتف "داليا" مغلقًا، وأصبح فؤاده فارغًا.

* * *

تائهة هي.

تمشي بلا قدمين، في طريق ممتدٍّ، عبدته دموعها التي تتساقط من غيم مكتنزة، تنفذ راكضة بين السيارات، لا تسمع تهديد صفاراتها المتذمرة، تعبر الطريق بلا وعي، فقدت إدراك سبيل الرشاد.

آخر ما تذكره، هو انصراف "كريم"، بعد أن قضت فترة وجيزة مستأنسة لحديث والدته، ولكن كان انصرافه نقطة فارقة، وبدأت أسألتها تأخذ منحى آخر، بعد أن علمت أين تسكن، وطبيعة عمل أبيها، وكانت الطامة الكبرى عندما علمت أين يعمل، ومع من، كانت هذه اللحظة هي اللحظة الحاسمة القاطعة، تحولت نظراتها بعدها إلى نظرات مهينة، أسرفت بعدها عن الحديث عن عائلة "كريم"، ومكانته الاجتماعية، ووضعها بين سيدات المجتمع المصري، وأنها لا ترضى لابنها أن يكون منكسراً أمام صديق والده، وأن موضوعهم محكوم عليه بالفشل قبل أن يبدأ.

لم تنفوه بكلمة، استقبلت الخنجر بين ضلوعها، وقفت أمامها كرمح أفريقي، وشكرتها، ثم رسمت ابتسامة فوق شفثيها، وقامت تتأهب للمغادرة، في ثقة أدهشت "د. عليّة" نفسها، التي أرادت أن تبدي عدم الاعتراض على شخصها، أبداً، ولكن للمصاهرة حسابات أخرى، وافقتها بإيلاء من رأسها، وجاهدت أن تتناسك أطرافها، وتصافحها، مصافحة مهزوم، لم تقتله هزيمته.

عرضت عليها "د. عليّة" أن تنتظر "كريم"، كي يوصلها، ولكنها أبت بهامة سامقة، ردت أنها تعرف طريقها جيداً، سواء مع "كريم" أو بدونه، وأنها من اعتادت تلوين حياتها، ولم ولن تتركها لذوق الآخرين، مهما يكونوا.

لم تخف "د. عليّة" الإعجاب بالفتاة، ونزقها، وكبرياءها، وثقتها، واعتزازها بنفسها، تذكرها بنفسها، ولكن...
ليس بالإعجاب فقط تُبنى العلاقات.

تحملت "داليا" على نفسها، صُغت من الحكاية نفسها مرتين، وصمت نفسها بالغباء، لأنها انتظرت نتيجة مختلفة، موقف "د. عليّة" لم يختلف عن موقف عميدها السابق، ولكنها اليوم هي أشد قسوة، وليس أقسى على قلب قد شارف العشق، ألقى نفسه عند منحني الخطر، وليس من الخطر ملاذ سوى بين ذراعي أبي حنون.

جلست إلى جوار أبيها، داعبت أنامله، ابتسم لها بعينيه، كفكت دمعها، اطمأن عليها بلسانه المثلث، طمأنته، ونزف قلبها لم يحف.



يحبها "كريم" بالفعل...

نظراته نفسها، وتهدج صوته، عندما يتحدث عنها، كما كانت في حكايته مع "سارة الحسيني"، ولكنه الحب الشائك نفسه، يعاني في كل مرة، مسكين هو، فالحب عنده ينبت في رحم المعاناة، يسقيه نزف الدموع، لينمو شائكا كصبار، ملتهبا كجذوة، غامضا كطلسم، صعبا كمتاهة.

كان يتمنى أن يأتي لقاء والدته مع "داليا" بنتيجة مباشرة، يعرفها، يفهمها، يفسرها، يتفاوض فيها، ولكن كلا الطرفين لا يجاوب، والدته

تكتفي بابتسامة باهتة، "علامة الرفض" في لغة جسد "د. علية ياسين" كما يفسرها "كريم"، أما "داليا" فهاتفها مغلق دائماً، طمأنه "حداد" أنه سوف يقابلها غداً في الشركة، وسيفهم منها، يواسيه "حداد" بأن غداً لناظره قريب، ولكن هذا العاشق مع كل ثانية يدخل قلبه إلى مرحلة الشبي.

حاول "حداد" أن يكلمها من هاتفه مراراً، النتيجة نفسها، الشيطان لا يكمن دائماً في التفاصيل، الشيطان الحقيقي في الانتظار المر الذي لا برّ له.

"كريم" يعرف أنه لا جدوى من عودته إلى البيت، ولا جدوى من بقائه في "فرساي"، ولكنه فضّل الانصراف، مع الحاح "حداد" إن الوحدة ستفتك بك، وفقمة الاحتمالات ستنهش أفكاره، ولكنه أبى، ورحل. نسي "كريم" أن "حداد" أتى دون سيارته، التي تركها أمام بيته راقدة، هامدة، موشومة بغضب الغاضبين، تركها كما هي، إلا من غطاء يداري سوءتها - كما يظنون - وهو يسترها عن عيون الشامتين كما يعتقد.

وَهُمْ "داليا جابر" انسحب من دمه رويداً رويداً، صورة غير حقيقية تكوّنت على سطح قلبه.

تسمّى إعجاباً، انهياراً، جاذبية، توافقاً، تناغماً، أو ربما صورة عكسية لزوجته المطيعة، الهادئة، البعيدة عن التفكير العلمي، والعملي، والمنهجي، والنائية عن أمور السياسة، والزاهدة في الشئون التي لا

تعنيها، متخذة من حكمة الحاج "حسن حداد" شعارًا لها، (الشهر الذي لا يعينك لا تحصي أيامه)؛ و "حنان" لا تعد ولا تحصي الكثير من أوراق الرزنامة، اللهم إلا يومي الجمعة والسبت من كل أسبوع، أيام وجوده، هو بالنسبة لها الوجود الحقيقي، أما هي!

يفكر كثيرًا... هي ماذا؟

هي الزوجة الصالحة، خير متاع الدنيا.

يسخر أحيانًا من طبيعة الرجل الذي يرغب من المرأة الشيء ومضادّه، يحبها مطيعة وملتزمة، حانية وصلبة، صدر حنون وعقل راجح، يراها بقلب "حنان" وعقل "داليا".

(ولكن "داليا" ليست لك، إنها لأعز الأصدقاء).

قالها في نفسه قبل أن يحفر في جدار قلبه خندقًا، دفن فيه وهم "داليا"، إلى الأبد، وركمه بكل ذكرياته، وحبه، وتقديره لـ "كريم"، لم يميزه بشاهدٍ، أو يزينه بورد، فقط دعا الله أن يطمس آثاره عن قلبه.

استقبل مكالمته من والدته - غير معتادة هي أن تبقى مستيقظة حتى هذه الساعة - ولكن صوتها كان مبشرًا مستبشرًا، بدد القلق عن ذهنه، رددت متفاخرة متباهية بأن عائلة "حداد" ستنعم بعضو جديد، سمع أهازيج الفرح تصدح في قلبه، بقدر ما لام نفسه، إنه لم يسافر هذا الأسبوع إلى "بورسعيد"، سيذهب الأسبوع القادم، ويقضي إجازة "شم النسيم" هناك، وينسى كل الهموم، ولكن أنى السبيل وقد

اختلطت أمامه كل الأوراق! لم يعد يفرق بين حقيقة الأمور وأوهامها، ما بين جدية الأحوال وهزلها، يتابع من خلف جداره الشخصي احتضار حلمه، يراقب من ثقب ضيق شبّح ثورة مخبوءة في طريق مجهول، تئنُّ بلا صوت حتى لا تزعج خاطفها، تخفي وجهها كملعونة بكل الخطايا، وانسحب ذووها كل في مداره، واختلف البقية الحاضرون في فقه المواريث، الكل يتخطف ما طالت يده، وتناسوا أنها ما زالت تُحتضر، حتى هو ..

لم يقاوم ولم يتحدَّ ولم يُثابر، فقط نفّض كفيه، وانكفئ على نفسه، وسخر من فوضى مَنْ ترشحوا إلى الحكم حتى نواطير الكفاح اختلفوا لأن لمنصات "التحرير" أصوات عدة، بينما لكرسي الحكم جسد واحد، والكل يزايد في حُبِّ الوطن على الكل، وادعوا أنهم فقط من دفع الثمن، وتناسوا أن من دفع الثمن... مات.

"كالوشا"... الفرحة الغائبة.

ولكن لماذا لم تخبره "حنان" بأمر حملها؟ تراها لا تأمن ردِّ فعله؟ ربما لا تعرف أنه يتسول الفرحة هذه الأيام؟ كان يتمناه أنشى ولكنه سيدعو الله الكريم أن يمنحه ذكرًا ثالثًا، فقط كي يسميه على اسم صديقه الراحل: منيب.

يشعر "حداد" أنه برئ تمامًا من وهم "داليا"، ودَّ لو شد الرحال إلى "بورسعيد" الآن، ويرتمي ندمًا بين ذراعي زوجته، ولكن ...

ألقى نظرة من النافذة على سيارته المتدثرة المتسائلة:

بأي ذنبٍ وُشمت؟

كان "حداد" يستعد لنوم هادئ، راضي النفس، متمتًا بحمد الله وفضله، وبينما يتأهب لقضاء يوم جديد، لا يبغي فيه سوى الإصلاح بين "داليا" و"كريم" ما استطاع، حتى ارتفع رنين جرس الباب...

وكان هناك آخر شخص يتوقعه!

* * *

وكان سنيًا لم تمر.

قالها "سيد برج" وهو يدير عينيه في شقة "حداد"، وتوقف لحظة عند المكتبة الفاخرة الهائلة التي تحتل الحائط الذي أمامه، تذكر عندما مرض "حداد" قبل امتحانات الثانوية العامة، بأيام قليلة بهبوط حاد، من توتر ما قبل الامتحانات، حيث كُتب عليهم الصيام عن الأكل، والنوم، واللعب، والخروج، والسفر، والحياة.

فلم يتحمل قلب صديقه، وكانت وعكة صحية دنيئة التوقيت، سيئة التأثير، حولت بعدها مسار "حداد" من الهندسة إلى التجارة، الثانوية العامة قاتلة الأذكاء، يتذكر "برج" أن من حظ "حداد" العاثر أن لجنة الامتحانات لم تكن معهم في مباني مدرسة "السعيدية" وإنما في مدرسة "عمرو بن العاص الابتدائية" أمام "محكمة الجيزة الابتدائية"، ولكنه لم يترك صديقه المتحامل على نفسه أن يبقى وحيدًا، فقد انتزع

"برج" سيارة قديمة من أحد جيرانه، وكان ينهي امتحانه في "السعيدية"، وينتقل بالسيارة إلى "حداد" ليقوده إلى "بين السرايات" طوال فترة الامتحانات، ضارباً بالقانون عرض الحائط، فلم يكن معه رخصة قيادة، وما ينبغي له، لأنه لم يكمل السن القانونية.

ومع آخر الامتحانات، شكره زوج العمه، وأصرَّ أن يتناول معهم الغداء، وبعدها سار نحو الجدار، الذي ما زلت تصدره المكتبة، التي ربما تضاعفت بعض الشيء- لا يذكر- وأهداه كتاباً منها.

فاكر الكتاب يا "سيد"!

قالها "حداد" وهو عائد حاملاً صينية فوقها كوبا الشاي، وعلى ملامحه لم تغب آثار الدهشة لزيارة "برج"، حيث انقطعت علاقتهما من بعد موقعة "الجميل" التي كان يقودها "برج" ميدانياً، بحماسة مقاتل، ورغبة غازٍ، وعيني سفاح، وكفَّ صفعت "داليا".

استوى "برج" على المقعد، وندَّت منه تنهيد، تلاقت مع نظرة "حداد" المرتقبة، واهتاجت في صدره ذكريات، وفتح خزانة أسرارهِ، حكى لـ "حداد" الحكاية، منذ أن حباه الله بسطةً في الجسم، وفي القلب صلابة، وفي النفس قدرة، وفي السلطة رغبة، وفي المال ندرة.

وبعدما ضاع حلمه، حاول أن يستغل قدراته، تداخل في مشاحنات لا يعرف طرفيها، أعاد أموالاً منهوبة، وشقّقاً مسلوّبة، بات في شقق المطلقين انتظاراً، وتثبيّتاً، وبقاء لوضع كما هو عليه، عمل

سائقًا، وحارسًا لنجمة نصف مشهورة، ثم ناطرًا وصائناً في "الجندول"، انتهاءً بدنيا الانتخابات، وما تخفي، وما تعلن، أصبح ملماً بجغرافيا العالم السفلى وتاريخه؛ ولكن مع كل هذا بقيت في نفسه بقعة مضيئة، نيرة، ساطعة، عنوانها أمه الحاجة زينب-رحمها الله-ومحتواها هو أصدقائه، وهو أولهم، حسب أن ركّام العالم الآخر طغا عليها، وكدس قذارته ظهر على أثرها، ولكنها بقيت ممتدة غالبية سائدة، تأبى أن تترك ظلام قلبه وعمته أيامه.

ودّ "حداد" أن يسأله ما سرُّ هذا الكلام وفي هذا التوقيت، فهمها "برج" وهو يتناول آخر رشفات الشاي، وهو يهيمُّ من مكانه متجهًا نحو الباب، وقالها بشفتين فقدتا السيطرة، اختلجتا لحظة قبل قوله:

- كالوشا!

أغلق الباب خلفه، وعقد "أحمد حداد" حاجبيه... ولم يُعقب.

* * *

دقَّ قلبه مع دقائق الساعة، دقائق مزعت هدأته، وأضرمّت في جنبه حمى الانتظار، وسعّرت في صدره نار الترقب.

نصف ساعة مرت، وهو متصلب في مكانه، على أعتاب نفق "نصر الدين" المؤدي إلى شارع "الأهرام"، شعر في البداية أن نظرات ما ترصده، تراقبه، دخل سيارته التي ركنها بجوار دار المناسبات، استوى على مقعده لحظات، حاول من مكانه أن يرقب القادم من شارع "ترعة

الزمر" ولكن لم تمكنه زاوية الرؤية، تلملم في جلسته، ثم عاد أدراجه إلى المكان نفسه الذي ازدحم كثيرًا، رأى عيون الجمع المترصدة، اكتشف أنها تراقب النفق، وما يلفظ، كلهم ينظرون إلى يسراهم، أما هو ينتظر من يأتي من الجانب الآخر المقابل، ومع ذلك كان دوره في تفرُّس الوجوه، من خلف نظارته السوداء التي ساعدته على بعثرة نظراته أينما يشأ.

السابعة والرابع ...

التوقيت المفترض لوجودها - كما أخبره "حداد" - في نفس المكان، مكان تلاقيها مع حافلة الشركة التي تقلها يوميًا، تمر عليها في تمام السابعة والنصف.

ينتظرها ... ودَّ أن يعرف لماذا أوصدت أبوابها أمامه.

ينتظرها ... كي تكشف غموض لقاءها مع أمه، ويفهم فقط ما حدث.

ينتظرها ... لأن أيامه مرت دونها فاترة إلا من عريضة الأفكار، وفوضى النظريات والاحتمالات.

ينتظرها ... الآن وغداً وما تبقى من أوراق تقويمه.

انتظر قبل اليوم أن تفتح هاتفها المغلق، مع رنة هاتفه يعتقد أنها هي، ثم يتذكر نغمتها المميزة، يطمئن عليها من "حداد" فهو يراها في الشركة يوميًا، ولكن لم تُتح له الظروف أن يفهم منها - لم يخبره "حداد"

أنها تتحاشى الحوار معه - فقرر أن يراها اليوم، استيقظ مبكرًا من نوم أهדרه السهاد، اخترق شارع " فيصل " بأكمله ثم عرج إلى أول شارع "الأهرام" لم يفكر في تأخره المتوقع عن العمل، لا يهم، لم يفكر من ردة فعلها عندما تراه، لا يهم، لم يفكر في كلماته، في نظراته، ونظراتها، غاضبة، مُرْحَبَة، مُتجاهلة، مُرتبكة، رافضة، نادمة.

السابعة والنصف تمامًا...

توترت نظراته وقد تفرست في الجميع، لم يخشَ ردة فعل، تناسى قواعد اللياقة تحرّك رأسه بكامل استدارته، وتحركت قدماه إلى الأمام، وإلى الخلف، يمينًا حتى الثغر الفاصل في السور الحديدي بين الطريقين ويسارًا حتى حافة فوهة النفق، تفرّس الحافلات المنتظرة، والمغادرة.

الدقائق تمرُّ، أحرقه ثلج الانتظار، ركمه رماد اليأس، أثقل كاهله تل الإحباط بعدما جاء على قدر، وزفَّ إلى عينيه بهاء شمسها عند اللقاء، وبشّر كَفَّه بلمس زهر كَفَّها عند السلام.

عاد إلى سيارته يجرُّ أذيال الخيبة، مقموغًا، حاول الاتصال بها، في آخر محاولاته، هاتفها مغلق، بعصبية قلب في هاتفه، يبحث عن أي شيء، أو لا شيء، وجد الصور العشوائية التي التقطتها "مريم"، صور مهتزة إلا صورة واحدة كانت واضحة تمامًا، صورة أبيه، نظر في عينيه لحظات، ثم راح يتابع وجوه المارين، على أمل، زَفَرَ في عُمق، وَجَمَ بعد الترقُّب والانتظار، بعدما ألقى سراب أمله، ولقي خيبة رجائه، مرت الدقائق وكان طريق "الواحات" فيها أطول مما ينبغي، إضاءة هاتفه

الجوال لم تختفِ كالمعتاد وكأنها استقرت على صورته أبيه الراحل، عطب ما أصاب قلبه قبل أن يصيب هاتفه، حدّق إلى الصورة التي لم تختفِ، ثم عاد يتابع طريقه كفأر مذعور، وزاده فراغ الطريق بعد مداخل "أكتوبر" وحشة، أحسّ بآلاف العيون تتشكل من حبات الرمال على جانبي الأسفلت، ذبذبات الراديو المترددة تزيد الطريق عزله، واختفت تمامًا بعد أن تخطى مطار "جانبكو" على طريق "الواحات"، انهمك في عمله كالعادة حتى داهمه وقت الظهيرة، عاد هاتفه إلى العمل بعد أن أغلقه وأعاد فتحه، وجد رسالة مقتضبة من محامي السيدة "سناء" يبلغه فيها أنها تمرُّ بوعكة صحية بين الحين والآخر، أسفّ لوضعها، استقرّ على زيارتها بعد العمل، وأجلّ المواجهة الخاصة بموضوع وصاية "مريم" .. بعد أن حسم أمره بالرفض، لا يحتمل أن يتخذ قرارًا سواه، لا رابط بينه وبين أخته سوى اسم "عبد الحميد صدقي"، الذي هو بدوره أب بالاسم وقليل من الذكريات، زفر في قوة، كم تمنى أن يرى "داليا" الآن، هاجمه رنين الهاتف، رقم والدته على شاشته، صوتها يأتي مرتبكًا على غير عادة، كلماتها ممزقة الحروف، وكأنها مرت على جلد قنفذ، أنصت إليها مبهوً ثم ردد في تساؤل محموم :

- مجلس الشعب!

رسالة قاسية، نكأت جرحًا لم يندمل، وما ينبغي له، ودّ لو صرخ ولكنه سقط في مكانه مهزومًا من كل الجيوش، أنهت يومه مبكرًا، راه

أحد زملائه، دنا منه، وسأله عن عبوس وجهه وتقطيب ملامحه، نظر إليه شاردًا، تلجلج لحظات ولم يُحر جوابًا.

* * *

تسلَّل من بين المهمات والتمتات والكلمات المتقاطعة المتداخلة والأحاديث الجانبية المعتادة بعد فض الجلسة، لم يختلف سوى أسهم النظرات التي أحاطت به، جاهد أن ينسل بين الأكتاف المشجعة، والأكف مرهقة الدعوات التي احتضنت يده الرخوة كسمكة، وقد تفصدت عرقًا بلا حدود، ودَّعهم بنظرات مشدوهة، مهاجرة، وأنفاس مبتورة، ومِرْجل قلبه لم يتوقف عن الخفقان.

مرَّ بين البسمات المناصرة، محملاً بربت الراحات، وعبارات الثناء من الجمع، لم يزعجه سوى هياج شرذمة قليلين، من رهط الليبراليين وقد ثاروا عندما ذكر كبيرهم الذي علَّمهم سحره، وأدخل في تكوينهم أبجديته الغربية، وشيفرة عاداتهم وخصالهم وانحلالهم وفسادهم وتعفنهم، صرخوا عندما ألقى عصاه التي لقفت إفكهم وإفك مجتمعهم وعالمهم السرطاني، ودوا لو لو ثوا به جينات الوطن، لينحدر من صلبه التفكك والفساد، هاجوا لما أزال عن صنمهم ورقة التوت التي سترت عورة فكرهم المنحل.

تذكر الكهارب التي نفضت عروقه عندما نطق رئيس المجلس اسمه - لأول مرة - تجاهل النظرات الدهشة والساخرة والهازئة والمتربة سقوطة والمستوطنة قدره، تجاهل رؤوسًا استدارت ووجوهًا تحامت،

ترقّب ما يقول، انتزع نفسه من الكمون، وباعدَ ما بين كتفيه، وازدرد ريقه، حتى شعور التردد الذي خامره، نحّاه جانبًا، وانطلق لسانه وبثق لهيبًا يصدر عن أوار وألقى ما في جعبته، تجاهل تصايحهم عندما قص حكاية ابنة كبيرهم التي عاثت في الأرض فسادًا وكادت تصيب أحد الشباب بمرض الإيدز اللعين، بعد أن أغوته كشيطان مريد، كل هذا قبل أن تعود أدراجها إلى بلاد الانحلال، ويأتي أبوها بعد سنين ليث في المجتمع أفكاره الخربة، المُخرّبة، والمناوئة للقيم الشرقية والمناهضة للمبادئ السمحة التي تعيش بها أفراد المجتمع.

وقف بعدما أفرغ ما في جوفه، مُحَرَّرًا من كل عبء، منتصبًا كرمح أفريقي مغروس في طينٍ لازب، لم تحركه صيحات الاستهجان، أو تفض هداثته شهقات الإنكار، ولا حتى دعوات الرضا حركت ساكنه، لم يسمع سوى مزيج من الأصوات المتداخلة بين زجرة غاضب، وخوار ذبيح، وفحيح حائق، حتى دقائق رئيس المجلس فوق طاولته، وتهديده، وووعيده، ورفعته للكلمة من مضبطة المجلس، وإحالتة إلى التحقيق، وصمته لما سأل عن مرجعه، لم يبيح عن مصدره قط، ولن يفعل أبدًا، فلم يأتِه فاسق بنبا كي يتثبت، بل أستاذة الذي ميّزه عن نفسه، وأثره بهذا السبق، وانسحب حتى يحظى هو بالفضل كله، ويتطهر المجتمع من أفكار الليبراليين المعوجة وأحزابهم المشيدة على بداءات الغرب وانحلاله.

كان يتمنى أن يراه الآن، وهو الرقم المجهول في مجموع الخمسمائة،
هو الصوت الغلق تحت القبة، هو الوجه المنسي من بقع الضوء، والآن
وقد تجمعت الكاميرات حوله تطارده عند البوابة، وتتصارع مكبرات
الصوت لأجله تستأنس لحديث، ظنوا أن صمته وإعراضه عن الكلام
زهد، فزادهم رهقاً وإصراراً ورغبة وضجيجاً.

لم يسأل نفسه عن سرعة استجابتهم بعد الجلسة بدقائق معدودة،
وكانها كانوا منتظرين أو دفعهم أحدهم عنوة!

لم يسأل نفسه عن ماهية التحقيق، وتداعياته، من أولى خطبه في
البرلمان!

لم يسأل نفسه عما تحمله الأيام القادمة، من تأجج الصراع بين
التيارات السياسية نتيجة ضربته القاصمة، ولطمته للألف وجه الذي
يحملون!

وإنما دار في خلدته سؤال واحد عن معلمه وكأنها يصرخ بلا
صوت:

أستاذي. أين أنت؟ لم تركتني؟

لم يدر وقتها "عادل نوح" أن "حسين عبد العاطي" الذي غادر
قاعة المجلس على حين غفلة من أهلها؛ يجلس الآن يتناول غداءه في
مطعم "البارون" في "مصر الجديدة"، ويغرس شوكته في سمكة
"دينيس" جلبت له خصيصاً من بحيرة "البردويل" وأمامه حوريته

تأمله في إعجاب واضح، وانجذاب بيّن، تيقن وقتها أنها سقطت أخيراً بين يديه.

قضى نهاره كله عند حدودها، هربت العقارب من ساعته، ومحت خطوط الطول عن كرتة الأرضية، وصل إلى عينيها أخيراً، طاف بينهما وسعى، ألقى على شاطئها سنين عمره، وانطلق فوق رمالها، وقد أشعلت نيران ثلجه، وشغلته عن أمور الدنيا، بقي في حضرتها ساكن الهواجس، صالح البال، لم ينل من هدوء قلبه شيء، حتى الرسالة التي مرقت إلى هاتفه، توقعها، ترقبها بين الفينة والفينة لم يخامر شك بما تحوي، اختلس قراءتها عندما قامت فاتنته تغسل يدها التي لم تتسخ.

- كفاية فوسفور هتنور كده.

اللجنة... يسمع ضحكة "مصطفى النوري" من بين الحروف، يعلم أنه يراقبه، ويحصى أنفاسه، توقع أن يشكره، أن يثنى على صفحته التي قضت أو كادت على تيار سياسي متعجرف، بفكرة خارج كل الصناديق، حتى صندوق الدنيا، فقط من منبع أفكاره هو، باتت كرصاصة طائشة من مسدس مجهول، ويقف هو مصفّقاً بين المشاهدين، بريئاً مما يصنعون.

ولكن "مصطفى النوري" يأبى إلا أن يهينه، يُذل ناصيته، يحقر أمره...

عليه أن ينسى، ويتمتع بالنعيم المقيم الذي عاد من توّه باسمًا يحمل في الثغر ألف بشارة، وعلى الجبهة أزهار اللوز، وعلى الهدبين باح الجمال

بسرّه، لن ينسى أصابعها وهي تُلوّح له مودعة أمام فيلتها الشاخنة في شارع "حسن صبري".

أغلق هاتفه في وجه "فتحي" مدير أعماله الذى راق له تعكير صفوه، وألقى به إلى جواره عن غير اكتراث، وحرص أن يغلق زجاج سيارته، وأفرج عن موسيقا كلاسيكية، محبوسة بين ترددات المذياع، انفصل في صومعته عن صخب الطريق واصطخاب عابريه، عبر بين فوضى السيارات التي احتلت ناصية شارع "العريش"، تجاهل صدمة الانتقال من عالمه الخاص إلى عالم الضجيج بعد أن أغلق سيارته، تقدّم نحو مصعد عمارته مطلقاً صفيراً مميزاً لأغنية قديمة لـ "وردة الجزائرية"، ارتعد لحظة عندما ظهر "برج" فجأة بقامته السامقة، عقد حاجبيه وكاد ينطق بشيء لولا ظهور "أحمد حداد" المفاجئ من خلف "برج" وقد تقدّم منه خطوتين، ولم تزل دهشة "حسين" حتى بعد أن استقبل وجهه قبضة "حداد" التي انطلقت قاسية حازمة مفاجئة حتى لـ "برج" نفسه، الذي وقف بينهما حائراً.



لم يجد دونه سبيلاً، ومرفأً أخيراً ينقذ به صديق عمره من الغرق، انتظر حتى دلوك الشمس، سبق لهائه تصايح الديكة في البحث عن رقم الهاتف، اعتصر ذاكرته حتى انتشل اسم الشركة من تحت ركام ذهنه المكدود، استمع إلى موسيقا الانتظار المملة، حتى أتاها الصوت المعدني بعدة اختيارات، لم يأتِ ضمنها رقم مدير الإدارة الهندسية، ضغط على

رقم شكاوى العملاء، تلجج قليلاً وبعد مناقشة قصيرة، تفهم الطرف الآخر حجته بالحديث الشخصي مع المهندس "عبد الحميد صدقي" وتلقى الرقم الداخلي بتقدير، طلبه من فوره، حتى أتاه صوت عميق يصدر عن بئر سحيقة، سكّت برهة قبل أن يقدم نفسه: "أحمد حداد" صديق "كريم".

جاوبه الطرف الآخر بترحابٍ من يعرفه مسبقاً، لم تشغل "حداد" فكرة كيف تعرفه ومتى ومن، فقد كان يقاوم صخب هواجسه، وجدوى خطوته، وهدر وساوسه قبيل لفظ سر صديقه، ولكن ليس له خيار، فقد ضاقت دائرة الحل وخشي أن تمتد طرق المتاهة إلى قمة جبل التعقيد.

لم يتبق سوى الشك والترقب بعد ختم عبارات الترحيب، تهدج صوت "حداد" وضاعت الكلمات المعدة سلفاً، حتى عزم أمره، وشرع يقص الحكاية، تركه المهندس "عبد الحميد" حتى النهاية، ظن "حداد" أن الاتصال مقطوع، تأكد أكثر من مرة أن مستمعه ما زال هناك، تكلم حتى أفضى ما في جعبته، طالباً راجياً أن ينقذ الأب وحيد، بلا انفعال زائد، وبرباطة جأش، لم ير "حداد" وقتها وجه عبد الحميد صدقي الذي اربد، ولم ير انتفاخ عروقه تحت بشرة تحامت حتى الاحمرار، فقط أتى صوته واعدًا بحسن التصرف، شاكرًا لحسن سلوك الصديق.

أغلق "حداد" الهاتف، وعن صدره زحزح هماً بثقل جبل، لتخرج منه زفرة حارة، من بركان قد خمد، إلا من بقايا هواجس التسرع والوشاية وانهيار متوقع لعلاقته بصديقه و...

وألقى "حسين" لدى الباب، يقف خلفه صامتاً يترقب.

فَرَعَ "حداد" بعد أن اكتشف وجود "حسين"، وقد ظنّه نائماً، كظم غيظه من تجسس "حسين" عليه، وتنصّته على المكاملة بتبجح، حاول أن يتهرب من نظرات "حسين عبد العاطي" المتسائلة المحيطة به من كل جانب، الذي بدأ منفرداً بتجميع الخطوط:

- إيدز... عبد الحميد... كريم!

دار رأس "حداد" وقد اتسعت الدائرة أكثر مما ينبغي وقد بات "حسين" مُصرّاً على إرضاء فضوله، لا مفرّ، حكى له الحكاية من البداية، لعله يلتبس منه هدى، وقصّ عليه ما فعل، فغر "حسين" فاه من الصدمة، وزاغت عيناه لحظاتٍ، وبعد أن حكّ ذقنه بأنامله، هزّ رأسه موافقاً "حداد" فيما فعل، ومؤيداً لخطوته، ونفى عنه تهمة الوشاية، إنما هو نذير، لقد أخبر الأب عن نكبة ابنه، من باب درأ المفسدة، وربما كارثة أكبر قد يرتكبها، وأن المصلحة العليا مُقدّمة على المصلحة الشخصية، وأن إنقاذ صديقه أو محاولة إنقاذه أولى وأحق من شبهة الوشاية، حتى لو انقطعت الصلة بينهما ولم يتفهم "كريم" حجته، يكفيه وقتها أن ينام مطمئن الضمير، أما لو حدث العكس فلن يهنأ يوماً بالعيش مع ضمير مضطرب.

تلقّى "حداد" كلماته باهتمام وتدبّر، وقد أتت على قلبه برداً وسلاماً، وبعد أن هدأت سريره، عاتبه "حداد" على سماعه المكاملة بالكامل دون أن يشعره بوجوده، لم يصدق كلمات "حسين" المتقطعة

من شرائح الخيار التي ملأت فاه بأنه لم يقصد أن يتابع حديثه، لم يقتنع "حداد" وقتها، ولكنه أصرَّ أن يعده "حسين" بالأخبار من البشر أحدًا، تظاهر "حسين" بالغضب لحظات، واتهم صديقه بأنه يظن السوء به، ومع هذا فقد عاهدَه بالألفظ السّر، وارتاح ضمير "حداد" بعدما اتخذ منه موثقًا.

– أحمد...!

انتزعه صوت "برج" من ذكرى سنوات مضت، حسبها طمست بين أوراق التقويم وعقارب الساعة، لقد عانى قطيعة صديق عمره لما علم أنه لفظ سِرّه لأبيه، حينها وجد مبررًا لصديقه الذي عاد إليه بعد غياب، ولكنه لن يُصدّق تلك المرة أن معرفة "حسين" هي محض مصادفة، لا ذنب له فيها.

نظر "حداد" إلى "برج" الجالس بجواره خلف مقعد سيارته وفي عينيه ألف سؤال، يعلم أنه ورّطه، يعلم أن ثمة معاملات خاصة بين "برج" و"حسين"، ولكنه عندما سمع بما دار في جلسة مجلس الشعب ظهر اليوم وخطاب النائب المجهول، وفوضى الإعلام التي ثارت على رمز الليبراليين وكأنها وجدت ضالتها أخيرًا في النيل من هذا الرجل "فاروق الحسيني" وأتباعه وتأكيد مخاوف الناس من فكره وأفكاره وما يعتقد، وإرساء مزيدٍ من جُدر التنافر لمبادئ الحرية والتحرر وما ينادي، وذلك دعمًا لتيار بعينه، وستنطلق بعد سويغات الحملات المضادة وتكذيب ما قاله النائب ولكن هيهات، لقد انطلقت كُرّة الثلج، من

أعلى المنحدر، وبدأت الإثارة، ولن تفلح كل المحاولات لإثناء الشعب عما يجب أن يعتقد، وقد وقرَّ ما قيل في قلبه، كوشم فرعوني، وسيكون هو السبب في انهيار معسكر الأمس الذي طالما آمنَ بأفكاره وتوجهاته وميوله، حتى بعدما انزاح عن طريقته غير المثلى، متناقلة الخطى، محلقة خارج المدار، لم تُراعِ إحداثيات الأمية التي خطت عقول نصف الشعب وسوء التعليم الذي عصف بالنصف الآخر.

لاحظ أن السيارة قد توقفت، ورأى شرفة منزله أمامه وإلى جواره ترقد سيارته المستترة في أمان، أجاب عن نظرات "برج" المتسائلة عن سبب إعراضه عن سيارته وإهماله لها، أجابه بكلمات مقتضبة، لم يستوعبها "برج" الذي طلب من "حداد" أن يعطيه مفتاح السيارة ورخصتها، تردد "حداد" لحظات ثم أذعن لرغبة صديقه.

إحساس الذنب أعياه، أقامه من ضجعته، حاول مرات أن يُهاتف "كريم" ولكن لا يأتيه سوى رنات رتيبة متتابة ولا مجيب.

* * *

- متقلقش إن شاء الله خير. أنا بكرة هكلم رئيس المجلس أو دكتور عصام ونهني الموضوع ده. نام يا سيادة النائب وانت مطمئن. في رعاية الله.

زفر "حسين عبد العاطي" زفرة أخيرة وهو يغلق هاتفه النقال مع "عادل نوح" الذي بدأ القلق يتسرب إلى نفسه، فتح باب المبرد ليتناول

قطعة أخرى من الثلج ويضعها فوق عينه التي بدأت تتورم بعد ضربة "أحمد حداد"، دهشة رده فعله العنيفة على عكس ما تتسم شخصيته بالركة والغضاضة، وعلى الرغم من كل شيء وجد نفسه يتسم، لم يتخيل ردة الفعل السريعة من صديقه الذي ما عاش إلا ليفكر، لا قرارًا اتخذ، ولا طريقًا أتم، أتى إليه في اليوم نفسه، كاد أن يمحو عن ذهنه حلاوة الانتصار ولذته ودفع اللقاء الذي تمنى، ولكن ما أزعجه حقًا ليس لكمة "حداد" ولا ثورته وإنما نظرة "برج" الخاوية، وشفته المطبقتان على آلاف الكلمات، يعرف أن وراء قناعه الحديدي تنزوي دنيا من الأسرار وتُعربد آلاف المعلومات، يعرف أنه يعلم عنه الكثير، لا يرتاح لوجوده، يعتبر أكثرهم خطرًا، فالكل يسعى خلف المال والمصالح، أما "برج" فغموض شخصيته وتاريخه ورده أفعاله يقلقه، ولا يجد معه وسيلة تواصل، وهذا النوع لا يأمن عاقبته، والطريقة الوحيدة لتفاديه هو التخلص منه، وينتهي مصدر الخطر إلى الأبد.

دَقَّ جرس الباب دَقَّتَيْن، وكان "سيد برج" هناك وقد تبدلت نظره الخاوية إلى نظرة وعيد.



شَقَّ طريقه عائداً إلى القلعة بعد مواجهته مع "حسين عبد العاطي" أمتار قليلة تفصلها عن شارع العريش حسبها دهرًا كاملاً وقد اخترقت قلبه أحاسيس جديدة، وبدأ الخوف يسلك دربه المعبّد بطبقة من الأسفلت، نظر في مرآة سيارته، لقد تغيّرت ملامحه، شيء ما تبدّل،

ظهور أصدقاء الأمس وموت "كالوشا" أيقظ أشياء في روحه حسبها ماتت وانتهت، توقف بسيارته أمام القلعة، تأملها من الخارج كأنه يراها لأول مرة ...

"هل هذه هي النهاية التي كنت تتمناها؟ هل هذا هو المصير الذي تنتظره؟ تضاءلت حتى أصبحت خادمهم، يدهم التي تبطش، راحتهم التي تفتك، بنوا صرحهم فوق ركامك، صعدوا وتصادوا بعدما ارتقوا كتفيك، وطئوا رأسك كي يعرجوا رمية حجر ينفروا إليك وقت الحاجة، ينافقونك، يداهنونك، يتقدمون إليك زلفى، وعندما تنقضي حاجتهم وتمتلئ خزائهم بأموال ما كانوا ليكسبوها دونك، يديرون إليك ظهورهم ويلعنونك في سرهم، فالناس تبدى وقت الخلاف، فعند الاختلاف يبدأ الاكتشاف، وينظرون إليك عندما تحادثهم نظرة غرور وبسمة زهو كنظرة حسين لي الليلة، وهي تنزع عني فكرة أن أراجعه أو ألومه على ما فعل (حتى لو أني أجهل فعلته)، ولكنها أذت من أحب، رأيت نفسي في عينيه، ضئيلاً، هزياً، وادعاً، وقد حرصت أن أبدو غير هذا، ولكنه لم يكثر بنصيحتي التي تحولت إلى تهديد، تركته ولم أر لكلماتي أثراً عليه، حتى بعدما ألمحت له دركي حقيقته، فهم بفطنته ما أعني، لم يبد انزعاجاً، كمن توقع تلك اللحظة، وأعد لها ما استطاع من قوة ورباطة جأش، بينما أتت حروفه بطيئة جاهلة تهديدي، عليمه بما تلفظ، مؤكدة عمق العلاقة بينه وبين "حداد" وما حدث بينهما ليس إلا سوء فهم، وتفهم ردة فعل صديقه، الذي عاش في بيته شهوراً،

ولن ينسى الفضل أبداً، أتذكر عندما تهدج صوته عند الجملة الأخيرة، وبدا كممثل مسرحي محترف، وبعدها تثنأب في قوة، معلناً نهاية اللقاء، عدتُ وأنا أحمل فوق صدري همماً، وندمت على لقائي به وكلامي معه، ورضيتُ أن أنسحب أمامه، أبدو كأسد عجوز مُروّض لا يملك من قوته سوي تاريخ، أسمع واطيع، وأقنت وارتضي وانساق وانطاع، لا أتذكر حروف كلمة لا، نسيت حنجرتي طعمها، هاتان العينان في المرأة ليستالي، هذه الفيلا التي أسكنها ليست مكاني، مكاني هناك، عند صورة أمي، هذه الفيلا المكتوبة زوراً باسمي، وكأني زوج داجن ارتضى أن يهب امرأته لكل الرجال".

أطلق نغير سيارته وسرعان ما انفتحت البوابة ويظهر خلفها "دويدار" مُهللاً ومرحباً، وقعت عينا "برج" على سيارة "فايز" المميزة التي توقفت داخل الفيلا، وهمَّ أن يسأل "دويدار" لولا هتاف "فايز" الذي أطلَّ من الشرفة الأمامية للفيلا:

- أنا هنا يا برج مستنيك فوق يا صاحبي.

لهجة "فايز" اللينة يعرفها جيداً، يدرك أنه في أقسى فتراتهِ وأدنى مراحلهِ، يظنُّ أنه سيخلع عباءة غروره ويستعين به ضد الجميع، ولم تمر لحظات تحدّث فيها "فايز" عن صداقتها والعيش والملح الذي أكلاه معاً وأن المجد الذي صنعاه معاً سيلقمه "جمال النخيلي" و"حسين عبد العاطي".

لقد ائتمر القوم به، ونفذا مخططهما بالتخلص منه، وعزله، وإبعاده، وتحييده، مع إذعان "ثروت الجميعي" واستكانة "مسعد الصاوي"، ولن يبقى سواه، وحيداً بينهم، لن يدافعوا عنه إذا سقط، و"حسين عبد العاطي" لئيم القدرة والتمكن، لن يُبقي عليه، لأنه يدرك أن "سيد برج" لن يحيا محني الهامة، ولن يُخفف له جناحه.

لا مخرج سوى الوحدة ولا ملاذ إلا بالاتحاد، عليه أن يرفض التعاون معهم، وأن يرفع يده من فوق أيديهم، لكي يعلم الجميع أن "فايز" و"برج" وجهان لعملة واحدة لا يفرقهما ألف "جمال" ولا مائة "حسين".

"أنت وهم وجوه لأحقّر عملات التاريخ، العملة التي يفقد من أجلها الرجل شرفه وأنفته ونخوته من أجل دراهم معدودة، يشري نفسه بثمانٍ بخس".

دار "فايز" حوله في نصف دائرة وقد شجعت نبرته واتساق عباراته وتحاشي النظر إلى عيني "برج" اللتين تزعجانه، وانتظر حتى أتم حديثه وعرض على "برج" العرض المباشر إما معه أو معهم.

"تأتي اليوم لتلعب نفس اللعبة، لعبتهم، تظنني غرّاً ساذجاً، تضمّه إلى فريقك بكلمتين، تعرف أنني أحتقرك، وتعرف أنني أكرهكم بالتساوي، تأتي إليّ بعدما تقطعت السبل، فرعون آخر تستخفُّ بي لأطيعك، اللعنة عليكم جميعاً!"

استعدَّ "فايز" للانصراف وأخبرَ "برج" أنه ينتظر منه ردًّا، يعلمه ويتوقعه من خير صديق، ختم "فايز" عبارته بابتسامه صفراء - يعرفها "برج" - وربت فوق ظهره ربما لأن كتفه صعبة المنال، وخرج وفي صدره حنق عظيم، شقَّ قلبه كأخدود، حَزَّ ما بين ما يرغب وما ينبغي له، غادر القلعة وهو يلقي على الطاولة محاولته الأخيرة وإلا سوف يهد أركان المعبد، ولن يُبقي عليه ولا يذر.

أما "برج" قد التقطت أذناه أذان الفجر، حسم أمره والتقط هاتفه وانتظر حتى أتاه صوتُ مُحَدِّثه:

أيوه يا موكشة... اسمعني كويس... ونفذ بالحرف.

ألقي أوامره إلى تلميذه وفي صدره وفي عقله قد دقَّت عقارب الساعة. ساعة الحسم.

* * *

الفصل التاسع

وقفت في موقعها المميز أمام أكاديمية الشرطة، فرشت بضاعتها من سجائر ومشروبات غازية وزجاجات مياه معدنية، ونصبت مجموعة من الأكواب البلاستيكية، واتجهت خطوتين لتتقن من حرارة الموقد وسخونة الإناء الذي يعتليه، وقد أحكمت غطاءه جيداً كي يحمى الماء أسرع وتتقي تلوثه بسفع الغبار الذي هجم محملاً بذرات الرمال وهتافات "الأولتراس" ومشاحنات أولى جلسات محاكمة مجزرة بورسعيد، وسط إجراءات أمنية مشددة، شملت مشاركة آلاف من القوات المسلحة والشرطة، لتأمين نقل المتهمين من محبسهم بسيارات مصفحة، وتأمين أسر الشهداء وأعضاء "الأولتراس" من الناديين (الأهلي والمصري).

صَبَّت الكوب الثالث لـ "نجيب" وقد ناوله بدوره إلى "نهي" التي جلست تسند الحاج إبراهيم الكيال وقد انزوى في ركن غير بعيد، وضعت كوب الشاي بين أصابعه وتنهدت في عمق، وتذكرت ذهابها مع "كالوشا" إلى كورنيش "منيل الروضة" عند المقياس، كان يُحيي الجميع من هواة الصيد، يعرفونه، يبشرون بوجوده، كان يعرفه بئو

الذرة والتين الشوكي والبطاطا، حتى السيدة العجوز التي تباع الشاي، كانت تسميه "وش الخير" وكانت تدعو له بالصحة والعمر المديد، كان يدندن وقتها:

(كان نفسي أنورك قمري وأعملك بإيديا الشاي، أحكيك في الليل حكاياتي وأغني لعنيكي بناي، كان نفسي أضمك وبقوة، أضمك انت مش هو، كان نفسي أناديلك أحكيك، أسمع منك أبكيك).

بينما ظلَّ الحاج "إبراهيم" يُتمتم بهمهمات غير مفهومة، غير مسموعة وسط الضجيج، وانتحى "نجيب" بعيداً زاعماً السؤال عن بدء الجلسة، ربما أراد أن يشرب سيجارته بعيداً عن عيني أبيه اللتين ابيضتا من الحزن، جَزَعَ على الشيخ الكبير الذي أثنى الغم فيه، ونال منه.

- المظاهرات والمحاكمات وش الخير عليا وعلى ولادي.

سمعت "نهي" "بائعة الشاي" وهي ترد على أحد الزبائن بينما عاد "نجيب" بخبر بدأ المحاكمة بعد دقائق، خفق قلب "نهي"، وهي تسمع نواح الحاج "إبراهيم" وصوته المتهدج رغم هتافات "الأولتراس" التي تتعالى وتزايد، وقد كان يتمتم بأغنية نوبية كان "كالوشا" قد علّمها إياها وعرفها معانيها.

ان دونيا ايبيج. ان دونيا ايبيج.

(الدنيا جحيم).

والله باد انجا .. نوريكا بادنجا.

(والله بعدك وبدونك حجيم).

ايكا فاكينيا.

(كنت قتلتي إنك راجع).

وبدأت المحاكمة جلسوا متلاصقين دموعها تنساب من تمتمات
الحاج "إبراهيم" القادمة من عالم موازٍ رثت لحال الرجل و"نجيب"
الذي تحامت ملامحه ونفرت عروق وجهه وصار يصرخ ويهلل ويزعق
لما رأى المتهمين، وتراشق الجانبان وتنادوا جميعهم: (حسبي الله ونعم
الوكيل).

ايكا فاكينيا

(كنت قتلتي انك راجع).

وبدأ القاضي يسأل المتهمين عن التهم المنسوبة إليهم وردوا جميعهم
بالنفي وتصايح أهالي الضحايا بأنهم كاذبون، وزاد الهتاف المطالب
بالقصاص رجفت شفتا "نهي" عندما تذكرت "كالوشا" عندما نطقت
النيابة اسمه بين الضحايا.

تاتين نجون .. ويتوداينتاني تر سافرون

(ساب والدته لوحدها مع انه ابنها الوحيد وسافر)

ان غيينكيلى .. غربن باتا .. فودريون .. اااا فويدريون

(بعد الغيبة الطويلة ده .. قال راجع .. والله قال راجع).

تذكرت بسمته، ضحكته، جنونه، حكاياته، أساطيره، شطحاته
وإن كثرت، أحلامه وإن قلت، صفاء قلبه، ورضى نفسه، ونقاء
سريره، تحبه، ما زالت تحبه، تفتقد حتى غضبها منه وثورتها عليه،
فليتوقف هذا العبث، هل ستعيده المحكمة؟ حتى لو أعدموا الجميع
وعلقوا المشانق لمن وراءهم، لن يغني عنها شيء، فهو لن يعود من عالمه
حتى لو طالبت النيابة بإدراج أسماء من تورط وتخاذل وتآمر ودبر
وتواطأ على لائحة الاتهام، وفض القاضي الجولة الأولى وتراشق الجميع
باللعنات وحلوا مراكب الصحراء، وعادوا، ودعتهم عند "المريوطية"،
أشار لها "نجيب" بينما ظل الحاج "إبراهيم" هائماً خارج المدار.

ايكّا فاكينياً

(كنت قتلتي انك راجع).

ترجلت فوق كسر أسفلت "المريوطية" ثم انعطفت يمينا،
استدعت المصعد الذي فتح لها بابيه بعد أن غلقت الدنيا أبوابها ولم تقل
هيت لك، قرعت جرس الباب وسرعان ما ألقت نفسها في صدر
صديقة العمر وأفرجت عن دموع معتقلة عن غير ذنب.

* * *

لم تفلح حبات العرق التي انفطرت من مسامه أن تخفي ذبول
وجهه، وقد زالت عنه نضارته، وصفاء عينيه، خلع عنه خوذته بعد أن

زادت من تثاقل رأسه وألقاها على الطاولة ثم ألقى نفسه فوق الأريكة وقلّل من حرارة جهاز التكييف، ثم تناول قدرًا هائلًا من الماء المثلج وأغمض عينيه.

لم يجد سبيلًا سوى الاندماج في العمل إلى حد التوحد، عقد عليه اعتزاه، وجد في رهبانية العمل ملجأه وملأذه، تشاغل عن إحساسه الذي طغى، وتأمّر الماضي والحاضر للنيل منه، جاهد أن يطرد عن ذهنه المكدود، أشباح أبت إلا أن تغرس رايتها في مجتمه، تداهم بين الفينة والفينة، يقاومها، يتحداها، يهزمها تارة، وتهزمه تارة أخرى، صور من الماضي والحاضر، تمتزج فيها صور أصحابها مع أنياب دراكولية المحيا...

"حسين"، "حداد"، "سارة"، "داليا"، "سناء"، أبوه حتى أمه لم يستثن منهم أحدًا. لم يكن يدري أنه يدفع ثمن أخطائه باهظًا هكذا! لم يكن يتخيل أن فقاعة الفشل التي حسبها انقضت وولّت أن تحتل حياته بتلك الصورة! لم يعهد أن تتعاضم مصائبه ككرة ثلج تردت من أعلى المنحدر، نذّت منه تنهيدة خرجت من جوف بركان مشتعل، ويبقى السر في العودة، لقد قضى سنوات خمسًا بعيدًا عن كل الخطايا، وعن كل ما يهدد أمنه وصلاح باله، لم يعد أمامه خيار آخر، فتح حاسبه الشخصي وحسّم أمره وأرسل رسالة إلكترونية لفرع الشركة في "الإمارات" ...لقد حسم أمره... ولا مفر.

زَفَر عن فوره زفرة هائلة اقتطعت من نفسه قيراطين من التوتر والقلق، ولم يكد يغادر موقعه حتى جاءه الهاتف بصوت "داليا".

حاول أن يقاوم، انسحبت بلا سبب، وعادت بلا متسبب، تركته وحيداً ولم تهتم حتى بالرد عليه، ومحو جهله بما حدث، تتابع الرنات زلزل كبريائه، فصم جدار مقاومته، تماسك وردّ عليها، وأتاه صوتها حانياً كما لم يكن من قبل، حاول أن يجد في صوته غلظة ولكن خذله الحنين ووجد نفسه مواعداً إياها بعد ساعات.

* * *

وكانها لعنة خرجت من مقبرة ...

ردّدها "حداد" في نفسه، وهو جالس خلف السائق المنطلق بسيارته متجاوزاً السرعة المقررة، وقد نفث دخان سيجارته في المرأة، متعدياً على زجاجة الركاب، ودحرت اعتراضهم في نحره، صار ينهش أسفلت طريق "بورسعيد" - "الإسماعيلية" كفهد طائش، فلا رادع له ولا رقيب، وعندما همّ أحدهم بالاعتراض، ضاعت حروف كلماته مع غمرة الموسيقى الصاخبة التي صبّها السائق من مذياعه، وبصق احتجاجهم مع بقايا البلغم عبر نافذته، وصبّ الجمع جامّ غضبهم على الثورة، ومن جاء بها ومن أيدها وقد وصمت بأنها العلة التي جلبت كل هذا العبث، ومن بين مؤيد كثر ومتحفّظ قلّ كانت بسمّة السائق تتمدد في ظفر، و"حداد" يردد في نفسه:

"هي اللعنة لا ريب فيها، لقد آمنت أنها كشفت أكثر مما ينبغي، أفشت المُغلق، وحسرت الغطاء عن الخفي، أظهرت عورات سترتها الجهالة، في أرض لم تنبت فيها أشجار التوت، وصار ربيعها خريفها،

فأصفرت الأوراق، ويبست السنبلات الخضراء، واجتثت شجرتها ما لها من قرار".

شَهَقَ الجميع في خوف عندما مال السائق ميلَةً واحدة عندما اكتشف "توك توك" انشقت الأرض عنه يسير في عكس الاتجاه، واربَدَّ وجهه السائق، وقذف محصات سائق التوكتوك المختل أو المكان الذي اخترقه منذ قليل، هداً الركاب من غضب السائق، وتنادوا جميعاً ألا لعنة الله على الثائرين وسائقي التوكتوك.

"حتى شم النسيم في "بورسعيد" لم يعد كما كان، أردت أن أهرب من حمم "القاهرة" وسخونة أحداثها، وأن أرى وجوه من أحبَّ بديلاً عن صور راغبي العرش المتناثرة في كل مكان، فوق المحال، وواجهة البيوت، وعلى الجدران وربما زرعوها في القلوب التي في الصدور، ولكنني وجدتها فوق رمل الشاطئ، ومعلقة في شبك الصيادين، ومرسومة على ظهر قناديل البحر، فلا مفرَّ، حاولنا أن ننسى ونحن نفطر المانجونا^(١) أقدامنا التي زلقت غصباً على أرض المكيدة، وتقدّمت "بورسعيد" نفسها إلى المقصلة بدلاً من دُمى "النبى" المعدة للاحتراق كما اعتدنا منذ قرن، واليوم تبدأ المحاكمة، وفي القلب غصة، وفي الحلق مرارة، وفي الفكر خوف أن تطأ خطى العدالة وجه بريء".

السائق يهدئ من سرعته أخيراً ويكتم صوت طبول الحرب التي تنطلق من المذيع، لاحظ "حداد" بوابات "الإسماعيلية" المودعة وغبار

(١) نوع من المخبوزات الحلوة التي تعدُّ في بورسعيد خاصة في يوم شم النسيم.

"القاهرة" يهذي لا مرحبًا بالقادمين، وفي لحظة هدوء نادرة في عالم الميكروباص يسمع صوت هاتفه:
- داليا.

التي غاب صوتها عن هاتفه أيامًا، بدت مرتبكة، فبعد السلام والسؤال عن الأهل والأولاد والأب التعب وإجازة اليومين، انطلق لسانها يسأل عنه، "كريم"، وحكت ما أخفت من حوار الدكتوراة "علية"، وما تحشاه من فارق المستوى الاجتماعي بينها وبينهم - زاد احترامه لها عندما لم تذكر أباهما - وأنها استعانت بالنأي والابتعاد عنه كيلا ترهقه من أمره عسرًا ما بين طاعة أمه وتقاربهما وأنها تحدثه وتستشير به بصفته أستاذها وليس صديق "كريم".

نطقت حروفه بشفتين مُتهدجتين، تغافل هو عن ملاحظته، ونصحها ألا تستسلم لهذا الإحساس الذي يفرق ولا يجمع، وأنها خير اختيار، ولن يزيد لها المستوى المادي إلا فخرًا، أما المستوى الاجتماعي فهي تزيد عن نظرائها برجاجة عقلها، وقوة وصلابة معدنها، وسمو شخصيتها، وعليها ألا تنسي فضل أبيها، وعظم أجره أنه صنع منها الفتاة التي تمنى، عليها أن تستمسك بما تريد، ولا تستسلم قط، فدائرة الاختيار أضيق مما تظن، وإن أتنها فرصة الاختيار أن تعيش مع من تحب فأنى لها أن تتردد.

سحقت الكلمة ما بقي من مقاومة وهدرت ما ألفت من كفاح، ولم يعد لديها سوى الإذعان وحسمت أمرها وشكرت أستاذها الذي أغلق
٢٧٦

هاتفه ودارت عيناه بين الوجوه التي كانت تراقبه وبدأت أنها تلصصت على مكالمته وسمعتها من كان نائماً في المقعد الأخير حتى السائق قد ابتسم له في مرآة المتصفح وفي عينيه نظرة رضا وسرعان ما استعاد غلظته وصوته الأجش من أثر الدخان:

- وصلنا المرج... ياللا حمد لله على السلامة.

كانت آلام السفر تدكُّ ضلوعه، وزلزلة الحافلة التي لم يعتدها بعد هشمت عظامه، ولكنه بالرغم من هذا لم يتوجه إلى البيت مباشرة، وذهب إلى "فرساي"، كان يبحث فيها عن أيام مضت وذكريات بقيت في القلب خالدة، وبينما هو خارج المدار، تنحنج "طارق فرساي" الذي اقترب منه حاملاً سلسلة من المفاتيح، وأعطى "حداد" إياها، وأردف أن مَنْ تركها هو المعلم "سيد برج" وأن السيارة مكونة في الشارع الجانبي.

تناول "أحمد حداد" المفاتيح وتوجَّه إلى حيث أشار "طارق فرساي" وبالفعل وجد سيارته ولكنها كانت مختلفة، مختلفة تماماً فلقد بدل "برج" شكلها من الداخل والخارج حتى الأرقام أصبحت تحمل أرقام ملاكي مصر، وليست ملاكي "بورسعيد"، لاحظ نظرات "طارق فرساي" المراقبة له من بعيد، حاول الاتصال بـ "برج" الذي لم يرد، وعندما فتح تابلو السيارة وجد الكتاب، طالما احتفظ به "برج" كل هذا العمر، ولكن لماذا يتركه هنا؟ هل نسيه، أم لم تعد به حاجة؟

تناول الكتاب وفتح الصفحة التالية للغلاف، ووجد العبارة:

"إلى ابني سيد، مع تمنياتي بالتوفيق".

كلمات خطها أبوه الروحي "زوج عمته" وقبل أن تجرفه ريح الذكريات، لاحظ وجود مفتاح آخر مع مفتاح السيارة، مفتاح يبدو وكأنه لباب خشبي، لماذا تركه "برج"؟ عاود الاتصال أكثر من مرة بلا فائدة.

* * *

حاولت "سماح عبد المعز" التخفيف عن صديقتها، حتى أنها ادخرت جزءاً كبيراً من احتفالية "شم النسيم" لتقتسمه مع صديقتها الوحيدة، بعد أن أتاها "فايز" بالأمس كمية كبيرة -على غير العادة - من الفسيخ من "شاهين" وكانت أختها "نعمة" جلبت الرنجة من "البراجيل"، ولكن لن تكتمل مراسم الاحتفال دون "نهي" حتى لو تأجل الاحتفال نفسه ليوم آخر.

كانت "نهي" ما بعد موت "كالوشا" شاردة حزينة بعيدة، انطفأت أنوارها المبهجة، وزادت في شهرين سنتين أو أكثر، خشيت "سماح" أن تدع صديقتها لقمة سائغة في فم رزنامة التقويم وتهرب أيامها القادمة حزناً على ما فات ومن راح، ولأول مرة منذ زواجها به تراه مهتماً بغيره، فقد فاتحها "فايز" بأن هناك من يرغب بالارتباط بـ "نهي" رآها منذ شهور وانسحب بعدما علم أنها في حكم الارتباط، وعندما علم بأمر "كالوشا"، جدّد طلبه، وهو شخص جيد لا يُعوّض، فهتمت "سماح" دهشة "نهي" التي رفعت حاجبيها مترين، فقد سبقتها من قبل، "فايز"

يأتي بالخير لغيره، كيف؟ ولكن لا يهم عليها أن تراه وتسأل عنه وتتيقن من ماهيته، أوقفتها "نهي" بإشارة ودمعة ساخنة فهي بعد "كالوشا" لا ترى رجلاً، ولن يقبل القلب أن يستبدله حتى لو غدا مجرد ذكرى، احتضنتها "سماح" ورثت لحاها وأوصتها بالألا تغلق باب الحياة وأن الحى دائماً أبدى وأحق ممن مات، وذكرتها بوصيتها لها عندما تقدم لها "فايز" وأن تكفَّ عن انتظار "كريم".

توقفت وكأن زلزلة ما رجت ضلوعها، وسحقت صخور البازلت المتركمة فوق القلب تمام، ووثق ينبوعاً من الشوق من جدران الشريان التاجى ليصب في عينيها بريقاً وفي وجهها لهباً.

وبطبيعة أنثوية سألت "نهي" عن "كريم" وأخبرته ولم يتجاهلها ولا يكلمها ألم تعد صديقه كما كانت؟ ألم يحمل في صدره نحوها أي كم يسير من الود؟ لامتها "نهي" على إصرارها بزج "كريم" في حياتها وهو أبعد من هذا، وأرادت أن تقطع هذا السبيل على صديقتها كيلا تخرب حياتها بأيديها، واضطرت أن تخرج من جعبتها أسرار "كريم" التي باح لها "كالوشا" عن غير عمد، ومزقت الكلمات قلب "سماح".

باحث "نهي" عن غير رشد كل ما حكاه لها "كالوشا" من حب "كريم" لـ "سارة الحسيني" وإصابته المزعومة بالإيدز، شهقت "سماح" لسماعها عن الأحاديث التي تجري في الإعلام حالياً حول "فاروق الحسيني" وابنته وسفره إلى "الإمارات" بتوصية من أبيه الذي طالما

ابتعد حتى مات وحيداً، وحتى قصة "داليا" لم تفتحها وأن ثمة علاقة قد بدأت ولا تعرف حتى إلام وصلت وكيف انتهت.

وبعد مغادرة "نهي" جلست "سماح" وحيدة تداهما ذكريات الجامعة، كانت تعشق لعبة الأفلام الصامتة وعندما تهمس لـ "كريم" باسم الفيلم أو الأغنية كانت تختاره بعناية لعله يفهم أو يعي ما ضاق به صدرها ولم ينطلق لسانها وكانت تظهر أكثر مما تُخفي.

قالت له يوماً: انت حبيبي، انت عمري، لعلمك انت بحبك انت، عن طريق لعبتها وتعامي عنها وكأن في أذنيه وقرأ، جلست تراقب غبش الغروب من شرفتها، والشمس التي لم يتبق منها سوى أنفاس تُبقيها على الجانب الآخر من الحياة، ألقت نظرة أخيرة على وحيدها وهو يلهو بدميته، أخرجت هاتفها ولم تتجاهل رغبتها هذه المرة، وأرسلت رسالة نصية إلى حب سبي روحها، وانتزعها من موضعها ليحلق بها خارج المدار كشمس لم تنطفئ تماماً ولكنها رست على مرفأ آخر، ربما لا يخصها، ولم يكن قط لها، ألقت برسالتها في الفراغ وانتظرت مع دقائق قلبها ودمية ركلها الصغير وذهب.



تقدمت خطوتين، بمعطفها الأبيض الأنيق ثم مالت بجذعها إلى الأمام فوق المجهر (الميكروسكوب) غابت عيناها فوق عدساته، حركت بأصابعها مفتاحه الجانبي لتغير وضع الشريحة واتجاهها، وتوقفت لحظات، تتأمل.

غاصت في عالم الكائنات الدقيقة، ما بين العد البكتيري، وكشف ماهية ما تكنزه العينة من فطريات، ومن بين المستعمرات الملونة، رأت نفسها هناك، غجرية مطاردة تتعقبها آلاف الوجوه البشرية، وجوه بلا أجساد، أميبا أحادية الخلية، بدلت قوة العدسة المكبرة، ظهرت الملامح أكثر، رأت في تلك الكرة المستديرة قسّمات الدكتوراة عليّة تنفث دخان سيّجارتها وتبتسم في استعلاء، ويشاركها ضحكاتها فطر أسود قطني الملمس حاد الملامح وكأن د. عبد الباقي خارج للتو من برميل نפט، وجسيمات مُدببة متلاصقة مصفوفة كآخر حملات الأمن الوطني على بيتها المتواضع، ورأته هناك مجسماً بارزاً على طرف الشريحة، حاولت أن تجذبه إلى بؤرة العدسة، حاولت أن تكبر الصورة، حاولت أن تدفعه كي يحرك ساكناً، ولكنه بقيّ دائماً هناك، بعيداً بعيداً، ينتظر بعين شاردة وقلب هائم، ودت أن تستصرخه، تستفزه، لا شيء، وقد بدا يتلاشى رويداً رويداً، ألصقت عينيها أكثر، شعرت بجسم العدسة يخترق جمجمتها وينفذ من الجانب الآخر ولكن غيمة ما حالت بينه وبينها، غيمة زادت حتى تكثفت فوق العدسة و...

وحالت الدمعة الفارة من عينيها بينها وبين ما رأت أو ما شاءت أن ترى. للممت دموعها الهاربة بأناملها وارتدت نظارتها الطيبة وخلعت عنها معطفها وانطلقت، لم يشعر بها أحد؛ فزميلاتها قد استعددنَ للرحيل منذ دقائق، بينما هي حرصت أن تبذل قصارى جهدها بعد أن زادت أيام اعتذارها تارة بسبب تعب والدها وبعض الزيارات

الصباحية للمستشفى وتارة بسبب الترتيبات النهائية لمناقشة رسالة الماجستير التي اقتربت بسرعة قصوى كنيزك يقترب بخطى متسارعة بفعل الجاذبية، وقبل أن تغادر لم تقاوم ركام الهم الذي بلغ المدى، دارت عيناها ككرتين من زئبق في المكان، وحينما لم تكتشف أحدًا اتصلت بـ "أحمد حداد" الذي لم يقطع إجازته بعد، باحت بكل ما في صدرها من همٍّ، كانت تسمعه بصعوبة فقط كانت تريد أن تتكلم، أن تحكي، أن تجد مبررًا للعودة إلى "كريم"، كانت تحتاج كلماته المشجعة، وعندما نالت ما أرادت، استغلت غفوة النفس اللوامة التي بداخلها واستسلمت لتلك الأمانة بالحنين إليه، إلى صوته، إلى هدايته، إلى تردده، راق لها أن تتشرد على أسواره خير لها أن تهناً بحياتها بعيدًا عنه، صرخت جنيةً متمردة في أعماقها، دفعتها تتصل به، حسمت أمرها، وجاء صوته من الطرف الآخر زلزل سواكنها، سلّمت عليه بصوت محشرج، دحرها رخم صوته، كمن يصدر عن بئر سحيقة، لم تقاوم رغبتها في رؤيته تواعدا في المكان نفسه سيمر عليها قبالة مسجد "نصر الدين"، خططت أن تحكي له ما دار، وتسمع منه، لن تستسلم أن تفقده، ستخبره دون استتطاء قدر أبيها أنه لم يعد يعمل عند "ياسر بدير"، ولم يعد يعمل قط، لقد أثّرت الجلطة في حركته وتركيزه، لامت نفسها أحست بذاتيتها تتكلم وإثارها لمصلحتها الخاصة، ليس من طبيعتها الاستسلام، لماذا تراجعحت هذه المرة، المواجهة هي خير سبيل، استقلّت حافلة الشركة العائدة إلى ميدان "الجزيرة" عبر شارع "الأهرام"، وضعت سماعة الهاتف في أذنيها وكادت تبدأ في سماع أغانيها المفضلة لولا أن جذبها حديث محتدم بين

زملائها في الحافلة حول مرشحي الرئاسة والتهديد باستبعاد بعضهم، اعتادت هي تلك النقاشات المحتدمة من بعد الثورة، وسيطر الهوى الفكري على أقرب الأقربين، ولكن أشد ما جذبها هو اسم "فاروق الحسيني" البعيد تمامًا عن موضوعهم، والاختلاف حول إيقاف عضو مجلس الشعب الذي تناول ابنته؟

ابنة "فاروق الحسيني" صعقها الكلام في البداية لامت نفسها كأحد المهتمين بالسياسة، إنها بمنأى عن الأحداث، ولكن شغلها العمل والمجستير وعلاج أبيها و"كريم".

"كريم".. تذكرت أن ثمة علاقة ما بين "كريم" وابنة "فاروق الحسيني"، لكنه قال إنها علاقة عابرة، استوضحت من صديقتها عن الموضوع قالت بلا مبالاة إن عضو مجلس الشعب زعم أن ابنه "الحسيني" كانت مريضة بالإيدز ونقلت العدوى لصاحبها المصري... انحلال... خفق قلبها في عنف، ربما ليس هو، ربما شاب آخر، ربما الموضوع كذب برمته لكسب تأييد الشارع في لعبة سياسية قدرة ربما.

وبين الألف ربما، فكرت لحظة في التراجع وسؤال "حداد" عن الموضوع ربما يعرف وربما لا وربما ينكر.

ولم تكن إلا ساعتين وجدت نفسها أمامه في المكان نفسه المتفق عليه جلست في السيارة إلى جواره ولم تنبس ببنت شفة، زالت عنها لهفتها، ودّت أن تفتحه مباشرة، ولكنها أرادت أن ترى عينيه، وربما

ودَّت أن تحسم أمرها، تَمَنَّت من الله أن تكون الحكاية محض افتراء أو أن يكون الشاب أحدًا غيره.

جلسا متقابلين، عينية تائهتان، هالتان سوداوان تحيطهما تزينان وجهه الشاحب، لم ينطق سوى همسات وكأنه أتى رغبًا عنه، كان في عينية ألف سؤال، أطرقت برأسها لحظة ثم هوت بسؤالها الوحيد، وكانت الإجابة واضحة أكثر مما ينبغي.

* * *

لم تكن سوى دقائق قليلة، هي الفاصلة بين شقة "فايز النخيلي" بـ"المربوطية"، ومقهى "دوار العمدة" بشارع "الليبي"، ولم يزل الحنق لا يغادر ملامحه، مسددًا سبابًا خفيًا لـ"عماد صبري" -المحامي بمكتب "علي راشد"- الذي تلقى منه اتصالًا ملحًا من نصف ساعة، يخبره أنه ينتظره لأمر جلل، اخترق نومه بصوته اللزج، وإلحاحه المتزايد، سيدرك في النهاية إنها حكاية مملة تافهة منعسة من حكاياته، وما أكثرها!

جلس قبالته دون أن يلقي التحية، وهو يفرك عينيه، مُثائبًا، كان مظهره غريبًا، وهو يرتدي سترة رياضية فوق سروال جينز وشبشب من البلاستيك. لاحظته "عماد" بعدها، عندما وضع إحدى قدميه فوق الأخرى.

وبعد مقدمة "عماد" التقليدية عن المعلومات المهمة والخطرة التي يحملها في عقله، والمجهود المضني الذي بذله في الحصول عليها، وتخفيه

عن عيون أستاذه "علي راشد" -قالها كرجال الممالك الذين اعتادوا خيانة بعضهم البعض- ثئاب "فايز" في وجهه كاشفًا عن بئر عفنة، بخر الكحول الرديء يفوح منه، كتم "عماد" امتعاضه، وهو يدير رأسه بطريقة تلقائية، وهو ينفث دخان نارجيلته، لعلها تخفف كثافة بخر الأنقوعة، تاركًا مساحة من الترقب والتشويق في ذهن "فايز"...

لم يدرك وقتها أن الجالس أمامه ذهنه مكدود، أحلامه مركومة مخنية الناصية تحت المقصلة، راح حلم المجلس، الحلم المتوج على ملك طموحه، نال منه "حسين"، ولم يكتف، تربّص بأعماله، واختلط بجوقته، وبدّد ثقة عائلته، قرّمه، أهانه، حيّده حتى "برج" الذي كان كفّ ذراعه، لم يكن لينصره، أو يشدّ عضده، تمرد عليه بنظراته الحادة، جلده بسياط بسمته الساخرة، حتى بعدما تملّقه، وأثر مداهنته، لم يزد إلا سخرية، ودّ وقتها لو اقتطع عينيه وسد أذنيه بحفنة من رماد...

و"ثروت الجميعي" الذي كثيرًا ما ساعده، وسانده في خططه، وصفقاته، وسرقاته، وجد في "جمال النخيلي" خير بديل.

أما الحاج "مسعد"، فلا حول له ولا قوة، أسد مريض، تم ترويضه، وتعبيده، استسلم لشريعة غابهم، عاش طيعًا لغريزة البقاء، حتى لو في أرض الضبايع.

وحلم عمره: سماح! عاد "كريم" يشعل جذوة في قلبها، حسبها ضمرت، وتبددت، ولكنها أبدًا، باقية هناك تحت الرماد...

- نبدأ بحكاية "عليه ياسين" ولا "حسين عبد العاطي"؟

انغrust شوكة الصياد في حلقه، شجت غشاء مقاومته، جذبته من قاع المستنقع، حدجه بعينين دهشتين، تابعه "عماد" بخبث من أوقع بفريسته، اعتدل "فايز" في جلسته، ومال بجسمه نحوه متبهاً.

صمت "عماد" متعمداً وهو يراقب وجه "فايز"، وقد انتقدت جذوته، وبلغ به الفضول ما بلغ.

عاد إلى منزله وفي قلبه تصدح أهازيج الفتح، وتومض فوق جبينه رايات الانتصار، أكل حتى امتلاً، ألقى نظرة سريعة على الصغير، وعاد يتأملها كعادته وهي جد نائمة، وديعة كحمامة يبضاء تتحول كالمستذئبين ولكن مع شروق الشمس لتصبح متوحشة كلبؤة شعواء، ولكنه يحبها، والآن وقد نال من خصميه من أخذ حبه ومن سبى أحلامه، وقد تمكّن منهما، وأحكم عليهما قبضته، ولكن بمن يبدأ؟ الأمر يحتاج كأس مركزة وقبل أن يغادر غرفته متجهاً إلى زجاجته المنتظرة تناول هاتفها الملتصق بالشاحن الكهربائي وفتشه كالمعتاد وكعادتها تتصل بـ "نهي" وأختها "نعمه" وأبيها وهم فقط يرسلون رسالة واحدة هي (كلمني شكرًا)، ابتسم لحظات عندما تذكر حالهم قبل الزواج وبعده، وأنه أكرمهما إكرامًا لها، ولكن صخرة صماء سقطت على قلبه فقد أرسلت رسالة إلى رقم مجهول ومن كلماتها لا توجه سوى لشخص واحد.. تأكد من الرقم عندما سجله على هاتفه فقد سجله من قبل باسم "كريم صدقي".

بدل ملابسه وانطلق، بعد أن عبر أبواب القلعة، وركن سيارته في باحتها، ألقى نظرة عابسة مندهشة مغاضبة على السيارة الحمراء من ماركة "فورد"، وفهم مسبقاً ما يحدث، إنها سيارة "جمال النخيلي"، مشى، وتحولت عيناه إلى عيني غول، حتى مدخل الفيلا، شاط غضباً، عندما ألقى الجمع منعقداً، دونه، رأى "جمال" بحلته السوداء الفاخرة، يتوسط الحاج "مسعد" و"ثروت الجميعي"، وعلى بُعد خطوات كان يقف "برج" بقامته السامقة.

رفعوا رؤوسهم نحوه، تجاهله "ثروت بيك" وقد بدا مشغولاً بكلام "جمال" الذي ألقى في وجهه ابتسامته الساخرة المعتادة، بينما بصعوبة سمع تلمات "الحاج مسعد"، المُرَجَّة على استحياء، اقترب منهم عن غير دعوة، لاحظ نظرات "جمال" التي تُحدِّجه من طرف خفي، ونثرت في عنقه جمرات لهب، جحمت كيانه، وبتر جملة فجأة لما اقترب "فايز"، في رسالة مباشرة، أن الأمر لا يخصه، ولا ينبغي له، وزاد من سخط الأخير، عندما سمع ثناء "ثروت بيك" على "جمال"، وأطرى جهوده، وفطنته، فيزداد الكيد على "فايز"، بما يساوي حمل جبل المقطم، اربداً "فايز" عندما قصد "برج" "جمال" بكلامه أن الباشا على وصول، انفجر فيه "فايز" بلا سبب، قذفه بتمتات وهميات ولعنات مبللة من ريقه الذي ساب، وشدقه الذي زرب على ذقنه المهمل، تفهم "برج" سر ثورة "فايز"، ولم يفهم كلماته، استقبلها ببرود طاغ، أمسك الحاج "مسعد" يد "فايز"، وهو ينتحي به بعيداً، كي يحفظ ماء وجهه،

وأسرَّ له أن شخصية كبيرة سوف تأتي بعد قليل، مع "حسين عبد العاطي"، وسوف يتم عقد صفقة جيدة، في صالح العائلة جميعها، وهو منهم، والصفقة ستتم عن طريق "جمال" ابن عمه، وهو اختبار جدي له، وهذا لا يقلل من دور "فايز" سابقًا ولاحقًا، فالجميع شركاء في المصلحة، ولكن عليه -أي فايز- أن يستعيد بريقه، ويعود كما كان، ويقطع عن عادة الشرب الجديدة التي أثرت فيه، وعليه، وعلى توازنه، وتركيزه، هو وحده القادر على مراجعة نفسه، والعودة إلى بؤرة الأحداث، ولا تزال الفرصة سانحة، وهو نفسه سيساعده.

كان "فايز" يستمع إليه بدون اقتناع، يعلم أنه يواسيه، يواسي "فايز النخيلي"، كل هذا من أجل من؟ وبسبب من؟ اللعنة على الجميع. ثم ألقى قنبلته في وجهه أن "حسين عبد العاطي" ما هو إلا عميل أممي؟

وكانها رصاصة فارغة خرجت من مسدس مبتل، لم تجد الأثر عند الحاج "مسعد الصاوي"، فقط أطرق برأسه، استعرت النار في جنبات "فايز"، أدرك الآن أنه آخر من يعلم، وأن قنبلته منزوعة الفتيل، وأن حقيقة "حسين" التي اكتشفها معلومة لديهم مسبقًا، لم تغير من رأيهم فيه وتعاونهم معه.

غادر بسيارته ذات الدفع الرباعي، مخترقًا البوابة بدويًا عنيف، مع نظرات "دويدار" المندهشة، أخرج زجاجته من تحت مقعده، وشرب

حتى الثمالة، ما إن وصل إلى باب شقته، حتى راح في شبه غيبوبة، رأى من بين ضبابها، زعيقًا وصخبًا من زوجته "سماح"، لم يميز مفرداته.

تمنى لو ضمها بين ذراعيه، يحبها، بل صار عبدًا لهذا الحب، ولكنه خائف من هذا الحب، وخائف عليه، والكائنات الخائفة أكثر الكائنات شراسة.

أزاحته عنها باحتقار.

بينما كان "حسين" يحصد فقط، يحصد كل ما زرعه، أو زرعه غيره، وكان يشكل مع "جمال النخيلي" ثنائياً متفاهماً، وبخاصة تلك المرة في صفقة استيراد الأرز، نالا إعجاباً ظاهراً من "ثروت بيك"، وإعجاباً مستتراً من "الحاج مسعد"، حرص "حسين" على بناء تلك الصلة وتوطيدها، إمعاناً في توثيق شهادة وفاة عملية لصديقه القديم، ولكن يبقى شيء وحيد يورق ذهنه، تلك النظرات المحدقة التي تندُّ عن ذلك الفتى الملاصق لـ "برج"، تشاغل عن هذه النظرات التي انسحب صاحبها خلف معلمه.

* * *

لا صديقاً صدق ولا حُبّاً استمرَّ.

وحيداً في غرفته يزرعها جيئةً وذهاباً، شبح الماضي يأبى أن يتركه وشأنه، جرح لا يندمل، تفتحه الأيام قطبة بعد قطبة، وتغرس عقارب الساعة سُمها داخله، حتى الأمل القادم في ثوب المخلص، تم

استدراجه واجتذابه إلى مستنقع ضحل من الخطايا وصار يطالب بالحساب بأثر رجعي، "داليا"، لا شيء هنا يستحق، لا يجوز دفع ثمن كل الخطايا في كل لحظة، العودة من "الإمارات" كانت الخطأ الأكبر.

نظر إلى هاتفه الجوال، قوة خارقة تجذبه إلى مشاهدة صورة أبيه وصورة "مريم"، خيوط خفية تشدّه إليها، عندما يراها يزول كربّه، وينفرج همّه، يرى فيها نفسه، طفولته، أحضان أبيه وأمه، براءة، نقاء، ليس حنين الدم فقط ما يشده إليها، بل ملامحه المرسومة فوق ملامحها، ترى كيف حالها الآن؟ يفتقدها بشكل غريب، يسمع صوتها في سكونه، يمرق خيالها من الجدار، يحب أن يراها، ولكن الوقت والأحداث تدهسه بين حجري الرحي. صداد خفي لم تُداوهِه رشفات القهوة، توجه إلى غرفة والدته ووجد ما أراد:

سيجارة... من نوع "لاكي سترايك" التي تفضله الدكتورة "علية" والتي تفخر بأنه أقل الأنواع ضرراً وأن نسبة النيكوتين فيه أقل ما يمكن، كانت سيجارة وحيدة، أشعلها في تردد، كانت آخر سيجارة تناولها من سنوات، لم يعتد طعمها الغريب، ولكنها أوفت بالغرض قليلاً، عاد إلى شرفته تأمل وجه القمر غير المكتمل وتلك الملامح الشاحبة فوق صورته، لاحظ أن فيلا "الحسيني" مضاءة لأول مرة منذ أن عاد، ربما وجدها "فاروق الحسيني" ملاذاً آمناً من أعين الجميع وهجر فيلا شارع "الإخشيدي" مؤقتاً، كان يرى فيها حركة دائبة على غير العادة وخاصة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، انتهت السيجارة بعد

أن أثارت في نفسه الحنين إلى التدخين، بحث عن غيرها ولم يجد، بدّل ملابسه وقد داعبته لذة الخدر أو سلك دربًا ييثق فيه احتراقه، عبر الشارع إلى أقرب متجر، وابتاع علبة سجائر مستوردة، كان يتلفّت حوله كمراهق يخشي افتضاح أمره، عاد أدراجه حرص أن يمر أمام بوابة الفيلا المواربة.

رأى نفسه عندما عبرها من سنوات والخوف مسيطر عليه بينما هي كانت تضحك، ليلة لن ينساها، كانت الحب والشوق والشقاء والاشتيا والتمتع والمعاناة، تجاوز البوابة خطوتين، وأصبح على أول الطريق المؤدي لها، مدّ عنقه في فضول كي يلمح أحدًا، فقط أصوات جلبة غير مفهومة تأتي من داخلها، التقطت أذناه نغير سيارة يأتي من خلفه مباشرة، اعتذر فقد كان يسدّ المدخل، تراجع خطوتين عائداً ولكنه توقف فجأة عندما خاطبه صوت أنثوي يأتي من النافذة الخلفية للسيارة:

- كريم!

يعرف الصوت جيداً فقد خَفَقَ قلبه كمحرك أصابه العطب.

* * *

الفصل العاشر

"يبدو أنها ليلة لن تنتهي"

هكذا شعر أهالي شارع "ترسا" تلك الليلة، التي لا قمر فيها ولا نجوم، بعد أن انطلقت صفارات الإنذار وأصبحت المنطقة من "الطالبية" وحتى "المريوطية" داخل سياج عازل من سيارات الشرطة التي انطلقت جيئة وذهابا تعوي كقطيع مفترس يحاصر ضحيته التي استسلمت بهدوء على عكس ما توقَّع، وترددت الأصوات المتداخلة عبر أجهزة اللاسلكي لتتمم الإجراءات ووقفت القوات المحاصرة أسوار الفيلا على قدر هائل من الترقب والاستعداد، وقد تسارعت الخطوات في محيطها، وقف "دويدار" مشدوه العينين، خائفاً يترقب، وقد أحاط أحدهم بذراعه، وبدأ ينتحب في صمت، بينما خرج "سيد برج" بقامته السامقة منتصب الهامة ولا يبدو على ملامحه إظهار، ولا على سواكنه اضطراب، لا يذوب جامد قسماته، ولا ثابت خطوته، قد انعقدت يدها بسوار من حديد وأحاطت به ثلثة من الرجال مقنعي رؤوسهم، وسدد أحدهم سلاحه إلى صدره، تقدَّم "برج" نحو البوابة كعبدٍ أفريقي على شفا ساحة "الكولسيوم" وقد احتشد الجمع، عيون

ترصد من خلف الجدران، وعبر النوافذ، وصفوف جذبها الفضول إلى ما هو أقرب، فكانوا قاب قوسين أو أدنى، حاولت القوات تفريق بعض المحتشدين وردع الفضوليين منهم.

بينما جلس هو في سيارته غير بعيد، يراقب ما يحدث في صمت وعلى وجهه ارتسمت علامات الرضا والتشفي، وانطلق نفير السيارات بمحاذاته منطلقة نحو ترعة "المريوطية"، وفي حوزتها صيد ثمين.



تتم الحاج "مسعد الصاوي" بأذكار ما بعد الصلاة بعدها سحب سجادة الصلاة من تحته، وطواها مرتين، ووضعها على أقرب مقعد، ثم استوى على مقعده على مائدة الاجتماعات في مكتب "علي راشد" المحامي الذي أشعل سيجاره الكوبي الفاخر صانعاً من دخانه دوامات متصاعدة وهو مستغرق في التفكير، احترم الجميع صمته، بينما تلمل "فايز النخيلي" في ضيق، في حين أسند "ثروت الجميعي" ذقنه براحتيه منتظراً وقد أترع قلبه بالغضب.

يعرف "علي راشد" "سيد برج" من انتخابات ٢٠٠٥، لم يُجيب أملاً، ولم يُفشل مهمةً، وما ثناه عن عمله ميل، وما دخل في نفسه هوى، يعلم أنه لن ينطق بأذى، ولن يأتي بوشاية، لا يغدر ولا يخون وما هو بساذج مستكين، ولا خانع مُدعن، يعادي بشرف، ولا ينكث العهد مع من واثق، ولكن يده ليست مغلوطة حتى لو قُيد بألف سوار، ولا يدع من ائتمر عليه حتى لو بقي خلف ألف جدار.

نفث "علي راشد" بخر سيجارته وهو يقول في نفسه: لماذا تم القبض على "برج" بهذه الطريقة؟ ومن المستفيد من ذلك؟ وكيف لم يخاطره رجاله بهذه الخطوة؟ حلقة ما مفقودة في هذه المتلازمة، وحتى لو دهمت القلعة في أي وقت كانت ستكون الغنيمة أكبر من حيث الأشخاص وثقل القضية فطالما امتلأت القلعة بأسلحة مهربة وغير مرخصة وبضائع غير مصرح بوجودها حتى الأشخاص فهي تضم ثلثة من الشخصيات العامة وتنعقد اجتماعاتهم هناك، إذن المقصود ليس الأشخاص وليست ما تحوي الفيلا وإنما شخص واحد صاحب الفيلا الرسمي السوري "سيد فاروق عبد الله" "برج" حتى لو كانت التهمة سلاحًا بدون ترخيص وحياسة مخدرات (حشيش) بغرض التعاطي، ولكن من له مصلحة في إيذائه وفي هذا التوقيت.

إشارات "فايز النخيلي" ونظرية الاستبعاد التي يتبناها تحصر الاتهام في شخص واحد "حسين عبد العاطي" ربما علم بطريقة ما اتصال الأخير بالجهات الأمنية على الرغم من حرص الجميع الحفاظ على هذه المعلومة وتعهدهم "ثروت" و "مسعد" بعدم إفشائها تحت أي ظرف، مظاهر القلق التي تبدو على قسماة الجميع لا تعني بالضرورة خوفهم على "برج"، ربما تكون الخوف منه أو على الأقل الخوف مما هو قادم، وكلما أضاء الخوف طريق الظن مشوا فيه، وضلوا عن طريق الرشاد.

حكَّ "علي راشد" ذقنه بأنامله وحسم اللقاء بانه سوف يدافع عن "برج" تقديرًا منه لم قدّم، وتأهبًا لما هو قادم، وليس من المروءة التخلي

عنه في تلك الفترة العصبية، وأنه سوف يرسل أحد محامي مكتبه إلى النيابة وذلك للقاء "برج" ومتابعة التحقيقات ومن ثم اطلاعهم على مجراها خطوة بخطوة، أطفأ سيجارته غير المكتملة دلالة على نهاية اللقاء وحسم الأمر، صافحوه مودعين وغادروا الواحد تلو الآخر.

وقف السكرتير الخاص به أمامه صامتاً مرتبكاً وقد احمرَّ وجهه وتلجلج في كلماته، فهم "علي راشد" أن أحدهم يريد الدخول بلا موعد مسبق، همَّ أن يخبره بتحديد موعد مسبق أو الذهاب إلى أحد المحامين في المكتب لطرح قضيته، ولكن الضيف ظهر من خلف السكرتير بوجهه المتغضن ونظارته السوداء وشاربه الكث وهدر صوته المميز، استقبله علي راشد بحفاوة رفعت الحرج عن سكرتيه وبينت أن القادم للتو عظيم التمكّن والاعتدار، لم يدرِ وقتها أنه أيضًا رفع نصل المقصلة من فوق رقبة أستاذه وطفق يخصف عليه من ورق التوت، فما بان له كشف ولا هتك له سترًا.

* * *

إنها الضلع الناقص ليكتمل مثلث الاتهام، الذي هو مثلث البراءة في آن.

إنها الفرصة الاستثناء التي أتت في التوقيت الاستثناء لتسد الثغرة الأخيرة وتخرس الألسنة وتلقف الأوهام والتخاريف ونظرية المؤامرة.

نعم ربما يكون القبض على "برج" أمرًا جللًا، عارم الأثر في عالم المصلحة وخاصة أن الانتخابات الرئاسية على الأبواب وأن الحاجة إليه

ربما تتضاعف أكثر من أي توقيت آخر، ولكن قُضي الأمر وحدث ما حدث، ومن الحكمة أن نغتني الفرصة التي هبطت من السماء لترسيخ مبدأ حيادية الأمن في المنظومة السياسية الجديدة بعد أن اتهمه فريق الثوار بجناحيه الإسلامي والليبرالي بأنه يحابي الفريق الآخر الذي يضم رجال النظام القديم أو ما أطلقوا عليهم الفلول، بعد حوادث نواب المجلس من الضلع الأول ثم حكاية ابنة "فاروق الحسيني" أيقونة الضلع الثاني، واتحدا رغماً عنهما في اتهام مباشر للأمن بمحابة الضلع الثالث.

ولكن بالقبض على "سيد برج" المعروف انتماؤه إلى الضلع الثالث يكتمل مثلث الاتهام من فلول وإسلاميين وليبراليين وهكذا تنعقد أدلة البراءة للأجهزة الأمنية ويبرهن على وقوفها على المسافة نفسها مع كل الأطراف.

ويبقى دور الإعلام في التفتيش في سيرة برج الذاتية وتضخيم مواقفه وتهويلها ودور الأمن في ترصده واتباعه والإيقاع به، وبذلك تتجه الأنظار بعيداً عن أحداث "العباسية" التي اندلعت وشهدت مشاحنات وصراعات بين كل طوائف المجتمع، سقط فيها من سقط، والناس في وطننا يعادون الملل، أحداث العباسية لا تختلف عما سبقها، إنهم يحبون الإثارة وخاصة الشخصيات المثيرة للجدل مثل "برج"، تتنامى رغبتهم في نسج ألف حكاية عنها، عنوانها مذبذب ما بين البلطجة والبطولة، وما بين مناصر ومعارض، يمر من الأحداث ما يمر وما مر).

تدافعت أفكار "حسين عبد العاطي" في رأس "مصطفى النوري" قبيل دخوله على "علي راشد" وقد اتخذ قراره بعدما استمع جيداً لكلماته التي وجدها بدوره خير استفادة من الحدث وتصحيح للتسرع والاندفاع الذي انتهجته بعض القيادات ونفذت عملية القبض على "برج" دون استشارة الأمن الوطني، بناء على بلاغ مُقدَّم، حتى لم تبقَ فرصة للتراجع، فلقد سبق السيف العذل، وأصبح "برج" في السجن واقع يجدر الانتفاع به، ولم يأت اليوم إلى "علي راشد" المحامي مخافة أن يبدأ الدفاع عنه، فتزداد الأمور تشابكاً وتعقيداً، فقط عليه أن يؤجل إلى أجل مسمى، ريثما تنتهي الانتخابات وتستقر الأمور، وتشي الأيام بما تريده، لم تكن هذه هي مقابلته الأولى مع "علي راشد" فقد تقابلا من قبل، عند أزمة "علي راشد" مع نزوته الأهم مع الممثلة المغمورة والتي أرادت أن تبتزّه، خلّصه منها بلا زوبعة أو تشهير، لولاه ما نجا من التجريح والطعن وجلسات النميمة والصحافة الصفراء، فلن يستطيع أن يرد له طلباً، مهما يكن.

يعلم "علي راشد" بولايته على "حسين عبد العاطي" فهو من قدّمه لهم بصفته نائب المجلس المنتظر وهو في الحقيقة مندوب دائم جديد وسفير غير رسمي لـ "مصطفى النوري" يطوعه للمصلحة العامة ومصلحته الشخصية، ويبقى هو خلف الستار لا كاشف له ولا متتبع سواء من جهازه الأمني أو خارجه، لعبة شديدة التعقيد، يُديرها "مصطفى النوري" في أحكام، ويدركها من هو في خبرة "علي راشد"،

ولكن لا مجال للاعتراض أو كشف المستور طالما أبحرت المركب بكل المصالح وأتت أكلها للجميع، حينها وجب الكتمان وغض الطرف، وتصديق الأباطيل، وإقرار الزيف، واتباع المسيح الدجال ليس عن جهل وإنما عن مصلحة.

حتى لو دارت الهواجس حول "حسين عبد العاطي" فهذا غير صحيح، قالها "مصطفى النوري" ولم يسيطر على نبرة الشك في كلماته، حسبتها مرت مرور الكرام ولكنه "علي راشد"، فقد وعثها أذن واعية والتقطتها عينا صقر ولم تُترك سدّي، غادر المكتب بعد دقائق قليلة، لم ينتظر الرد فلم يكن يطرح أطروحة قابلة للنقاش والجدل، بل إن كلامه دائماً ما ينتهي بنقطة (إند أوف تكست) كما يقولون في الإنجليزية، بينما ترك ألف علامة تعجب على وجه "علي راشد" الذي تساءل عمّن له المصلحة في الإبلاغ عن برج. مَنْ!



امتزج قلق "فاطمة" مع غضبها بعدما تخطت الساعة الثانية عشرة، ولم تأتِ "داليا" بعد، أغلقت هاتفها في ضيق كلما ردت عليها الرسالة المسجلة بأن تحاول مرة أخرى، تقسم لها أنها المرة المائة، وهاتف أختها ميت بالفعل، تجاهلت اتصالات زوجها المتكررة الذي شكّل بدوره حملاً ثقيلاً، لا تودُّ أن تخبره أن أختها ما زالت بالخارج حتى توفر على نفسها فيض الحكم والنصائح المعتادة منه، تعليقاً على أسلوب حياة "داليا" وأفكارها السياسية، رغم أنها نصحته أكثر من مرة بعدم

الخوض في أحاديث السياسة معها حتى لا يخسرهما، عليه أن يكون بمنزلة الأخ الذي غاب ولن يُعوّض.

أُلفت "فاطمة" على أبيها نظرة مؤمنة، رأتها نائماً في سبات عميق، بعد جلسة العلاج الطبيعي التي صحبته فيها، والتي تدك عظامه فيجرح إلى النوم بعدها مباشرة، مع تشغيل سورة "يوسف" بصوت "الشيخ المشاوي" التي اعتاد سماعها يومياً، قبل نومه، في مرة تسلفت إلى غرفته كان يردد آية واحدة قبل نومه يرددتها حتى في عز نومه:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لم يكتشف غياب "داليا" كذبت عليه "فاطمة"، وهما في مركز العلاج الطبيعي، بأنها ذهبت لمراجعة بعض النقاط مع المشرف على الرسالة تحسباً لمناقشة رسالة الماجستير التي باتت على مرمى حجر، تعرف أنها تكذب ويعرف أنها تكذب، ولكنه لم يعترض، لا يملك القدرة على مجابهة "داليا" وعنادها، فمه المعوج يتر نصف كلماته، وأنفاسه المتهدجة لا تثير سوى نظرات الشفقة في عيني ابنتيه.

سمعت صرير الباب الذي بدا خافتاً، وألفت "داليا" لديه واقفة تترقب، كادت "فاطمة" أن تنفجر في وجهها لولا خطوات الأخيرة العرجة وقد ألفت بنفسها فوق أقرب مقعد، وعلى وجهها علامات الألم وفي عينيها اعتذار صامت، انحنت نحوها "فاطمة" بغريزة الأمومة التي لم تكتشفها "داليا" إلا معها، فهي الأم الصغيرة التي تولتها بعد

وفاة الأم الأصلية، كشفت عن ساقها، أنت داليا بصوت مسموع، شهقت "فاطمة" عندما اكتشفت الجرح الغائر والنزف الحار، أسرعت "فاطمة" لتحضر زجاجة محلول الملح لتغسل الجرح، ثم نظّفته ورشّت فوقه رذاذاً من زجاجة المضاد الحيوي، وبعد أن أطمأنت عليها وهدأت قسماتها، فتحت "داليا" عينيها الغمضة لتواجه أختها وأثرت على عكس طبيعتها على الإجابة قبل السؤال وأخبرتها في كلمة واحدة:

- العباسية.

نعم لقد شاركت "داليا" في مواجهات "العباسية" المروعة التي تابعتها "فاطمة" على شاشة التلفاز، لا فائدة تُرجى من تلك الفتاة، التي تضرب بالمحاذير عرض الحائط، لم يُثنِها مرض أبيها عن عزم، وظنّت أن لن يقدر عليها أحد، صرخت فيها "فاطمة" على غير عادة، بعد أن طفح الكيل تتهمها باللامبالاة، والذاتية، وأنها تستكثر على أبيها الراحة في آخر أيامه يكفيه الابن الذي راح وباتت سيرته هي وخز الألم للرجل المريض، يلاحقهم الأمن بسببه، صاروا بلا سند بسببه، حتى هي مهما تبلغ من علم وشهادات ومكانة ستبقى هي أخت الإرهابي.

صرخت بدورها "داليا": أنها تكرر ما يدعون، محض افتراء، لوث السمعة من شيم أهل الشقاق، هي أقدر طريقة لتمرير الفساد والقهر والاضطهاد والقمع، وكل تمرّد تأتبه ليس من أجلها بل من أجل "سعد" البريء المطارد.

سكتت "فاطمة" وهي تعرف مدى تهور أختها مهما جادلتها لن
تجد وسيلة، أطرقت هنيه ثم ألقتها في وجهها في هدوء:
- لو كان فعلاً بريئاً!

زاغت عينا "داليا" عن غير تصديق، انكمشت في مكانها
وتضاءلت في بؤرة صغيرة، وتحوّلت إلى أثر بعد عين، وكادت أن تسقط
في غيبوبة لولا صوت ارتطام أتى من غرفة أبيها، انطلقا حتى وجدا
"عم جبرة" ملقى على الأرض، لقد أيقظه صراخهما، ولم يسمعا نداءه،
جاهد أن يفك نفسه من قيود فراش المرض، ولكنه سقط، اندفعا
يسنداناه وما زال صوت الشيخ المنشاوي هناك:

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (١٧)

* * *

غادرت "فاطمة" بعد أن استقر الحال.

عاد أبوها إلى نومه هادئاً، وعادت "داليا" إلى فراشها تعاني مُرَّ
الصدمة، اعتذرت "فاطمة" كثيراً من إخفاء السر واعتذرت أكثر من
إفشائه، لقد حاولا -هي وأبوها- إثناءها عن هذا الطريق، لو أن هناك
متهمًا لكان هو "سعد" الذي تركهم وأبوهما شيخ كبير، كان ضعيفاً
ومغيباً لم يتماسك عندما انهار مشروعه في السوق القديمة التقطته بعض
السيارة في طريق معوج، زاغ عن طريق الحق، رسموا طريقهم جنة
كمسيح دجال، ظاهره الرحمة وباطنه عذاب، عذاب لأخوته وأبيه وكل

من يؤدي، ارتضى أن يبقى مُطارداً، منبوذاً، تائهاً، لا يدنو من أبيه إلا ويصيبه، لقد زاره في المركز بضع مرات، كان يتباهى بما يفعل من دمار وخراب، ويزعم أنها قرية فسقَ مترفوها فحقَّ عليها القول، لم يزد به بكاء أبيه إلا عناداً وإصراراً، تجاهل ضعفه وهوانه وشيبته، نكر لوم الأب فيما يُدعى أنه الحق.

رشت "داليا" رشفة صغيرة من كوب اللبن الدافئ التي صنعتها فاطمة" قبل أن تقبلها وتوصيها أن تهتم فقط بحالها ورسالتها وعملها كي ينعم أبوها ولو لحظات ويبقى في قلبه جرح واحد لا جرحان، فقلبه لن يحتمل أن يصيبها سوء أو تُلقى في السجن ولو ليلة واحدة، سيقضي عليه حتماً.

تناولت "داليا" هاتفها المغلق ووضعت على الشاحن الكهربائي وفتحت لضبط المنبه، خشيت أن تستسلم لنوم عميق ويغلبها النعاس، وخاصة مع الأم عظمها المهشم وذهنها المكدود أكثر توجعاً وانهاياراً، لقد شارفت الثانية لم يتبق سوى أربع ساعات، لا مجال لها من إجازة غداً، فما تبقى من رصيدها لا يسمح بهذه الرفاهية، انفتح الهاتف المغلق، أزيز خافت يشي برسائل معلقة، تعرف أنها من "فاطمة"، ثاءبت وهي تقاوم أفكاراً تُعربد في رأسها كجنينة متشردة، فحصت الرسائل مرة أخيرة وتوقفت عينيها عند رسالته: "كريم".

قرأتها في اهتمام، وأفرجت الجنية عن دموع ساخنة سالت على وسادتها تأتي أن تتركها أمام أحد، ظنت أن الساعات المتبقية صعبة المنال وصارت تردد أكثر من مرة:

"يتمنى لو أخفاه عن نفسه".

* * *

"نعم لقد أخطأت مرتين: المرة الأولى عندما طاوعت نفسي ورغبتني وحببي كما ظننت وقتها، والمرة الثانية عندما أخفيت سرًا حسبت أن الأيام قد طمسته فآثرت ألا أجاهر به، وتمنيت أن يبقي نسيًا منسيًا، والآن وقد افْتُضح الأمر لن ألومك على شيء، وإن تمنيت أن نكمل ما بدأنا ونبدأ تأريخنا الخاص لأن الحقيقة الصريحة في هذه الحياة هو أن لكل منا جانبًا مظلمًا ينجل منه، يتمنى لو أخفاه عن نفسه".

"كريم صدقي"

أنهى "كريم" رسالته النصية لـ "داليا"، وهو يشعل سيجارته الأخيرة، مدّ عينيه من شرفته إلى فيلا "الحسيني" التي صارت معتمة تمامًا بعد أن غادروها صباح اليوم إلى "أمريكا"، تذكر لقاءه بـ "سارة"، عندما قابلته عند بوابة الفيلا.

توقّع أن تلقاه مغاضبة، تصبُّ عليه ضجرها، بعد أن أفشى سرّهما، ونال أبوها من الفضيحة ما نال، وتلقف القوم الخبر ليجهزوا عليه، لن تصدق بالطبع الحكاية مكتملة التعقيد، لن تفهم كيف انتقلت القصة من الكتمان إلى الجهر على حين غفلة منه، وأنه كان واهن العزم وضعيف القدرة، وأنه المتضرر الأول من تناقلها من فمٍ إلى أذن.

ولكن ما زاده دهشة أنها لم تؤت شيئاً مما ظن، بل على العكس استقبلته بحميمية زائدة، قالت إنها تفتقده للغاية، وأنها تتذكر أيامهم الجميلة بكل نزقها وتهورها، لقد أخبرت "مو" بيوم الاستاد، وأنها كادت تتعرض للتحرش بعد مشاهدة مباراة كرة قدم، لولاه ولولا صديقه الآخر لا تذكر اسمه، لم يخبرها أن صديقه قد مات بعد مشاهدة مباراة كرة قدم أيضاً.

أما فيما يخص أباه "فاروق الحسيني"، تظن أنه انزعج للغاية لأنه خسر رهانه مع "مو"، و"مو" بالمناسبة هو اسم زوجها، اسمه "مهتدي"، أمريكي من أصل مصري وأمه فرنسية، مزيج رائع من الشرق والغرب والشمال كما تقول، وهو يعمل في شركة "تارجت" هناك في "مينيسوتا"، يظن "مو" أن "فاروق" يحرث في الماء لا جدوى منه، ألقى بنفسه في مستنقع ضحل، وأنه ذهب كـ "دون كيخوته" ليحارب طواحين الهواء، ساقته متاهة الوهم إلى صحراء العالم الثالث أو العالم الأخير بلغة أمّه الفرنسية le dernier monde، لم يقتنع أن الشعوب الأمية لا فرق عندها بين الديمقراطية والديكتاتورية، الديمقراطية هشة مثل الديكتاتورية تماماً، Démocratie fragile comme la dictature وفي كثير من الأحيان تُفضّل الديكتاتورية لأنها مبنية على فكرة الحاكم الإله الموروثة من ثقافتهم القديمة.

الأحرى به أن يستسلم ويعود أدراجه ليلقي خيالاته على شاطئ "المسيبي" هناك في "مينا بوليس"، ويلعب كأى شيخ بائس مع

حفيده المنتظر، فهي تحمل بين أحشائها ابنًا لـ "مو" ولم يفتها أن تتمنى له وقتًا سعيدًا وطبعت قبلة سريعة على وجنته ثم وقفت كأنها تذكرت شيئًا.

لا تعرف إن كان يجب أن يعرفه أم لا: حكاية الايدز، إنها حكاية ملفقة من الأساس لم يكن لها صديق مُصاب ولا تناقلت بينهما العدوى حتى وصلت إليه، إنما أرادت فقط أن تنقذه من الحياة هنا، وأرادت وقتها أن يصحبها إلى "أمريكا" فهو يعجبها بالأساس، عفواً كذبة صغيرة حققت لها بعد سنوات مكسباً عظيماً ورهاناً جيداً.

صعقته الصدمة، كذبة صغيرة!

حسرت اللثام عن قلب بائس، عاش كذبة غيرت حياته، ضيعت حياته، ائتمر بأبيه ليقطعه، وخطط أن يجهز عليه، وهنا الخسران المبين.

كذبة، كل هذا العمر ومنحني حياته العظيم، كان وهماً أعظم عاد وقتها يجرُّ أذياله كبقايا جيش منهزم، مندحرٍ حتى الثمالة، والنزف يقطر من مسامه وغصة خانقة يبتلع مرارتها في حلق، رثى لحاله والعمر الذي مرَّ، أرسل رسالته إلى "داليا" ثم ندم بعدها، لا يحب أن يبدو بهذا الضعف، جلس يتأمل شاشة هاتفه بعدما انطلقت الرسالة ثم مرَّت إلى الصور التي احتلها صورة أبيه مع "مريم" وزادت الغصة الخانقة وتمددت حتى اخترقت خلاياه... كلها.

* * *

تعرشوا حول التلفاز، ترقبوا ضربة البداية، احتشدوا في "الكولسيوم" انتظارًا للمعركة الأولى وربما الأخيرة بين فريقين، وعلا الهتاف لما بدأت المناظرة، ويحاول كلا المتصارعين أن يجهز على الآخر، وما بين مؤيد ومعارض كانت "فرساي"، لم تكن المباراة في كرة القدم وإنما مباراة من نوع آخر:

مباراة في السياسة.

مباراة بين أكثر المرشحين حظوظًا، التمس كل فريق أن يجهز رهانه على الآخر ويدوس بسنابك كلماته تاريخ الآخر، وعندما يمدح المناصرون ازداد المعارضون تسفيهاً لكلامه، وكلُّ بما لديه فرح، كلما يتكلم ازدادوا تبجلاً وتعظيماً وتوقيراً لسمته ومنهجه، وأنه المستحقُّ أن يعتلي العرش، ولم يتفق الجانبان إلا أن كثرة الإعلانات أزهدت متعة المنافسة، متغافلين أنها من صنعتها وآتت أكلها.

انزوى "أحمد حداد" في ركن بعيد، تركمه الحسرة على خوخة الذئب التي بين أيديهم، وآثروا أن يتبعوا أهواءهم بعد أن اتخذوها زينة بألوان العلم، وصور الشهداء، جدر الجرافيت، وجملة في دستور، يوم إجازة، وعلت الأصوات والهتافات، فقد أحرز أحدهما هدفًا في مرمى الآخر بعد أن فتش عن سيرته، وأظهر ما أخفى وبرر المهزوم هزيمته لرأب صدعه، وأعدَّ العدة أن يهدم ما صنَّع الآخر.

ألقي "حداد" ما تبقي من كوب الشاي المغلي في جوفه، رحمك الله يا "كالوشا"، لقد سلك مسلكه ووطئ موضع قدمه، لو كان موجودًا

٣٠٧

الآن لغير الحال وبدل ما اجتمعوا عليه حتى لو مباراة كرة في الدوري البوروندي، اقترب منه "طارق فرساي" وهمس في أذنه أنه يحمل أمانة من المعلم "برج"، انتفض "حداد" فجأة عندما ذكر الاسم، لقد حاول أن يزور "برج" في محبسه ولم يستطع، حاول أن يتواصل معه دون جدوى، ولكن "برج" هو الذي يتواصل معه، يبهره "برج" حتى في سجنه، لا تزعجه الجدران ولا تثنيه عن شيء، مدَّ "طارق فرساي" يده بظرفٍ مُغلقٍ صغير، وهو يتلفت حوله، وضعه "حداد" في جيبه وانتظر قليلاً بعدما رجع "طارق فرساي" بكوب الشاي الفارغ، واستعد "حداد" للرحيل لولا أن وجد أمامه آخر من يتوقعه وأكثر من تمنى:

"كريم صدقي"

ألقى "كريم" نفسه بين ذراعي صديقه المفتوحين، جلسا قليلاً، ولكن الصخب كان هائل الإزعاج، تهيأ للخروج، ترجلاً متغافلين عن سيارتهما، اتحذا إلى شارع "الأهرام" مسلّكاً، حكى له "كريم" ما حدث بينه وبين "سارة الحسيني" والوهم الكبير الذي قاساه، وعُقدة الذنب التي زادت في حق أبيه، عقَدَ "حداد" حاجبيه، وأطرق لحظات، وأوصى "كريم" أن يتم نور معرفته بابيه، الرجل الذي ظلمه، وكاد أن يجهز عليه يوماً ما، يزر "كريم" كتفيه كلما تذكّر تلك الفكرة التي أخرجها شيطانه، يسومه سوء العذاب، يرجف كذوب لحم مرتعدٍ، ويشحب كوجه شيخٍ مُحْتَضِرٍ، لقد اتصل فعلياً بـ "د. ياسر بدير"، الوحيد الذي يعلم الشيفرة المجهولة لـ "عبد الحميد صدقي" ولكنه لم

يفلح بالاتصال به ربما يكون خارج مصر، لقد بعث له رسالة أنه يتحرق شوقاً للقاءه لأمر خطير، لم يتلقَ ردًا حتى الآن، ولكنه ينتظر، أثنى "حداد" على فعل صديقه، يسمع، يسأل، ويعقل، ويحلل ثم يحكم بعدها .

أوماً "كريم" برأسه مُوافقاً ثم أردف بعدها أن هذا كان رأي داليا يوماً ما، رجاحة عقل التلميذ من تعليم الأستاذ، لقد أثمر ما غرس، ضحك "حداد" بأنه أي "كريم" أصبح صاحب الجنة، أغمض "كريم" عينيه فلقد ذكرها جرحاً آخر، قطبة مفتوحة، حار النزف.

وعده "حداد" أن يتولى الأمر وأن مناقشة الرسالة بعد أيام، وعليه أن يكون هناك -مهما يحدث- لأن أي امرأة في الدنيا مهما تبلغ من قوة في الشخصية، أو رجاحة في العقل تنشد بقاء الرجل الذي تحب بجوارها في المواقف واللحظات الصعبة، الدنو والتقارب يداوي السقم، ويرأب الصدع، ويُجبر الخاطر، وربما يلقي هناك "د. ياسر" ويصطاد عصفورين بحجر، لم يحسم "كريم" الأمر، أخذته العزة ولم يُرَقِّ له الأمر، وقبل أن تعصف به الظنون، توقف عن المشي عندما اكتشف "حداد" المتراجع خطوات ويقف تحت بقعة ضوء صادرة عن عمود إنارة، ارتدَّ على أثره، فوجد "حداد" شاردًا وفي يده ورقة صغيرة، ناوله إياها، قرأها "كريم"، كانت سطرًا واحدًا مُكوَّنًا من أربع كلمات، لم يفهم ما تعنيه، ولكن "حداد" بعينه اللامعتين كمن حلَّ لغزًا غامضًا، وفُضَّ طلسمًا مجهولًا، تمت وكأنه يتلو ترانيم من كتاب الموتى، وأخذ بيد "كريم"

وانطلقا إلى موضع السيارة، استوى "كريم" إلى جواره ولم تغب عنه علامات الدهشة، فقد بدا "حداد" كالمُنوم مغناطيسيًّا؛ فلقد كان يحمل بين يديه كل الأسرار.

* * *

"كل جريمة ولها عقاب".

ردّد "فايز النخيلي" الجملة السحرية بعد أن أغلق الهاتف مع "طارق فرساي" الذي فضّ الظرفَ وقرأ رسالة "برج" ودوّن الجملة المبهمة في ورقة أخرى حتى لا ينسى محتواها، ثم أبدله بآخر، ومرّره بدوره إلى "حداد"، حسبها شيفرة غامضة، أخبر "فايز" وهو عينه الحارسة في "فرساي"، على مجموعة الأصدقاء، وخاصة "برج".

"كل جريمة ولها عقاب".

تتم فايز بالجملة مرات وهو لا يعي معناها، جملة عادية من المُسلّمات، هل هو اعتراف من برج أنه ارتضى بالمصير؟

فلماذا يتحمل "برج" مشقة إيصالها إلى "حداد" بكل هذا القدر من التعقيد؟ لقد استلمها "طارق" من شخص لا يعرفه ولم يرّه من قبل؟ لماذا لم يتوجّه إلى "حداد" مباشرة؟ يبدو أن "برج" أثّر الحلقات المنفصلة حتى تتشابك الخيوط، ويصعب تتبعها، ولكن كل هذا من أجل هذه الجملة؟ لا بد أنها تعني شيئًا ما، و"حداد" وحده القادر على فكّ رموزها، ليس من السهل ترقّب "برج"، لام فايز نفسه لأنه ظنّ أن

"برج" من السداجة أن يرسل رسالة نصية ظاهرة المفاهيم معلومة المعاني، ولكن لماذا "حداد" بالذات يعلم أنه ثمة تقارب بينهما بعد موت "كالوشا" وتقابلا في "فرساي" مرات وأصلح له سيارته بل غيرَ ترخيصها وأرقامها، ترى ما الذي يعرفه "حداد" عن "برج"؟ أو ما سيعرفه؟

- أستاذ "فايز"!

لقد نسيَ تمامًا الفتى الذي يجلس أمام مكتبه، تمكّنت منه رسالة "برج"، ألقت به خارج المجرة، استبدّت به لحظات، ولكن صوت "موكشة" استعاده من عالم "برج" السفلي، رَجَعَ عنه مؤقتًا، رسم على وجهه نظرة حزن مصطنعة، وقام من خلف مكتبه ودار حول "موكشة" المتوتر منذ أن هاتفه صباحًا واستدعاه إلى مكتبه لأول مرة، ربت "فايز" على كتفه، وجلس في المقعد المقابل وشبّك أصابعه أمام وجهه، وعيناه تتفرسان نظرات الفتى المربكة وحركاته، يعلم "فايز" أنه متورط لا ريب في تبديل الأسطوانات المدججة من مكتبه بأخرى تالفة، أي سرقتهَا بمعنى آخر، عيناه الزائغتان نحو مكان الخزانة المختفي خلف البرواز المُعلّق يشي بفعلته، وقد برر نظرة إلى البرواز بأن صورة الشلال جميلة، تجاهله "فايز" ولم يطاوع نفسه بقتل الفتى ودَفْنِ بقاياها في المكان نفسه، مدَّ "فايز" يده إلى "موكشة" بعصير الليمون المضاف إليه بعض وريقات النعناع وقطعة مكعبة من الثلج، شكره "موكشة" وارتشف الكوب دفعة واحدة، انتظره "فايز" أن ينهي صوت تجرعه والتقام

قطعة الثلج دون أن يبلعها، حتى بدا وجهه وكأنه يعاني ورماً، بدأ "فايز" حكايته عن "برج" منذ أن كانا في مدرسة "السعيدية"، وأنها لم يفترقا إلى اليوم بالرغم من تفاوتِ المستوى الاجتماعي والثقافي بينهما، فقد بقيَ "برج" كفَّ ذراعه، وأنه مهما حاول الآخرون التفريق بينهما، لن ينجحوا إذن أبداً، فكلمة الصداقة والأخوة هي العليا، ولغة المصالح هي السفلى، بُهت "موكشة" من كلمات "فايز" الذي زادت حماسته، وأنه لن يترك صديقه يعاني مرارة السجن، ولن يدعه فريسة تصفية حسابات مهما يكن، وأنه لن يسكت أو يُهادِن في حق رفيق عمره، وأنه بالرغم من مكانته في عالم المحاماة أثر أن يتولى القضية مَنْ هو أفضل منه مكانةً وأفضل قيلاً، مهما يكلفه الأمر من جهدٍ أو مال، لأن "برج" هو نعم الأخ والرفيق.

اشرب رأس "موكشة" بعد مقدمه "فايز" النارية، وتحير: لماذا أمره معلمه بتغيير الأسطوانات من مكتبه؟ ربما لم يدرك وقتها قيمة هذا الرجل الذي ظهر وقت الشدة، هكذا الرجال، قاطع "فايز" تسلسل أفكاره وتابع أن خروج "برج" ما هو إلا مسألة وقت لأن القضية بسيطة، لكن يبقى السؤال: هل هي البداية أم النهاية؟

ومن الشخص الذي أبلغ عن القلعة المنيعة الأسوار و"برج" حاميتها؟ مَنْ الشخص الذي دخل في دائرة الثقة وبدد شملهم وأعيان الناس خُبناً ولؤماً؟

التمعت عين الفتى وتمتم بأنه هو شخص واحد:

- حسين عبد العاطي!

لم ينطق "موكشة" بل جاءت الحروف بلسان "فايز"، اتسعت عيننا "موكشة" في انبهار وتصديق، أدرك "فايز" أنه أصاب الهدف، وأكمل أن "حسين عبد العاطي" ما هو إلا عميل أمني، نكث العهد وخلف الوعد واثتمر على "برج" لأنه كشفه وفُضَّ سِتره.

قفز "موكشة" من مقعده كمن لسعه عقرب، وهتف أنه هو من أخبر "برج" بأمره، هَزَّ "فايز" رأسه موافقاً ومؤيداً - ولم يبد أنه دُهِش من تلك المعلومة - وأكمل "فايز" أن "برج" هو مَنْ حَذَّره ونَبَّهه، واتفقا أن يُظهرا للجمع اختلافهما بينما هم في الخفاء يرتبان لفضح سِتره، راقب "فايز" فم الفتى المفتوح والذي أشعل سيجارة دونما استئذان ولا تقديم، وبدأت عيناه تبتقان لهباً، وأكمل "فايز" أنه ودَّ أن يُوجِّل الأمر حتى يناقش "برج" نفسه، ويشاوره في الأمر، ولكن رسالة أنت الآن من "برج" تحمل أربع كلمات ذكرها الوسيط:

"كل جريمة ولها عقاب".

وتناول المصحف الذي على مكتبه، ليتر الشك الذي لاح في عيني الفتى:

أُقَسِّم بالله العظيم هي رسالة "برج" حرفياً.

صَدَقَ "فايز" لفظاً وصدَّقه "موكشة" الذي ألقى السيجارة على الأرض ودهسها بقدمه، ومدَّ يده يصافح "فايز" مُعَاهِداً إياه أن حقَّ

أستاذة لن يذهب سُدى، كاد "فايز" أن يصفعه ويفسد كل شيء بعدما رأى السجادة المتسخة بالرماد، تمالك نفسه، ثم أخبر "موكشة" بخطته وقد وَفَّرَ في قلبه لهيبُ الثَّأرِ وفاضٌ في نفسه غمر الانتقام، ولكن ظمؤه لم يرتو بعد.

* * *

بدأت في غلق مفاتيح الكهرباء غير الضرورية، وحرصت على إيصاء محابس المياه، وأعدت ترتيب المجالات والجرائد في صالة الانتظار، باتت مستعدة للمغادرة إبان انتهاء الدكتور "نبيل" من حالاته الأخيرة.

يوم طويل مرهق ولكنها اعتادت على العمل لتلك الساعة بعد منتصف الليل، ولكن ما يزعجها هو اتصال "علية" ابنتها الكبرى وأخبرتها أن ابنها الأصغر حرارته مرتفعة بعض الشيء مما زاد من لهفتها للعودة والاطمئنان على الصغير، ولكن حرجها من دكتور "نبيل" – صاحب الفضل عليها بعد الله – منعها من الاستئذان أو الانصراف مبكرًا وذلك لاعتماده الكلي عليها في ترتيب المرضي وتنظيمهم، بل متابعة حساباتهم والأمور المالية المتعلقة بالعيادة، ثقته بها بلا حدود، مما زادها التزامًا، وأضافها تقيُّداً، وها هي ذي تمر الساعات ودخل المريض الأخير، وما هي إلا دقائق معدودات وتصل إلى بيتها في شارع "المبتديان" بـ "المنيرة" فلم تكن المسافة بين العيادة في "المنيل" وبيتها

بالبعيدة، وسيمنحها التوقيت ميزة انحسار الزحام مع اعتياد د. "نبيل" وإصراره أن يوصلها يومياً بسيارته قبل أن يذهب إلى بيته.

كانت "سعاد" ذات الأربعة أطفال والزوج المندرج تحت عداد المفقودين في "ليبيا" ذهب واختفى، لم يترك أثراً، لا خبر لديها ولا علم، لا تعرف هل مات فتقيم السرداق وتتلقى العزاء، أم تائه، ضائع، مطارداً، سجين، هارب، سنون مرت سئمت فيها ردّ وزارة الخارجية بأنه لا لم يُستدل على المذكور. فَرَّ من هنا لضيق الحال، ومُرَّ السؤال، تركها وصغيرها ما زال رضيعاً وكانت "علية" أكبرهم لم تعبر السبع سنوات.

"علية"...

ابتسمت ساخرة من اسم ابنتها التي اختارته تيمناً بالدكتورة "علية" التي صاحبته في العيادة من قبل زواجها، كتمت أسرارها، لم تتفوه بكلمة عنها أو عمن يترددن إليها من صواحب الشأن، دفنت معها جرائمها، كانت يدها وعينها وكل شيء، ولكن لم يشفع لها في النهاية، تخلت عنها في أقرب موقف، مهما تقل إنها بمنزلة الأخت الصغيرة، لم يهتز لها جفن لما ألقته خارج العيادة بلا تردد، ولولا "د. رضوى" التي كانت تتابع حملها الأول، صحبتها إلى عيادة الأسنان الخاصة بزوجها الدكتور "نبيل" لمات أولادها وأصبحوا بلا ملاذ.

- السلام عليكم.

انتبهت فجأة إلى الرجل الذي يقف أمامها وكأنها انشقت الأرض عنه، يا الله، مريض آخر وفي تلك الساعة، لم تَرَ من قبل، إذن فالليلة ممتدة ساعة أخرى أو يزيد.

تعرف طقوس "د. نبيل" مع الزيارة الأولى للمريض، فحص شامل مجاني، وأحياناً تلميع، وكل الإجراءات اللازمة لتحقيق إرضاء المريض أو العميل يقولها بالإنجليزية دائماً، لا تفهم الكلمات ولكنها تعرف المعنى، في مكان آخر لكانت اعتذرت لمريض آخر الليل، ولكنها هنا لا تبخل على "د. نبيل" بشيء، كتبت غيظها وتناولت ملفاً جديداً وبدأت في تدوين البيانات.

- الاسم؟

- فايز النخيلي المحامي.

طلبت منه الاستراحة حتى ينتهي الدكتور نبيل، ولكنه لم يكثرث وظلّ واقفاً أمامها، يتفحص العيادة وملصقاتها ثم أخرج بطاقة تعريف مكتوباً عليها اسمه ورقم الهاتف وفوقها رزمة من النقود، فتحت فمها دهشه وفي قلبه ابتسم شيطان مريد.

* * *

جلس بينهم وذهنه مكدود، وبدأت تسفعه ريح الندم على ما فرط، واهتاجت في نفسه الظنون بعد أن أحاطت به فعلته، وأصبح وحيداً في المجلس، لا مساس، تتجاهله نظرات من كانوا مناصرين وتقذفه

همهمات من ظلوا مُعادين، جاء إلى مسجد "الرحمة" التماسًا للنصح من أستاذه، الذي غاب عنه أمره، والذي عاهده ونكث، وأدماه التجاهل والإنكار أكثر من حتمية المصير بالطرد من المجلس، جلس "عادل نوح" يترقب انتهاء الدرس الأسبوعي لـ "حسين عبد العاطي" الذي بدأه كالعادة بعد صلاة الفجر، جلس تدهمه حُمى الانتظار، وتدهسه سنابك الترقب.

بينما أصغى الجمع إلى كلمات "حسين عبد العاطي" التي حرّضت الكل على المشاركة في الانتخابات لأنها شهادة حق، لا يكتمها إلا آثم، مهما يكن من يرشحه، المهم ألا يبخل بصوته وعندما سأله أحدهم عمن يدعمه أو يرشحه، ابتسم وألقى واحدة من دعاياته التي تروق للجميع ثم اعتدل في جلسته وابتسم وقال: إن خير من استأجرت القوي الأمين، والحاكم هو أجير عند العامة، وليس العكس، وأن المقياس هو القوة والأمانة، وكلُّ شأنه، ولا يجب عليه أن يستأثر برأيه ويفرض رؤيته.

وقبل أن يداهم أحدهم بسؤال آخر يزيده حرجًا رفع أكفَّ الضراعة ودعا بأن يحفظ الله مصر وأهلها ومرابضها، وأن يُولي من يصلح، أمَّنوا خلفوا.

خرج متأبطًا ذراع "عادل نوح" بعد أن صافح المغادرين وفي نفسه غصة، لقد أصبح وجوده حملاً ثقيلاً، ولكنه أسرها في نفسه، ولم يُبدها له، ووعدته مرة أخرى أن الاحتشاد الآن خلف الانتخابات الرئاسية،

ولن يجد أذنًا واعية له، ويكفيه أنه بلغ من المنزلة ما بلغ، بعد أن دحروهم واجتث شوكتهم وهرب رائدهم إلى بلاد الكفر، يجرُّ خلفه حبائل الشيطان، وهَزَّ صورتهم في الشارع، وأنه لن يتخلى عنه، أو يقصد غير مقصده، ولن تتفرق بهم السُّبل. وأن قرار المجلس يوم الأحد المقبل سوف يكون في صالحه بإذن الله.

وصلا إلى السيارة، دعاه "حسين" إلى الركوب لمصاحبته إلى أقرب محطة مترو، كانا يقفان بجانب السيارة، وبعدما لاح على قسائم عادل نوح علامات القناعة والرضا تحرك "حسين" خطوتين في اتجاه باب السيارة في اللحظة نفسها التي انطلق سيارة مسرعة انشقت الأرض عنها اندفعت بسرعة الصاروخ ثم عادت أدراجها إلى شارع "الأهرام" بعد أن أصابت هدفها بإحكام.

* * *

إنه في يوم الأحد الموافق العشرين من شهر مايو لعام ألفين واثنى عشر وبناء على ما تقدم قررنا نحن رئيس نيابة الهرم تجديد حبس "سيد فاروق عبد الله رضا" خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، ويُراعى التجديد في الميعاد.

* * *

إنه في يوم الأحد الموافق العشرين من شهر مايو لعام ألفين واثنى عشر وبناء على ما تقدم قرر المجلس تأجيل القرار الخاص بإسقاط

عضوية النائب "عادل محمد نوح جاد الحق" لعدم اكتمال النصاب
القانوني للجلسة.

* * *

إنه في يوم الأحد الموافق العشرين من شهر مايو لعام ألفين واثني
عشر وبناء على ما تقدّم قررت اللجنة منح الطالبة / "داليا جابر محمد
العيسوي" درجة الماجستير في الميكروبيولوجي بتقدير امتياز مع مرتبة
الشرف.

* * *

الفصل الأخير

مرّ من بوابة نادي "الجزيرة"، مُتجّها إلى ملعب التنس بعد أن تواعدا هناك، أصرّت أن يتناولوا غداءهما، أيقنت أنها ابتعدا أكثر من اللازم، وحن الوقت أن يدنوا أكثر وأكثر، لم يرفض لها طلباً، طاوعها، امثل لما تميل، لا يملك من الدنيا سواها، ألحّت أن يأتي مكتمل الأناقة، لأنها ودت أن تتأبط يده بين الجميع، تعلم أنه يتحيّن يوم "الجمعة" ليرتاح من تعب الأسبوع، ولكن هذا اليوم هو ملكها وحدها، تقول وينفذ.

إصرار "د. عليّة" واضح ولم يملك "كريم" سوى الإذعان، لم يرّها صالحة البال منذ فترة، وهو لا يدخر عليها براً، ولا يرد لها أمراً، وربما تحيّن اللحظة ويفاتحها في موضوع "داليا"، يعلم أن أمه منيعة الأركان، ولكنه لن يخيب أمله ولن تفتر حماسه.

"داليا" .. لم يفوت الفرصة في ذهابه إلى مناقشة الرسالة، كان سعيداً بها وهي تتحلّى بالثقة والشجاعة والبأس، لم تهتز أو ترتبك بالرغم من أسئلة اللجنة، ثابتة هادئة متمكنة، وعندما نطقت لجنة المناقشة بمنحها درجة الماجستير، ودّ لو ضمّها بين ذراعيه، ووقف إلى جوارها يتلقى

التهاني، لا أن يتذيل الحضور ويسلم عليها كالبقية، يذكر أنها ردت عليه بتحفظ، وتابعت بسمتها مع صديقاتها وزملائها، وبدا كغريبٍ، حتى حداد حاول أن يعرفه إلى زملائه في الشركة، ولكنه أعتذر منه ونكص على عقبيه وانصرف، حتى أمله أن يلقي "د. ياسر" لم يتحقق، عرف أنه اعتذر . توقع بعدها أن تكلمه، لم تفعل، حتى بعدما أرسل لها رسالة تهنئة، ردت بكلمات مجاملة، توجت بؤس قلبه، لا يدري: هل سيطر عليها موضوع "سارة الحسيني" إلى هذه الدرجة، غيرة، ريبة، صدمة؟

- كريم!

جَذَبَهُ صوت "د. عليّة" التي تجلس أمامه، وقد بدأ النادل في وضع أطباق الغداء، كانت أكثر مما ينبغي، نظر إليها متسائلاً: لمن كل هذه الوليمة؟ وجاءت الإجابة عندما جاءت إحدى السيدات الأربعينية، ومعها فتاة في العشرين أو يقلُّ قليلاً، فهم "كريم" الفخ الذي نُصِب له، ونظر إلى أمه مُعَاتِباً، تجاهلت نظراته، بدأت إجراءات التعارف، حيلة قديمة لا تسأمها الأمهات أبداً، وبدأت تتناول الطعام وقد جلست صديقتها إلى جوارها وجلست الفتاة إلى جانبه، جميلة، يعرف أنها جميلة، وهي تعرف أنها فاتنة، ولكن قلبه لا يرى سواها:

"داليا جابر".

تناولوا الغداء، حاولت السيدة أن تكسر حاجز الثلج بعدما لاحظت سكوته، وضَجَرَ ابتتها التي بدأت تلهو بهاتفها، بدأت تسأله عن رَشْح في انتخابات الرئاسة، وعندما أجاب بالنفي، أنه لا ذهب

٣٢٢

ولا رشح، أنهت الدكتوراة "عليه" مكاملة عاجلة، واستطردت أن "كريم" لا يهتم بالسياسة، ولكنها ستصحبه معها في جولة الإعادة، لأنها لم تصبح القضية قضية سياسة، وانتخابات، ورئيس قادم، بل هي قضية حياة أو موت، قاطعها "كريم" أنه سيفعل لو كان وقتها ما زال في مصر، دُهِشت "د. عليه" لإجابته، أوماً "كريم" برأسه بأنه وصلته رسالة بالأمس أنهم وافقوا على طلبه بالعودة إلى "الإمارات" ولم تأتِ الفرصة أن يخبرها، ازدادت دهشة د. "عليه" عندما قال: إنه طلب العودة، لم يخبرها وهي من أرادت أن يتزوج، ويبقى بجانبها، يرتبط بمن اختارت، من تليق به، وتوافقه في المكانة.

تركت الفتاة هاتفها بعدما سمعت أنه يسافر إلى الإمارات واستعدت أن تطلب منه أن يأتيها بعض الأشياء من هناك، وكادت أن تسأله لولا أنها وجدته يرنو نحو طاولة مواجهة، خلع نظارته الشمسية وأطال النظر، تعرّفه على الفور: "حسين عبد العاطي".

"حسين عبد العاطي" وملعب التنس ونادي الجزيرة وتلك الفتاة التي تجلس بجواره يبدو الأمر مختلطاً إلى حدٍّ غريب، ولكن ما الجديد؟ صارت الأمور أعقد من فهمها، رنَّ هاتفه، أخذه من شُروده، رقم غريب اعتذر منهم، انتحى بهاتفه خطوتين:

- ألو... "سعاد"... "سعاد" مين؟

اتسعت عيناه في ذهول، فما كان يسمعه لم يخطر له على بال، كان ينظر نحو أمه، ويتفرس ملامحها وهي تشعل سيجارتها وتضحك مع صديقتها في صفاء، وولى وجهه وانصرف بلا أدنى كلمة.

* * *

(اختبار بقعة حبر رورشاخ، وهي بقع من الحبر السائل تشر على الورق ومن ثم تطوى الورقة لكي نحصل على شكل مختلف ومتناظر، فيختلف البشر في تفسير ما يرونه، اختبار رورشاخ عبارة عن ١٠ صور مُعدة سابقاً لبقع من الحبر على ورق يُعطاهها الأشخاص، ويُطلب منهم أن يذكروا ماذا يشاهدون في هذه الصور والتي لا تحمل أي معنى بالأصل، هي وسيلة لتشجيع المرضى خاصة مصابي الجلطات الدماغية على ممارسة الباريدوليا كوسيلة لفهمهم خلايا المخ وتنشيطها؛ لأن الصور المبهمة وغير الحقيقية يحاول المخ أن يترجمها إلى أقرب شكل، وهذا الشكل يختلف من حالة إلى أخرى، وكلمة السر هنا هي الحافز الذي يُحوّل الوهم إلى حقيقة).

- الحافز هو الذي يُحوّل الوهم إلى حقيقة.

كررتها "داليا" في نفسها مرتين، بعد أن أنصتت لشرح الطبيب المعالج لأبيها وهو يوضح المعالجة النفسية لتأثير الجلطة الدماغية التي داهمتة مؤخراً، بعد أن أصرَّ "د. ياسر بدير" على إتمام منظومة علاج "جبرة" من كل الجهات، سواء كان العلاج الدوائي، أو الطبيعي أو النفسي، في أحد المستشفيات الكبرى الواقعة على نيل "المعادي" رغم

تحفظ "داليا" ولكن رد "د. ياسر" حسم القضية فـ "جبرة" أبوه قبلهم، وما يفعله لا صدقة ولا منه، وإنما بُرٌّ وإحسان، وـ "جبرة" أحسنَ إليه سنيًا، بعمله وولائه ومساندته وإخلاصه ودعائه، ومن يوفي الإحسان فهو جزاؤه، وأنه مهما يعمل لن يوفيه حقَّه وقدره، ومهَّد أن "جبرة" تعب كثيرًا ولمَّا يسترح بعدُ، وأن له أن يقضي وقته وسط أحفاده، مع سريان راتبه دون تقليص أو انقطاع، قاومت "داليا" بلا شراسة، أدهشتها، تاهت منها الغجرية الراضية، المعرضة، المقاومة الإذعان لما يחדش كبرياءها، وينال من شممها، رأت غجريتها جنية تستمع إلى "ريحانة" في "المولينو".

اعتذر منها "د. ياسر" فهو مرتبط بموعد مهمٍّ، وهنأها ثانية واعتذر منها لعدم حضوره مناقشة الرسالة، وأنه ما زال ينتظر أن يراها عن طريق أسطوانة التسجيل، شكرته "داليا" وتمنت حضوره وقتها، ولكنها ارتضت بباقة الورد الكبيرة التي زينت القاعة، انصرف "ياسر" بدير "متجهًا إلى موعد ينتظره منذ زمن.

نظرت هي إلى هاتفها الجوال، قرأت ردها السخيف على "كريم" بعد مناقشة الرسالة، جاهدت وقتها أن تتجاهله بكل ما أوتيت من قوة خشيت لو افتضح أمر تعلقها به، تمنَّت لو ألقت نفسها بين ذراعيه، ولكن ...

– لنبدأ الاختبار.

قالها الطبيب بعد أن جلست إلى جوار أبيها، كي تصبح حلقة
الوصل بينهما، وتترجم مفردات لسان أثقله المرض، وفم عوجه الحزن،
ووجه سكنته علامات الدهشة، شرحت له "داليا" بأقصى ما
استطاعت، مدَّ الطبيب إليها:

البطاقة الأولى

كانت أشبه بألوان عشوائية كأنها صَنَعَهَا طفلٌ، قَرَّبَتْهَا إلى والدها
كي يفسر ما يرى، كان يحول نظره بين البطاقة وبينها وهو يهزُّ رأسه
بضعف ولا يجيب.

كانت هي ترى خفاشاً ليلياً .. يقتحم بيتهم بلا إذن ولا موعد ولا
مِيقَات، لا يحترم شيبة الكبير ولا حُرمة النسوة، لم يتأسَّ حتى بـ "أبي
جهل"، لا يصدق الأيمان والأقسام والدموع ونزفها والخوف
وعلاماته، يبحث عن طريدة حتى في خزانة فتاة وتحت الأرفف وبين
ملابسها.

البطاقة الثانية

قدمتها إلى أبيها، قَرَّبَتْهَا منه، شجعت أن يصف ما يرى، لم يرد، هَزَّ
رأسه نافياً.

كانت هي ترى رجلاً عجوزاً يبتسم مهما تكن الظروف، شامخاً
كهرم، يصارع الدنيا بثغر باسم، فَقَدَ الزوجة وضاع منه الولد، ولكنه
قاوم وابتسم، غَدَرَ به وحيدُه، أَلَبَّ عليه القوم لينالوا من شيبته، ولكنه
بقي صامداً كَرُمَح أَفريقي.

البطاقة الثالثة

لم يرد "جبرة".

كانت ترى صورة فراشة وردية، طارت وارتفعت حتى تُحقّق
أمانها، رقيقة الحال، ولكنها كريمة العناصر، طافت بين الأوراق،
واقتربت من منبع الشمس...

البطاقة الرابعة

لم يرد "جبرة".

كانت ترى وجهين متقابلين، فلم يواجه "وائل" أباه إلا بسببها،
حاول أن يقنعه ولكنه فشل، أذعن لما أراد، وانسحب من دنياها كبقايا
جيش منهزم.

البطاقة الخامسة

لم يرد "جبرة".

رأت هي وجوهاً كثيرة بلا ملامح، رؤوساً تراصّت في خطوط
متعامدة تصرخ تنادي تحتشد، على حافة الوادي وفي قلب الميدان وعلى
ساحل البحر، تغرد من أجل الحرية ولا تريد سوى العدل.

البطاقة السادسة

لم يرد "جبرة".

رأت هي وجه ذئب مُتَحَفِّزٍ، يصعد من بين الوجوه، يتأهَّب لينال
فريسته، يمر من بين الجمال، يقاتل في شراسة وكأنها تقوده غريزة البقاء،
يصفعها، وأثر الصفعة وشَّمَّ على وجهها وقلبها وروحها.

البطاقة السابعة

لم يرد "جبرة".

رأت هي جديلة صغيرة من الشعر، تُزَيِّن رأس طفلة فَقَدَتْ أُمَّهَا
تَمَنَّتْ أن تُلقِي نفسها بين ذراعيها، وتبكي، تشتكي الأيام الصعبة
والظلم البشري.

البطاقة الثامنة

لم يرد "جبرة".

رأت هي شكل سنبله، نبتت في رحم المعاناة، وشقت أرض
الأسفلت، وتمنح الحياة للأرض العجفاء، وترسم فوق القلب علامات
النصر.

البطاقة التاسعة

ترى صورة عقرب مزروع تحت جلدها، خالداً فيه، يلسعها كلما
وجد فيها حب الحياة، وإذا عادت عاد، في سيزيفية لا تنتهي.

البطاقة العاشرة

لم ترد داليا، كانت خطوطها أكثر صعوبة وغموضًا.

"سعد".

رد "جبرة" في صوت مختنق، أقرب للنشيج، انتزع الطبيب من يأسه، أخيرًا تعرف إلى الصورة الأخيرة، ولكن من "سعد" هذا؟ وما علاقة الصورة به؟

كان "جبرة" يراه بين الخطوط الأفقية التي تشبه موج البحر، معصوب العينين، يمضي على غير هدى، يعصف به الموج، والبحر سيء الغلبة، فهل ينجو؟

لم يكن يعلم أن "سعد" يغادر الآن فوق مركب صيد يتجه إلى مهمة محددة صارت دأبه ودينه ودنياه.

* * *

- للأسف هي ده الحقيقة.

تنهد "د. ياسر بدير" وهو ينهي حديثه مع "كريم"، الذي سقط رأسه بين راحتيه، وكاد يسقط مغشيًا عليه بعد أن تمزعت أركانه، واجتثت دعائمه، الدموع سقطت عفواً من عينيه، عبس وجه "د. ياسر بدير"، وعقد ما بين حاجبيه، ولكن بؤرة ما داخله أضاءت ما حولها، تمددت حتى هدأت روحه، وهمدت ثورته، كثيرًا ما كانت تؤرقه

الصورة التي بدا عليها صديق عمره "عبد الحميد صدقي"، صورة جائرة، لوحة مزيفة متعسفة، رسمها "عبد الحميد صدقي" بنفسه، بأنامل بترتها الأحداث بسكين حاد، أثر أن يبدو في صورة الأب الذي تخلّى عن بيته وابنه الصغير، على أن يأخذ طفل من أمه، أو حتى يشوه صورة أم ابنه، حاول "د. ياسر" وقتها أن يرده، اعترض عليه، على ابتعاده، لكن كان لـ "عبد الحميد" رأى آخر أن الأم يمكن أن تقوم بدورها ودور الأب، أما الرجل فيتعذّر عليه ذلك خاصة "علية" بقوة شخصيتها ربما تكون أفضل منه، وأنه لن يتركها، سراقبه من بعيد في صمتٍ، وسيتدخل عندما تعجز هي - إن عجزت.

لقد كانت "علية" قبل زواجها بـ "عبد الحميد" تحيا حياة بسيطة، فقد كانت زميلته في الدفعة نفسها في كلية الطب، ولكنها كانت طموحًا بشكل مذهل، ربما أحبّت "عبد الحميد"، وربما اختارت أن تُحبّه، كان صديقه في كلية "الهندسة"، أعجبتّه الفتاة الريفية، تعلق بها لم يتردد أن يرتبط بها على الرغم من فارق المستوى الاجتماعي للعائلتين، استخدم علاقاته في عملها، منحها شقة في "الزمالك" لتشيدها عيادة لها، وبعلمها ولباقتها نجحت وبنت قاعدة من المرضى من فئة خاصة، لمع نجمها، لم ترفض لهم طلبًا حتى لو كان غير شرعي أو قانوني، لم يقف أمامها سوى زوجها الذي لم يرتض أن تبني زوجته مجدها فوق الجماجم، وأن تجمع ثروتها من جني الخطايا، ولكنها لم تتراجع أنملة بل زادت بأن دخلت في الدائرة السياسية لإشباع رغبة المال والثروة

والسلطة، ظنت أنها تلتمس طريق السعادة، سلكت درباً غير مُمهّد،
وأكبر عقبة فيه كانت زوجها، الراض لكل الأفعال والذي انسحب في
هدوء أو انتحر أُسرِيًّا فقط من أجله هو:

"كريم".

اختار أن يبقى مظلوماً على أن يُشوّه صورة الأم في عيني وحيدته،
خسر هو كيلا يخسر الجميع.

شرب "كريم" كوب الماء الذي أمامه بيد مهتزة، وحاول أن
يستوعب ما حدث وما سمع.

لولا اتصال "سعاد" الممرضة وشرحها ما حدث من ظلم
الدكتورة "علية" وممارسات العيادة غير المشروعة وغير الشرعية، وأنها
أخذت على فمها، ولم تنبس ببنت شفة، لولاها ما أفشى "د. ياسر"
السر، وما كان ليعرف الحقيقة، وعاش بقية حياته ناقماً على أبيه، ساخطاً
على ظلّمه له.

كاد "د. ياسر" أن يضيف عبارة لولا أن رنّ هاتفه وسمع محدثه ثم
وقف فجأة وقال:

- أنا جاي حالاً.

سَحَبَ "كريم" من يده، الذي غادر معه دهشاً، لم تكن المسافة
بعيدة بين برج "سار يدار" ومستشفى "ابن سينا" في الدقي، علم
"كريم" من "د. ياسر" أن السيدة "سناء" قد تم حجزها هناك، وأن

المحامي الخاص بها حاول الاتصال به أكثر من مرة، دخلا معًا بعد أن عرّفهم "د. ياسر" بنفسه، وشاهد "كريم" الأسلاك المتصلة بها، ووجد "مريم" ترمي في حُسن مربيّتها وفي يدها دُميتها الصغيرة، رَقَّ قلبه لحالها، تقدّم منها خطوتين، ما زالت تذكره، في عينيها براءة، وفي قلبه حنين غريب لها، شيء ما يدفعه نحوها، ضمّها إليه، اطمأنَّ "د. ياسر" من الطبيب المعالج على حالة السيدة "سناء" التي ابتسمت لوجودهم، نظرت إلى "كريم" الذي حمل "مريم" بين ذراعيه وأمسك دُميتها باليد الأخرى وسأل "مريم" بحنين عجيب:

- أنت وراكي حاجة يوم الجمعة!

نظرت له "مريم" عن غير فهم، وقد عانقها في حرارة، وتنهّدت السيدة "سناء" وقد أغمضت عينيها، ورثى "د. ياسر" لصديق عمره الذي تَمَنَّى تلك اللحظة.

* * *

طمست العند ورفعت الراية البيضاء، تزينت وتجملت وتحلت بحلي "سمّاح" وقد أتت بها من الظهيرة والتي لم تدخر عنها جهداً، خرجت "نهي" عليهم أخيراً، تجرُّ قدميها بصعوبة، وقد جلس أهلها في صفين متقابلين، استندت على ذراع "سمّاح" وكأنها تؤدي مراسم جنازية وتتهياً قرباناً يخطو نحو المذبح، و"سمّاح" تلقى في أذنها آخر الوصايا: كفها التصاقاً بماضٍ لن يعود، لقد مات "كالوشا"، لم تتركه ولم تخنه ولكن هذه الحياة وستنها، ساقية تدور لا تتوقف على أحد،

يكفيها ما ضاع من عمرها، عريسها طيب كما يبدو، و"فايز" يقول إنه رجل ميسور وسيسعددها، فعليها أن تستثمر حسنة "فايز" الوحيدة .

لا تعرف "سماح" لماذا لم يأتِ معه؟ لا يتمم خيرًا بدأه، إنه حلقة الوصل بين الطرفين، زفرت تغيُّظًا عندما لم يرد على الهاتف.

أهل "نهي" تبادلوا البسمات، فلقد كان عريسها طيب المعشر، حلو اللسان، ربما يكبرها بسنوات وسبق له الزواج من قبل، ولكن "نهي" لم تعد بنفس نضارتها كما كانت من سنوات، وقطار العنوسة زاغ عن قضبانه وسيدهسها لا محالة، ونسج الناس عمن تخطت سن الزواج لا يُبقي ولا يذر، حتى لو كان سرايبًا، لا غمر فيه ولا ضحول.

تتأملها "سماح" تبقى شاردة كمن أصابها مسٌ، بينما "نهي" بينهم لا ترى سوى "كالوشا" رأتَه في كل مكان، يضحك ويهذر ويغني ويرقص، ثم يُختفي.

يبدو أنهم اتفقوا على كل شيء، وقرؤوا الفاتحة وانطلقت الزغاريد، قَبَلُوا "نهي" وعندما انتهوا رمت نفسها بين أحضان صديقتها، جاهدت "سماح" أن تداري دموع صديقتها، لا تعرف تهنتها أم تواسيها؟

أوصدت "نهي" أذنيها عن عبارات التهنئة، سمعت صوتًا خافتًا يأتي من ثقب مجهول في رأسها، تمدد كفقاعة احتل كيائها كله، كان صوت الحاج "إبراهيم" يهمس:

ان دونيا اييج ان دونيا اييج
والله باد انجا ..نوريكا بادنجا
(الدنيا جحيم والله بعدك وبدونك جحيم).
ايكا فاكينيا
(كنت قلت لي إنك راجع).

* * *

أغلق الهاتف غاضباً، لم يجدوا شيئاً، أسطوانات عادية، ليست المطلوبة، أغبياء، رمى مزيداً من الشراب في حلقه، علّها تُطفئ أوار قلبه، الزجاجة قاربت على الانتهاء، ولم يسكر، لقد أصبح رأسه قطعة من حديد، تمنى لو سارت الأمور بقدر ما رتب لها، أبلغ عن برج في الوقت المناسب وأصابع الاتهام كلها أشارت نحو "حسين"، لا يريد أن يهدم المعبد كله لأنه معبده، هو من بناه وشيّد، سيطرده المارقين ويتخلص منهم يوماً ما، حتى لو أفلت "حسين" من ضربة "موكشة"، لقد أصاب الغبي شخصاً آخر، ولكن الجولة انتهت، والمباراة لم تبدأ بعد، حتى لو عرف "موكشة" أني خدعته لا يهم، فهو دون معلمه لا عقل ولا حيلة ولا حول، و"كريم" الآن لن يجد إلا الفرار فلن يستطيع أن يستمر مع أمه بعدما حكّت له "سعاد" جرائمها، خسارة خمسة آلاف من الجنيهات في مكالمة تليفونية لا يضر، سيهرب "كريم" إلى الخارج، ويخرج من حياته محني الهامة، وإن عاد يعد، ما زال جراب الساحر لم

ينضب، حتى "كالوشا" لا يحسب أن بموته قد فَرَّ من العقاب، وإن جاء الانتقام في نهى، آن لحبيته أن ترمي بين ذراعي رجل آخر، كل جريمة ولها عقاب كما قال الحبيس، رجَّت ضحكته العابثة أرجاء الشُّرفة يرى على سطح القمر نصف المُكتمل وجهًا بائسًا، ترى هل أهو وجه "برج" الحبيس أم "كالوشا" الميت أم "حداد" التائه أم "كريم" المصدوم أم وجه...؟

انفتح باب الشقة وسمع صوت "سماح" التي عادت من خطبة صديقتها، كاملة الزينة، لم يرها هكذا قط، اقتربت منه وهي تنظر شذراً يسمع صوتها موجاً وكأنها يأتي من بئر خسيقة، الغضب احتل قسماته، ربما تُوبّخه أنه لم يأت وأنه قلل منها.

نَظَرَ إليها شاردًا، "سماح" التي سكنت من قبله ما هو دون الجحر، لا هواء يلج ولا شمس تزور، والآن تقف كطاووسٍ اغترَّ واستكبر على مَنْ بَسَطَ يديه كي تحيا في برجٍ مَشِيدٍ، والآن تسكن في برجٍ مَشِيدٍ. "سماح" التي ما بدلت ملابسها طوال الكلية لا تجد لملابسها مكانًا. "سماح" التي رفع شأنها وبدلاً من الحلق الوحيد التي ترتديه أصبحت تُقرض الناس حُلِيِّها. كل هذا ولا ترضى، تُهينه وتلومه وتستوطئ قدره وهو من هو.

اربدَّ وجهه، يحسب أنه يراها للمرة الأولى بلا حواجز الحب الوردية، رفع يده إلى أقصى ارتفاع وهبط على وجهها بصفعة هائلة وتركها مذهولة وعاد إلى الشرفة وإلى زجاجته.

دارت الدنيا بها، وكأنها في غيبوبة، تعلم أنها حركت ساكن غِله
ومكنون عداوته، ولكن هل يجزؤ أن يصفعها هكذا؟ لقد فعَل.

ودَّت لو أوسعته لومًا وتوبيخًا، ولكن الصدمة أتت عليها،
أوجست منه خيفة، لقد نزع حبها من قلبه بعد أن كان عبدًا أسيّرًا، تمرّد،
وجحد، وعليها أن تتركه وترحل، وقرنت القول بالفعل، فتحت
حقيبتها، وألقت فيها ملابسها ما استطاعت، وحملت صغيرها النائم،
وتقدّمت نحو الباب، ستذهب إلى بيت أبيها، ستتركه حتى يزول عن
رأسه بخر الخمر، وتتلاشى الغشاوة من فوق عينيه، ويأتي لها صاغرًا
نادمًا على فعلته، ولن ترضى عنه أبدًا، تعلم أنه ينظر إليها الآن، ولكنها
لن تتراجع، يقترب منها تشعر بأنفاسه، لو حاول أن يحتضنها، أو يُقبّل
يدها، أو يعتذر منها، ستصرخ في وجهه، وتدفعه، وستنام في غرفة ابنها
حتى تنسى، ولن تنسى.

اقترب خطوتين هددوء، تحامى وجهها إلى درجة الاحمرار، ونظرت
إليه مُتَوَثِّبَةً، تخطاها إلى باب الشقة وفتحه على مصراعيه، وعلى وجهه
ابتسامة صفراء، وقد زوى ما بين عينيه، يطردها، هكذا وبكل هددوء،
سقطت الحقيبة من يدها من فرط الصدمة، حدثت إليه مشدوّهة، تركها
عائدًا إلى الشرفة، ولم ينبس ببنت شفة، و"سباح" تقف في المسافة بينه
وبين الباب المفتوح وعلى كتفها ثقل، تجمّدت في المسافة بين عالم من
الرغد هي سيدته وبين دنيا الحاجة في بيت أبيها، لا تملك رفاهية
التراجع ولا قسوة الإقدام.

ظننتُ أنها ملكت مفاتيح الحياة واكتشفت أنها أجير مؤقت، يمكن أن يُرفع دائماً من الخدمة.

* * *

وحيد كما توقعت، الكل تخلى عنك، أصبحت أنت كبش الفداء، ظنوا أنهم تخيروا لك المصير، لم يعلموا أنها النهاية الحقيقية، الوحيدة التي انتظرها، لا أخشى السجن، ولكن لستُ وحدي مَنْ يستحقه، سأعطيهم الفرصة التي طلبوها، ولكنني تركتُ نسخة مع "حداد" على سبيل الاحتياط، لا يعرف ماذا يفعل بها، ولا أظنُّه سيفعل سوى ان يحتفظ بها، حمل ثقيل أتمنى أن يتحمله، لا أعرف: هل "فايز" أم "حسين" السبب في وجودي هنا، ظننت أن السلطة هي سر السعادة ولكن السعادة كانت أنت يا امي، الحاجة "زينب" لا تعوض سلمت مفتاحك إلى صديق العمر سيحفظه دون أن يسأل: هل سأخرج من هنا أم لا لم؟ تعد تلك المشكلة، فلقد ارتكبتُ أكثر من جريمة تستحق العقاب.

سيد فاروق عبد الله (برج)

* * *

لم يسرقوا شيئاً، فقط بعض الأسطوانات للشيخ "الحصري" و"فيروز" و"ليلى مراد" و"ساندرا".

هكذا قالها "حداد" وهو يعبر بسيارته ميدان "الرماية"، ويختلس النظر إلى الطريق خلفه في مرآة السيارة، استقبلتها "داليا" بتوتر وجبين منعقد، زادها اضطراباً وارتباكاً.

لقد تقصوا آثار رسالة "برج" وعلموا بأمر الأسطوانات لقد تعرضت شقته للتفتيش بحثاً عنها، لا يعرفون أنها مرت إلى "بورسعيد" في كتابها، فهم رسالة "برج" وقتها، وأن السر يكمن في كتاب "الجريمة والعقاب" الذي تركه في السيارة، كان أهده إياه زوج عمته يوماً ما، ربما أعجب "برج" بشخصية "راسكلينكوف" وحول حياته إلى جحيم بعدما ظن أن تفوقه الجسدي يجعله فوق القانون، كما ظنَّ البطل أن تفوقه العقلي يمنحه الحق نفسه.

ولكنه سبقهم بخطوة عندما مرَّ الأسطوانات إلى زوجته "حنان" التي أخفتها في مكان آمن. حتى عنه هو شخصياً، لا يعرف حتى الآن ماذا يفعل بها؟ ولماذا تركها "برج"؟ وسر هذا المفتاح المجهول؟ ورفضه مقابلته؟ ربما أراد أن يبعد عنه الشبهات؟ هل يواجه الفساد الذي تفشى شره؟ أم يرقبه وهو يتمدد ويأتي على الأخضر واليابس؟ هل تتبعه هذه السيارة السوداء أم هي مصادفة؟ هل قرروا مطاردته والتخلص منه في أقرب وقت؟ نفص الأفكار التي عربدت في عقله وتطلع إلى "داليا" التي يلوح عليها علامات الحزن، ربما تعقيد حكايتها مع "كريم"، وعلمها أنه يستعد للرحيل، ربما من تواتر الأحداث، ونتائج الانتخابات التي انهزم فيها الجميع كما توقع هو، أم ترقب لتتائج محاكمة

القرن التي بدأت اليوم، هل ما زالت تظن أن في الأمر بقية، الخرافة أكثر دوامًا وقبولًا من الحقيقة.

دلف بسيارته إلى ساحة الانتظار، شجعها "حداد" أن تستمر، سمعته جيدًا عندما تتم أن لحظات الاختيار في الحياة أقل ما يمكن، وعندما تأتي تلك اللحظة عليها أن تغتنمها، وعليها أن تجد مخرجًا من هذا التيه، وكلما أضاء لها نورًا مشت فيه، وإذا أظلم عليها قامت تبحث عن كوة ضوء وتزرع الأمل حيث كان، وتصنع الفلك بنفسها لتنجو من طوفان الحزن والظنون، تنفّست في عمق ونزلت من السيارة أوقفها بإشارة من يده، وأجرى مكالمة سريعة ثم أغلق هاتفه، أبلغها إلى أين تتجه، عليها الذهاب الآن وألا تُخَيِّب أمله، أومأت برأسها متفهمة وهمت أن تنصرف ولكنها عادت تسأله سؤالًا خطر على بالها، هل كان يعرف من صفعها يوم موقعة "الجمال"؟ ابتسم ولم يُجِب، عاد بسيارته إلى الطريق الدائري، متجهًا إلى "بورسعيد"، يظن أن تلك السيارة السوداء ما زالت تتبعه، ابتسم عندما أحس أن الوهم قد تمكّن منه وأصابته اللعنة أم هي الحقيقة لا يدري.

* * *

غمّره شعورٌ دافئ عندما رآها تضحك لأول مرة، كانت تلعب في سعادة، وكان يلعب معها، يرى ضحكته صافية أكثر مما ظنّ لا يتذكر أنه ضحك منذ أن مات أمير السعادة "كالوشا" وظنّ أنه لن يضحك أبدًا، كانت تُشير له وهي على الأرجوحة، وكان يمسك لها الآيس كريم

المُثلَّج الذي طلبته، كانت ضحكته تُشبهه، احتضن "مريم" في سعادة، ركب قطار الأطفال، والأتوبيس الطائر وركب معها في سباق السيارات والنهر السريع وضحكا من مسرح العرائس وابتاع لها دمية أكبر من التي لديها وفجأة أشارت إلى السماء:

- أرنب.

كانت تشير إلى السماء عندما رأت سحابة على شكل أرنب، ضمّ شفّتيه وأذنيه مثل الأرنب محاولة لتقليده، ضحكت في براءة:

- فيل.

مدّ ذراعه أمام أنفه وحاول تقليد صوت الفيل ضحكت أكثر:

- ساندويش.

وقَفَ عاجزاً ماذا يفعل، فحملها بين ذراعيه ونغزها حتى صارت تضحك بلا توقف، أخبرها أنها رأت السحابة على شكل شطيرة لأنها جائعة، ذهبوا إلى المطعم، مجموعة من الشطائر ولعبة أطفال، ردّ على مكالمة "حداد" الذي يكلمه في تلك الساعة من يوم "الجمعة"، وأجابه كما أبلغه بالأمس أنه مع "مريم" أخته الصغيرة في "دريم بارك"، والآن هما يتناولان الغذاء في المطعم، دُهِشَ من اتصال صديقه، هل ظنّ "حداد" أني نكثتُ وعدي لـ "مريم"، أم أراد أن يطمئن فقط كما قال، لا يعرف. يرى صورته المنعكسة في المرآة وكأنها يراها لأول مرة:

(تعلّقي بـ "مريم" سوف يربك الحسابات ثانيةً، لا أعرف هل أتركها وأمها بهذه الحالة، طالما أردت أن أكفر عن ذنبي تجاه أبي، لا أقوى أن أنظر إليك يا دكتورة "علية"، ماذا فعلت بنا؟ لا إخفاء عنك يجدي ولا مواجهة، لا أتحمّل أن أراك في هذا المأزق، من أنا حتى أفشّش في سيرتك، وأقيم لك المحاكمة؟ أنا ابن تائه، أقف على حافة المنحدر، لا حرية لي ولا اختيار، فقط مسار إجباري، تدفعني فيه الأحداث دفعًا، وهذه بقيّة مما ترك أبي، الذي غاب عني أمره، وزغت عن طريقه، ليس لي أن أتركها وأخذله حيًّا وميتًا، ضحككتها نُجبت النار المستعرة في جنبي، تداوي السقم وترمّ الشعث، كم تمنيتُ أن تبقى داليا إلى جوارِي، ولكنها اختارت أن تنأى عني، ولكن هل انتهت الحكاية هكذا وطمست أبجديتها ولم يعد لها وجود أم كانت وهما من البداية حسبه العاشق حياة؟).

لم يرَ "داليا" التي وقفت خلف زجاج المطعم تُراقبُه، مترددة، هل تدخل أم لا؟ تغار من تلك النظرة التي ينظرها لأخته الصغيرة، إنها تشبهه، البراءة نفسها، تذكرت أخاها "سعد" والحنان الذي كان في عينيه، لا يعرف "كريم" حكاية "سعد"، تُرى هل يرضى أن يرتبط بفتاة أخوها إرهابي، هل تبدأ حياتها بكذبة ربما لن يكتشفها أو يكتشفها بعد فوات الأوان، صورتها تنعكس على الزجاج، ترى ملامحها تارة وتراه هو تارة أخرى وتوقّف الزمن هناك.



جلست "د. عليّة ياسين" في ركنٍ بعيدٍ وعلى وجهها علامات عدم الرضا، وزفرت في حنقٍ كي تنتهي إجراءات الخطوبة، مرت اللحظات ثقيلة رتيبة، موقفٍ سخيّف وآن له أن ينتهي لا ترى تكافؤاً بينهما ولكن طالما ارتضيا فليس لها من سبيلٍ، ربما كانت هي على خطأ وهم على صواب، ولكنها تجزم أنها خُدعة صنعتها الفوضى، وهم سيدركون بعدها أنهم كانوا فريسة للألاعيب، حاولت أن تبرح بذهنها خارج المدار عندما جلست بجوار المحامي "علي راشد" الذي حدّثها عن الجولة الثانية للانتخابات التي ستبدأ بعد أيام، اندمجت معه في الحديث حتى جاءت اللحظة الحاسمة وارتداء خاتمي الخطوبة للعروسين، وارتفعت الزغاريد من أرجاء القاعة، وميّزت صوت "كاميليا المهدي" مُعلنَةً خطبة ابنة عمها الآنسة "درية المهدي" إلى النائب "حسين عبد العاطي" عضو مجلس النواب.

* * *

تمت بحمد الله

الجمعة ١٨/٠٨/٢٠١٧